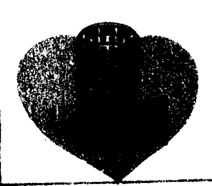
إحسان كمال

أقوى حب



الغلاف

بريشة الفنان

الاستاذ حسين بيكار

مقدمـــة



بقلم الاستاذ الدكتور عبد القادر القط
بجامعة عين شمس

من الأمور التى تلفت النظر مشاركة المرأة للرجل فى فنون الأدب وفى أول الأمر كان القارىء ينظر إلى ذلك كشىء غير مألوف . . لكن مع ازدياد عددهن أصبح ذلك شيئا عاديا ، منهن كاتبات ناشئات مازلن يتلمسن طريقهن فى دأب وإخلاص . . ومنهن مبرزات يقفن جنبا إلى جنب مع المرموقين من الكتاب الرجال .

وهنا يتساءل الكثيرون . . هل لدينا أدب نسائى ؟ ، والحق أن هذا السؤال يقوم على فهم غير صحيح لطبيعة الأدب والفن . . فالأدب من حيث مقوماته الفنية لا يمكن أن يختلف عند الرجل أو المرأة . . وإنما تختلف اهتمامات كل من الجنسين . . لذلك لا ينبغى أن نلتمس عند المرأة أدبا خاصا له مقومات فنية متميزة . . ولكننا يجب مع ذلك أن نعترف لها باهتماماتها التى تمليها عليها ظروفها وأوضاعها الاجتماعية .

وللسيدة إحسان كمال من هذه الناحية اهتمامات متميزة تشارك فيها الكثيرات من الأديبات فتقدم نماذج إنسانية لرجال ونساء ، والمرأة عندها فى أغلب الأحوال مخلوقة طيبة محبة .

الشىء الواضح عند الكاتبة أنها تجيد التقاط موضوعها وتحسن تصويره بعناية فائقة يحس القارىء معها أنه أمام كاتبة جادة تحاول قدر طاقتها أن تلقى على صورتها من الظلال والألوان ما يوحى بكل الدلالات النفسية والاجتماعية التى تهدف إليها من رسم تلك الصورة ، وهى عندما تلتزم بالأسلوب الجميل ترتفع إلى مستوى يقرب من مستوى الشعر . فيه قدرة بارعة على توليد كثير من المعانى والخلجات النفسية الدقيقة فى موقف واحد ثابت .

وللسيدة إحسان كمال ميل واضح إلى الفكاهة . . ولكنها فكاهة لا تهبط إلى مستوى الاضحاك المحض دون هدف . . ولا تصل إلى أن تكون سخرية مريرة غير متعاطفة مع الناس . . وإنما هى فكاهة تجمع بين الامتاع من ناحية وبيان مفارقات الحياة من ناحية أخرى ، وتهدف إلى الكشف عن كثير من الأوضاع الاجتماعية والنزعات النفسية . . وتمتزج فيها المأساة بالدعابة . . وهى تحب أن تنهى بعض قصصها نهاية طريفة تلقى ضوءا على القصة كلها فتبرز الدلالة الكلية لها .

وأخيرا إحسان كمال جديرة بما أوتيت من موهبة كبيرة فى التقاط الموقف وحكايته أن تبلغ شأوا بعيدا من التقدم والاجادة .

د . *عبد القادر القط*

فتشوا هذا الرجل



تهلل وجهه . . أول مرة يأتى بالاتوبيس بهذه السرعة . . خط امبابة بالذات مشهور بتأخر عرباته . . لم يكن يهتم . . عمله ليس خطيرا يتوقف على الدقائق والثوانى . . لكنه اليوم كان يخشى على حمله الثمين . . عشرة كيلو جرامات من الطماطم مرة واحدة . . نصف ساعة تأخير تتسبب قطعا فى

تلفها . . حيث هى أول الأمر «متفعصة» ، مسح المحطة بنظراته محاولا أن يتكهن أين سيقف الأتوبيس بالضبط وبدأ يتحرك تأهبا لأن يقف فى نفس النقطة التى توقعها . . فجأة وجد أمامه سيدة . . جميلة أنيقة . . مع الأسف لا وقت عنده ليملى عينيه من جمالها . . الأتوبيس أهم . . أو بمعنى أصح الطماطم التى فى حقيبته أهم . . لكن . . يا للعجب . . هى التى اعترضته . . وجعلت تتفرس فى وجهه . . لم يكن يظن نفسه فتاكا لهذا الحد . . اه لو لم تكن الطماطم معه . . فرغم نظراتها تحرك ليكون فى انتظار الأتوبيس . . قالت السيدة بلهجة امرة :

— هات الكيس . . !

قال بدهشة وهو ينظر بقلق ناحية الأتوبيس القادم من بعيد بأقصى سرعة :

— أى كيس ؟

— كيس النقود . . الذى نشلته منى من لحظات أمام كشك الخضر . . لا تنظر ناحية الأتوبيس فلن تستطيع الفرار بغنيمتك

عاد يزأر : ـ ما هذا الهراء ؟

— طلع الكيس بالتى هى أحسن . . هذا أفضل لك . .

كادت عيناه تخرجان من محجريها خلف الأتوبيس الذى لم يكد يتوقف ثوانى حتى تحرك تاركا شعبان يشيعه فى حسرة وهو ينقل نظراته الزائغة بينه وبين وجه المرأة التى انشقت عنها الارض وبين حقيبة الطماطم فى يده . . رفع عقيرته فى سخط :

— أى كيس يابنت الـ . . . .

كما هى العادة تجمع الناس حولهما فجأة كما لو كانوا أغصانا شيطانية أنبتتها الأرض فى غمضة عين ، قالت السيدة للجميع :

— كان يقف بجوارى أمام كشك المؤسسة الاستهلاكية للخضر والفاكهة . . بعد انصرافه بدأت أدلى للبائع بطلباتى . . عندما انتهى من اعدادها فتحت حقيبتى لكننى لم أجد كيس النقود بها . . قطعا أخذه هذا الرجل . . فحينما أصبحت أول طابور السيدات كان هو أول طابور الرجال . . وأحسست به يحتك بى متظاهرا أنه زحام الطابور هو الذى دفعه ناحيتى ، ولقد تأكدت أنه السارق عندما عبرت الشارع خلفه فلم يكد يرانى حتى أصابه الفزع وتأهب للفرار منى ليقفز فى الأتوبيس لو لا أن اعترضته . . انظروا نظراته الزائغة . .

أغلب المتحلقين حوله كان يبدو عليهم تصديق دعوى السيدة . . رأى هو الاتهام فى عيونهم التى كانت تحاصره فى تحد . . دهش . . لماذا أخذ الجميع صف السيدة ؟ . . لا أحد منهم يعرفها أو يعرفه فلماذا ؟ . . خرج من جلده ووقف

بعيدا وسط الناس فاذا به يأخذ صفها مثلهم . . كانت السيدة جميلة أنيقة . . جدا . . عليها سمات العظمة والفخامة . . وهو زرى الهيئة والشعر والملابس . . لكن هذا ظلم . . صرخ :

— أقسم بالله العظيم ما أخذت كيسها ولا حتى رأيته . . أما تتقين الله ياحرمة ؟

قال رجل يرتدى نظارات طبية وتبدو عليه دلائل الرزانة :

— ربما سقط منها وأخذته أنت دون ان تعلم من تكون صاحبته . .

ارتاح الكثيرون لكلام المتحدث اللبق وأمن أغلبهم عليه «صح» . . «جائز» . . «معقول» . . «احتمال»

كاد يلطم خديه . . كانت كلمات الرجل ناعمة . . رقيقة . . رقيقة حتى لا تكاد تخفى الاتهام الذى حاول تغطيته بها . . عاد يصيح :

— هذه المرأة الأفاقة تخدعكم . .

صرخت المرأة : اخرس يا لص . .

— بل أنت اللصة رغم الطلاء الذى تلطخين به وجهك

كادت تنفجر لكنها عادت وتماسكت :

— لنذهب الى قسم البوليس . . هناك سيخرجونه منه بالقوة . . طالما يرفض الآن اخراجه بالذوق . . أنا واثقة ومتأكدة أنه معه حيث أحسست بأصابعه لكن . .هزت كتفيها :

— هناك أناس خلقوا هكذا . . لايستريحون حتى ينالهم التهزىء . . ! !

عاد الرجل اللبق يواصل لعبة كلماته الرقيقة :

— أنت واثق أنك لم تأخذه . . وهى واثقة أنه معك . . و . . فى القسم سيفتشونك . . فلماذا لا . . .

سكت قليلا يبحث عن كلمة «رقيقة» لكن شعبان لم يكن فى حاجة اليها . . صاح :

— فقط هكذا ؟ . . حسنا . .

خلع جاكتته ثم قميصه . . ثم بنطلونه . . وراح يرميها تباعا لجندى مطافىء تصادف مروره وبدقة وعناية بالغتين راح الأخير ـ وعلى مرأى من عشرات العيون ـ يفتش كل قطعة تصله . . يخرج كل ما فيها ويسلمها لشخص بجواره .

انتهت الجولة الأولى لصالح الرجل . . لم يكن معه أى كيس . . وحافظة نقوده لم تكن تحوى سوى جنيه واحد وبعض الفكة فانتفت حتى فكرة أخذه النقود الوفيرة التى كانت بكيس المرأة ثم التخلص منه بعد ذلك ، ارتد الجميع بأبصارهم اليه . . رغم الرثاثة البادية على ملابسه الداخلية لدرجة لا تحتمل معها اخفاء شىء فيها تقدم الجندى اليه وأخذ يتحسسها . . ثم رفع يده وهزها عدة مرات علامة

التأكيد على خلوها . المرأة أخذت بعض الشيء لكنها لم تنهزم تماما . . مدت اصبعها فى اتجاه حقيبته المصنوعة من المشمع والتى كان قد أسندها الى حائط مظلة المحطة ، بحركة غريزية اختطف الحقيبة وضمها اليه . . الطماطم . . كم كانت سعادته عندما اشتراها . . صفقة رابحة . . متواضعة نعم ولكن . . ما أندر ما عرض له من فرص . . لم يكن ينوى حتى شراء حبة طماطم واحدة لكن البائع الذى رأى انصراف الناس عنها لزيادة نضجها الى درجة « التفعص » قدر أنه لن يكتمل النهار حتى تكون قد تلفت تماما ومن ثم أعلن « تسعيرة » الطماطم اليوم عشرة قروش لكنى سأبيعها بخمسة فقط لمن يأخذ الكمية كلها . . شروة واحدة « وفكر شعبان . . لن تمضى شهور حتى يرتفع ثمن هذه « المجنونة » فيصل لأكثر من ربع الجنيه . . وفى هذه الفترة بالذات . . وياللعجب . . تختفى الصلصة . . كل عام يفاجئهم هذا الاشكال وتقول زوجته بندم « ليتنى صنعت بعض الصلصة . . اه لو تداركت ذلك ؟ » « قدر اذن أن ربما طيبة ولا شك هى التى ساقته الى كشك الخضر لحظة هذا الاعلان فبادر جذلا - قبل أن يقتنصها غيره - يعلن شراءها . . وفى نفسه يتخيل سعادة زوجته بهذه المفاجأة السارة التى لم تكن تتوقعها ، يريدون الآن البحث داخلها . . لن تتحمل تقليبهم وعبث أيديهم . . « ستتفعص » أكثر ولن تصل - من ثم - الى المنزل الا تالفة تماما . . حامضة . . تسبقها رائحتها ، صاحت السيدة بنبرة ظافرة :

— أنظروا كيف يرفض تفتيش الحقيبة . . ؟ ألم أقل لكم أن كيسى بداخلها ؟ . .

عرف الآن فقط لماذا أرسلت اليه الأقدار هذه السيدة لتختاره هو بالذات . . وفى هذا الوقت بالذات . . عز على هذه الأقدار أن يفوز بشىء . . ألم تتربص به من قبل لتجهض أى أمل حبلت له به الليالى . . لأول مرة راح يسترجع شريط حياته وهو يربط بين كل فشل وخيبة أمل واحباط . . كان متفوقا فى دراسته يبنى الآمال الكبار عندما حدث ما حدث ليجد أكتافه وقد ناءت فجأة بحمل أعاله العديد من الشقيقات . . لم يحضرهن هو إلى الدنيا ولكن . . لم يكن بوسعه أن يناقش أباه فى تصرفاته أو يعتب عليه . . داخل قبره ، البنت التى أحبها لم تستطع انتظار انتهائه من تربية شقيقاته . . الواحدة تلو الأخرى ، قريب لرئيسه يعمل فى الخارج بأجر كبير . . . مع ذلك يقطع اعارته فجأة ويعود « ليلهف » الدرجة التى كان رئيسه قد وعده بها قبل شهور مضت ، المنزل الذى دفع فى خلو احدى شقفه تحويشة العمر تزيله البلدية لتوسع شارعا هاما . . الخ الخ .

ليست صفقة الطماطم فى مثل أهمية هذه الأحداث ولكن . . القشة أيضا لم تكن بالغة الثقل . . مع ذلك قصمت ظهر الجمل . . وأخيرا لم يكن ينقصه الا هذا الموقف . . نصف عار وسط عيون تقتحمه لتعجم عوده وتقيسه طولا وعرضا وملؤها اتهام ظالم بجريمة زرية على قارعة الطريق . . !





فجأة بدأت الدنيا تظلم . . كأن أحدا يغلق شيش النوافذ . كيف ذلك وهو فى الشارع ؟ ! ، أحس بأن السماء تهبط شيئا فشيئا . . وكلما أوغل داخل أحداث حياته كلما هبطت السماء أكثر . . حتى كادت تلامس رأسه . . مع ذلك لم يتوقف هبوطها . . وأحس برأسه تنضغط تحت ثقل السماء الرهيب . . لشدة الضغط أخذ جسمه ينبعج وبدأت رقبته تنحشر داخل جسمه حتى اختفت تماما وأصبح رأسه مركبا على جسده مباشرة ككرتين وضعت صغراهما فوق الكبيرة . . السماء ما زالت تواصل هبوطها فلا تتحمل الكرة الصغيرة ضغطها وتنغرس داخل الكبيرة ليصبح كرة واحدة . . المتحلقون حوله بدأوا يشوطونه فيما بينهم . . بألسنتهم التى لم يعد يسمع أقوالها وان رأى حركتها . . رغم ما وصل اليه فالسماء لا تكف عن الهبوط . . الكرة تتبطط تماما لتصبح فطيرة . . يبدو أنها كانت لذيذة حتى بدأ الجميع يلتهمونها . . بنفس الألسنة التى كانت تشوط الكرة من قبل . . لم يميز من أقوالهم جميعا ـ التى كانت تئز فى أذنيه كطنين النحل ـ غير صوت السيدة . . كانت تقول بلهجة تقطر كبرياء وعجرفة وتسلطا :

— لا بد أن أرى ما بداخل هذه الحقيبة

فجأة . . وجد يديه ترفعان الحقيبة الى أعلى . . أعلى من مستوى رأس السيدة . . وفى ثوان كان يقبلها . . بكل محتوياتها . . فوق شعرها ورأسها ووجهها وذراعيها وفستانها . . الناصع البياض . . قلبها وهو يهدر :

— كى تريها جيدا . . !

عندئذ . . وعندئذ فقط . . بدأت السماء ترتفع . . وترتفع لتعود الى مكانها الأول .



نسيج العنكبوت

مر أكثر من أسبوع على ملاحظتها له لأول مرة . . ساعتها دهشت اشد الدهشة لوجوده ، كانت وقتها نائمة فى فراشها . . بعينين مفتوحتين . . كعادتها فى قضاء حوالى نصف الوقت الذى تمضيه فى فراشها . . مستيقظة . . ! تحدق فى لا شى تنظر الى السقف ولا تراه . . تفكر فى مأساتها الخالدة . . التى

لم يكن يبدو لها من نهاية على الاطلاق . . رغم ذلك لم يكن باستطاعتها الا أن تفكر فيها ليل نهار . .

أحيانا تناجى ربها : « هل عسير عليك ياربى أن تمنحنى فلذة » ؟ . . تعطى غيرى بالعشرات ، ولا شىء يصعب عليك اذا أردت . . أنت اذن فقط لا تريد . . ولكن لماذا ؟ ؟ . . لك فى كل شىء حكمة ، فما حكمتك فى حرمانى ؟ . . أو ربما كانت حكمتك خافية عنى فلم أحاول أن أبحث عنها » لكنها مع كل البحث والفكر لا تجد ، فتعود للابتهال : « طفل واحد يا رب . . أقر به أنا وزوجى عينا . . ونربط به أواصر الحب القائم بيننا . . « وتعود تستدرك » الذى كان قائما . . فهل يعقل ـ هذا ما تسائل به نفسها كثيرا ـ هل يعقل ـ أن يظل يحبنى بعد أن حرمته مشاعر الأبوة ؟ « لكنها تعود وتحتج . . على لا احد . . ! فلم يوجه لها الاتهام أحد قط . . لكنها كانت تشعر به دائما قابعا فى أعماق الصدور ، وفى أغوار العيون ، وفى ثنايا الكلمات . . فتنبرى تدافع : « ما ذنبى . . لم أقصر فى شىء أبدا . . ويعلم الله كم اتوق واتمنى . . من كل قلبى ! ! .

كثيرا ما قال لها زوجها : « اتركى هذا الامر . . انا شخصيا لم اعد افكر فيه . . وماذا بالله عليك سيفعل الطفل أو الاطفال الذين سأنجبهم هل سيأتون لى أو للبلد بالذئب من ذيله ؟ ! . . سيعدلون ما هو مائل . . ؟ عنهم ما أتوا . . ! تلك ارادة الله « ، لكنها لا تصدقه . . من ذوقه وانسانيته يخفف عنها فقط . . ويعود يؤكد : « لا يهمنى فى هذا العالم سواك . . انت بالنسبة لى كل شىء أنت الكسب الوحيد الذى خرجت به من دنياى . . وما دمت معى فلا ينقصنى شىء وتبتسم فى نفسها « امير والله . . يفعل كل ما بوسعه ليهدهد الامى وقلقى . . لكن ترى ، الى متى . . ؟ قطعا سيجىء اليوم الذى ينضب فيه معين صبره . . عندما يبدأ يخشى أن يفوته قطار الانجاب . . عندما يشتد السكون بمنزله . . ترى ، متى سيأتى ذلك اليوم ؟ هل هو قريب جدا . . أو بعيد وعلى أية صورة سيعلنها بيأسه منها . . ؟ هل يكون لطيفا فيسبق عملية البتر بشىء من التخدير ؟ ، أو يعلنها بالامر فى ثورة جامحة تخرج بعد كبت طويل ؟

يستغرقها التفكير حتى يزود النوم عن عيونها ساعات طوالا . . تتململ وتتقلب وتغمض عينيها ، لكن النوم يظل مطلبا عزيز المنال . . فتعود تفتح عينيها . . لكنها لا ترى شيئا حتى انعكاس اشعة الشمس على زجاج السيارات المارة بالطريق عندما يمرق على سقف غرفتها سريعا ثم يختفى . . لا تراه إلى أن كان ذلك اليوم الذى لحظت فيه ان احد هذه الانعكاسات لا يلمع مثل اشعة

الشمس الذهبية . . ايضا فانه رغم تحركه . . لا يختفى سريعا . . ظل أى شىء هو يا ترى ؟ . . لكنها عندما انعمت النظر اكتشفت انه ليس ظلا لأى شىء وانما هو . . نسيج عنكبوت ! ! ، ودهشت جدا . . دهشت مرتين . . الاولى لمنظره الذى يختلف من كل ناحية عن منظر نسيج العنكبوت كما الفت أن تراه . . صغيرا فى حجم القرش . . قاتم اللون . . قذر الشكل الى درجة تثير القرف . . هذا الذى رأته فى السقف كانت مساحته تقترب من العشرين سنتيمترا . . لونه رمادى فاتح . . شكله أقرب الى نسيج قماش من الشيفون الشفاف الهفهاف منه الى بقعة قذرة منفرة . . ! حتى ان نسمات الهواء كانت تداعبه فيتماوج . . ! ، أيضا كانت دهشتها لوجوده هناك . . رغم عنايتها الفائقة بنظافة منزلها . . الامر الذى كان مثار ثناء واعجاب وزهو القريبات . . ودعابة الصديقات اللاتى سمين عنايتها هذه وسوسة . . ولذع اللدودات اللاتى يتسقطن هفوة : « وماذا وراءها يشغلها . . من يرضع أو من يحبو . . ؟ »

حجم نسيج العنكبوت الكبير يقطع بأن صاحبه لم ينسجه بين يوم وليلة حتى تعلل عدم رؤيتها له من قبل . . الا اذا حاولت فى اصطناع الدعابة أن تبعد عن تفكيرها مشكلتها المريرة فقالت فى نفسها ـ الا اذا سهر عليه بعد موعد العمل الرسمى كى يحصل على أوفر تايم . . ! أو ربما تكون أزمة المساكن قد لحقت العناكب أيضا ومن ثم اشترك منها اربعة أو خمسة معا فى بناء بيت واحد . . « لكن محاولتها باءت بالفشل . . فجأة شهقت وهى تتذكر كلمة قالتها «اعتدال» ابنة عم زوجها . . عندما نصحتها احدى القريبات فى اجتماع ضم العديد منهن . . أن تكتفى بالاطفال الثلاثة الذين أنجبتهم وتبدأ فى تعاطى أقراص منع الحمل . . فردت بأنها كانت تتوق لذلك بعد الاثنين الاولين . لكن زوجها يحب الاطفال ويريد المزيد . . وذلك طبعا لأنه يحبها حيث الاطفال تزيد أواصر الزواج توثقا . . « أما البيت الذى يخلو من الاطفال فان كيانه يكون أو هى من نسيج العنكبوت . . ؟»

شهقت]دغادة » عندما تذكرت هذه الكلمات ، وعادت تحملق فى نسيج العنكبوت بالسقف . . كان من الدقة والرقة بحيث راح يتماوج من نسمة هواء هينة . . لدرجة توقعت معها فى كل مرة أنه سيتمزق أربا . . ! ، قالت تحدث نفسها فى حسرة مريرة : « هل بيتى أو هى من ذلك النسيج ؟ . . صحيح لم تمزقه نسمات الهواء . . لكن الوقت الآن أواخر الصيف . . ولن تمضى أسابيع حتى يأتى الخريف بنسماته القوية . . فهل يتحملها ! . وبعد الخريف سيأتى الشتاء بعواصفه . . واه من عواصف الشتاء . . »

ترى هل كانت « اعتدال » تقصد غمزها بهذه الكلمات . . ؟ مؤكد . . سمعت كثيرا من بعض القريبات ان « اعتدال » ـ وأمها من خلفها ـ كانت تأمل

وتتوق الى الزواج من « سعيد » ، رغم زواج « اعتدال » الا انها ظلت تكره « غادة » وتحقد عليها وتتحين الفرص لغمزها . . فلم تكن هذه هى المرة الاولى ، يومها بعد ان قالت هذه الجملة السخيفة . . عضت شفتها بحركة مسرحية وكأنها تستدرك خطأها وهى تنظر ناحية «غادة» . . لكن الحركة كانت تنقصها اللباقة بحيث بدت وكأنها تؤكد بها انها المقصودة بتعريضها . . !

فكرت أن تقوم لتأتى بزعامة الحوائط كى تزيل نسيج العنكبوت من السقف ، لكن جسدها لم يستجب لها عندما همت بالنهوض . . لم تجد لديها قابلية للعمل والنشاط . . عللت نفسها بأنها متعبة اثر مجهود الصباح ، وان من حقها أن تستريح بعض الوقت . . وبعدما تحصل على قسط من الراحة يمكنها احضار الزعافة . لكنها عندما قامت نسيت الموضوع كله ولم تتذكره الا بعد ظهر اليوم التالى . . عندما استقلت فى فراشها لتستريح قليلا . . ونظرت فوقها فوجدت العنكبوت . . هتفت :

— بالله . . نسيته كل هذا الوقت ؟

لكنها أيضا لم تستطع النهوض ، واجلت ازالته حتى تريح جسدها المكدود . . كالعادة لم يستجب لها النوم فراحت تسلى نفسها بمراقبة العنكبوت وهو يروح ويغدو داخل نسيجه . . ترى ماذا يفعل ؟ . . لا ريب يعمل فى توسيع النسيج « يا لك من طماع . . كل هذه المساحة لا تكفيك » . . عموما عندك فرصة حتى الساعة الخامسة عندما أنهض من فراش . . ليس طماعا وحسب . . لكنه « بجح » أيضا حتى يشيده فى غرفة النوم . . بل وفوق سريرها بالذات ، هل يتحداها . . ! ؟ أما كان الأولى به أن ينسجه فى ركن من المطبخ أو فى الحجرة الصغيرة التى لا تفتح إلا نادرا عندما تنزل فى ضيافتهم إحدى القريبات . . والتى كانت تنوى تخصيصها للأطفال . . هؤلاء الأطفال الذين لم يأتوا . . ولا يبدو أنهم سيأتون فى يوم من الأيام . . غريب والله أمر هذا القدر الذى يحب دائما أن يسخر ويتلهى بعذاب البشر . . كثير من الزميلات والصديقات يشكون مر الشكوى من حساسية تسببها لهن أقراص منع الحمل ، فاذا أوقفتها متخذات تحوطا . . يتم الحمل رغم كل تحوط ، فيلجأن للاطباء والوصفات البلدية تخلصا من حمل غير مرغوب فيه . . ! ، لماذا يحرم من يريد ويعطى من لا يرغب ؟

عبثا تحاول أن تخرج بتفكيرها بعيدا عن نطاق هذا الموضوع . . إذا كانوا قديما قد قالوا « كل الطرق تؤدى إلى روما » فهى اليوم تستطيع أن تقول « كل المواضيع تجر إلى حرمانى من الأطفال » . . ! إنها لم تنس أمر العنكبوت بعد مغادرة الفراش لكنها لم تذهب لتزيله . . هل أصبح منظر العنكبوت رائحا غاديا داخل بيته يسليها حتى تحرص على وجوده ؟ . . أو أنها أصبحت تضن بالعمل والجهد فى منزل مقضى عليه بالانهيار أن عاجلا أو ؟ أو أنها تعاطفت معه كزميل

يشترك معها فى وهن مسكنه أو أنها فقدت فجأة حماسها لكل شىء . . ؟
لا أحد . . ولا هى نفسها . . تدرى ! .

بعدها تمر الأيام . . ومع مرورها تزداد كابتها وانطواؤها رغم كل محاولات « سعيد » لاخراجها من تلك الحالة . . كم تود لو تجاوبت مع عواطفه الجياشة المتدفقة . . ماذا دهاها . . ؟ قالت له يوما « أحمد الله أن خلقنى ذات قلب كبير . . وإلا لما أتسع لكل هذا الحب الذى أحمله لك » ! فهل ما زالت تحبه كما كانت فى فترة الخطبة وأوائل الزواج ؟

للحق حبه هو لم يفتر قط . . أو للدقة ، مظاهر هذا الحب . . فلشد ما تتوق لان تنفذ داخل أعماقه لتعرف شعوره الحقيقى . . هل مازال حبا أو تحول إلى شفقة ؟ ، عهدته دائما نهرا متدفقا من الحنان . . وكم أسعدها حنانه وهى التى حرمت الأب صغيره . . حب أمها ورعايتها كانا - ولا تدرى لماذا - يفتقران إلى الحنان ، اليوم لم يعد يسعدها فيضان نهر حنانه فتفكيرها الدائم فى أن هذا النهر سيأتى عليه يوم ويحول مجراه . . إلى أخرى تستطيع أن تمنحه ما عجزت هى عنه . . رغم أن الأطباء جميعا أكدوا أن الأمل موجود . . لكن ها هى ذى الأعوام تمر ويظل الأمل مجرد أمل . . !

صدق من قال أن وقوع البلاء أهون من انتظاره . . لقد ظل العنكبوت يعمل فى توسيع سكنه رغم قرارها بازالته بعد ساعة واحدة . . لكنه لم يكن يعلم . كان الله بالعنكب أرحم منه بالانسان . . وفى تقديرها أنه لو علم لمات كمدا قبل أن تمتد إليه زعافتها . . وهى . . ؟ ، تعيش فى انتظار انتهاء الزمن من شحذ سيف الشقاء لها ، تظل طوال اليوم تعمل كالة بلا روح . . حتى يعود « سعيد » من عمله ، ويقبل عليها باشتياق ، لكنها تقابل شوقه بفتور وفى اعماقها سؤال لحوح « متى تفعلها ؟ ماذا تنتظر ؟ . . لماذا لا تعجل وتريحنى ؟ . »

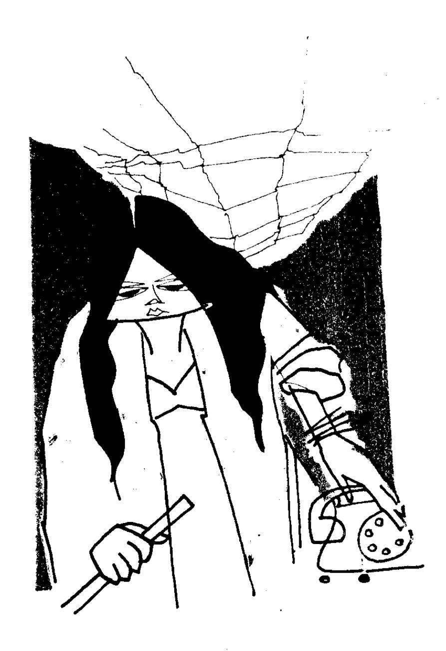
بل انها ذات يوم طلبت هى الأنفصال . . ذلك أكرم لها . . لكنه غضب وثار وحذرها - فى لهجة شديدة الألم - أن تعود لهذا الموضوع .

بعد الغداء تذهب إلى فراشها . . لكنها لا تنام . . بل تظل مفتوحة العينين تنظر إلى نسيج العنكبوت بلا مبالاة عجيبة . . اللامبالاة تزداد كل يوم . حتى مر أكثر من أسبوع على ملاحظتها لنسيج العنكبوت . أول مرة . . دون أن تزيله ، وان كانت تحمد الله أن « سعيد » لم يلحظه قط ولا أى من المقربات جدا اللاتى يدخلن غرفة النوم أحيانا لاصلاح زينتهن .

فى ذلك اليوم دق جرس التليفون ، وهرعت إليه من المطبخ لتجد والدة « اعتدال » تطلب منها ابلاغ « سعيد » شكرها على مساعيه للتوفيق بين « اعتدال » وزوجها « مؤمن » . . وتطلب منه وقف هذه المساعى التى لم يكتب لها النجاح مع الأسف حيث طلقها أمس . . مدعيا أنه لم يعد يحتمل تعذر التفاهم بينهما لعنادها

الشديد ومناكفتها ، لم تستطع « غادة » أن تنطق سوى جملة واحدة : « غير معقول . . غير معقول . . » ثم وضعت السماعة دون أن تزيد حرفا واحدا .

قبل أن تعود إلى المطبخ سارعت ـ وهى كالمنومة ـ إلى دولاب المطبخ حيث أخرجت زعافة الحوائط ثم اتجهت إلى غرفتها وظلت تعمل الزعافة فى السقف عدة مرات ذهابا وايابا لتزيل تماما كل أثر لنسيج العنكبوت ! . .



إنتهت اللعبة



صرخ الحاجب بنبرة متشنجة جلجلت فى أرجاء القاعة كلها : محكمة

كف الحاضرون عن همساتهم فبسط الصمت عباءته على الجميع فى حين قام محامى يتحنجل كا لغراب فى ردائه الاسود حتى وقف امام منصة المستشارين . .
وبدأ يتكلم . . راح اولا يفند ادلة الاتهام دليلا وراء

دليل حتى انتهى منها جميعا ثم اخذ بعد ذلك يقدم ادلة اخرى تؤكد براءتى اغلب هذه الأدلة كانت جديدة بالنسبة لى حتى انى كنت اسمعها لأول مرة ! !

براعة . . يترافع ببراعة . . يختلق ببراعة . . اطال واطال اصابنى الملل . . خيل الى انه سيظل يتكلم حتى نهاية العالم سحبت سمعى وبصرى من فوق شفتيه ورحت افكر فى امور اخرى . . قطع تفكيرى صراخ الحاجب مرة ثانية بنفس النبرة المتشنجة :

— محكمة . . .

دخلت هيئة المحكمة الموقرة بعد ان انتهت من مداولاتها . . تنحنح رئيسها تمهيدا للنطق بالحكم . . حبست انفاسى تماما . . فتح الرئيس فمه . . تكلم :

— ومن حيث انه ثبت لدينا عديد من الظروف المخففه . . فقد حكمت المحكمة على المتهم بعدم ممارسة الكلام . . أى كلام . . !

— وضعت يدى على فمى لأمنع ضحكة كادت تنفلت منه خشيت ان فعلت ان يظنها القاضى سخرية منه . عدم الكلام ؟ . . وأنا الذى انذرنى محامى بتوقع اقصى عقوبة . . الاعدام لقد وعدنى بان يبذل قصارى جهده لكنه اردف فى صراحة :

— مع ذلك الجهد الخرافى الذى بذلته فى اعداد الدفاع والذى سابذله فى المرافعة - والكثير من التفاؤل ايضا - نستطيع ان نؤمل فى تخفيف الحكم الى الحبس المؤبد ! . . .

فاق الحكم كل تفاؤل . . فأيها اهون . . حبس الجسم كله أم حبس عضو منه فقط ؟ . . بل حتى عضو ضئيل ليست له كبير اهمية . . بالنسبة لى استطيع أن اقول انه ليس حكما على الاطلاق . . طول عمرى لم أحب الكلام . . فى جميع المجالس - سواء فى العمل او فى السمر - كنت الزم جانب السمع . . متابعا احاديث باقى الحاضرين . . ونادرا ما كنت افكر ان ادلى بدلوى فى المناقشات الدائرة متمثلا بوجهة النظر التى تقول ان من يستمع يستفيد اكثر ممن يتكلم . . بالله . . ما اسعدنى شكرا للسماء وشكرا لك ايضا ايها القاضى النزيه . . صحت هاتفا :

— يحيا الـ . .

ياإلهى . . ما هذا ؟ . . من هذا ؟ ! . . . شخص يسد فمى باصابع فى برودة الثلج وقوة الفولاذ . . رد على التساؤل الذى اطل بالحاح من عينى :

— هل نسيت الحكم . . اننى الموكل بتنفيذه

رفعت أصبعى ارجوه ان يسمح لى بكلمة واحدة . . فماذا سيظن القاضى بى اذا لم اوجه اليه الشكر ؟ . . معدوم الذوق رفض ان يسمح لى بهذه



الكلمة . . شيء غريب فانا لا انوى قول كلام سيؤذى مشاعر احد حتى يمنعنى ، كلمة الشكر لا يمكن أن تكون مكروهة فى أى مجال . . هز كتفيه . . هززت كتفى أنا الآخر . . حسنا ليكن . . فليظن القاضى ما يظن . . ليس للأمر اهمية كبرى . . عموما اعتقد ـ وارجو ـ اننى لن اراه مرة أخرى

نسيت كل شى عن القاضى والحكم والقضية بأكملها عندما رأيت ابتسامتها تضىء وجهها وتضىء ـ ايضا ـ العالم كله من حولها . . ترتدى ثوبا جميلا لم أرها عليها من قبل . . خرج صوتى مليئا بشحنة من المرح والاعجاب وانا احييها :

— ماأروع . . .

لم أكمل . . فوجئت بالأصابع الفولاذية تبتر كلماتى ، لا . . كن لطيفا . . حتى فى تنفيذ الأحكام ينبغى ان يكون الشخص مرنا . . لقد وقفت بجوارى طوال محنة المحاكمة . . شجعتنى دائما بابتسامتها التى كانت ترفع من معنوياتى فى احلك الساعات ليست كل الزوجات بمثل وفائها وصمودها . . فلا أقل من ان اجاملها بمجاملة صغيرة . . رفض ان يرفع اصابعه . . احسست بضيق شديد . . سيؤثر ذلك ولا شك فى نفسيتها . . بعد كل تضحياتها لا تسمع منى كلمة ؟ . . حتى اذا تركنا موضوع التضحيات جانبا فانا احبها . . الا استطيع أن اعبر عن مشاعرى ؟ . . عن حبى ؟ . . حتى لزوجتى ؟ تفرح كالاطفال عندما اصف لها فى كلمات قليلة بين الحين والحين ـ حتى فى الفترة التى حجزتنى عنها القضبان ـ مكانتها فى قلبى . . تفيض من عينيها ينابيع السعادة . . حتى لتغرقنى من قمة رأسى حتى اخمص قدمى ، اسقط فى يدى . . جلست بجوارها متجهما قطع تفكيرى نظر غريب باغتنى بشدة . . طفلتى الصغيرة تنتهز فرصة انشغالنا جميعا فتفتح حقيبة امها خلسة لتأخذ منها قطعة من الشيكولاته . . صرخت دون وعى :

—عيب يا . . . .

بسرعةسد فمى بيده . . . التفت ناحيته والغضب ملء نظراتى . . لكنه لا يبدو عليه انه يأبه ولو قليلا لغضبى . . . ألا يفهم ذلك الغبى ؟ . . . صغيرتى لا تدرك انها بهذه العمل انما تسرق . . اذا لم الفت نظرها وافهمها خطأها فقد تفعل نفس الشى مع زميلاتها فى المدرسة . . مثلا . . ولا احد يدرى إلام ينتهى بها الأمر . . ينبغى ان اقوم اعوجاجها من بدايته . . انها ابنتى ولااستطيع ان اصمت تجاه أى هفوة لها . . مهما صغرت ، لم يقصد القاضى بحكمه منعى من تربية طفلتى . . بدون شك هذا المنفذ غبى . . جاهل . . لو انه فقط رفع يده لاستطعت اقناعه بخطئه لكنه لا يتزحزح ابدا . . ازداد ضيقى . . بل تضاعف على اننى حاولت ان اخفف عن نفسى بان ابنتى غالبا ستعيد الكرة . .

وقطعا ستلحظها امها ذات مرة فتتولى تنبيهها للخطأ قالت زوجتى محاولة تبديد جو الكآبة الذى سيطر على المكان :

— تصور الصدف السعيدة . . فريق نادينا سيلعب اليوم مع فريق اجنبى كبير . . ما رأيك فى مشاهدة هذه المباراة ؟

لم اتحمس كثيرا لهذا الاقتراح . . واحست هى بضيقى فاقتربت من مقعدى وراحت تربت على ذراعى وهى تكرر اقتراحها وكأنما امتصت لمساتها الكثير من ضيقى فأومأت برأسى موافقا على الذهاب الى الاستاد . .

كانت زوجتى على حق . . مع لمحات الفن الجميل بدأت انسى ما بقى فى نفسى من ضيق . . ولكن . . يالله . . هل هذه لعبة ؟ . . هتفت مستنكرا :

— وحشة خا . . .

نسيت الحكم الشاذ . . . لكن المسئول عن تنفيذه لم ينس لم تلهه حرارة اللعب عن القام بمهمته . . . البغيضة ، إيجب ان اصمت حتى هنا ؟ . . مجرد كلمة فى الهواء . . لن يسمعها احد . . حتى الموجهة اليه لكنها تعبير عن رأيى فيما ارى . . ماضر هذا الرجل لو قلتها ؟ ، لم احس بمتعة فى المشاهدة كتلك التى كنت انعم بها فى مثيلات هذه المباراة الهامة الا ان الهدف الذى احرزه فريقنا كان جميلا لدرجة تكفى لامتاع اى انسان مهما كانت نفسيته ، وانطلقت الحناجر فى هتاف شق عنان السماء . . هلل الجميع ولم استطع ملك زمام لسانى فهللت معهم :

— هايل يا . . .

امتدت يده . . تصك فمى بسرعة . . اكثر من تلك التى بها صكت الكرة الشباك ، حتى إنتصار فريقنا لا يشفع لى فى كلمة ؟ . وإذا كنت لا استطيع التعبير عن سخطى او اعجابى . . اذا لم استطع ابداء رأيى فيما ارى ففيم بقائى ؟ غادرت الملعب وأنا اشعر بطعم المرارة فى فمى ، طبعا لم يخف على زوجتى ما أعانى فاقترحت الذهاب الى مشرب لتناول شى ، جاء الجرسون . . . قال وهو ينحنى كرقم ستة : .

— أى خدمة . . .

لكننى لم ارفع رأسى من حيث اسندته فوق يدى . . ما الفائدة . . هل سيتركنى اطلب ماأريد ؟ . . اسرعت زوجتى تنقذ الموقف :

— اثنين ليمون من فضلك

— إلتفتت الى وهى تردف :

— افضل شىء يروق الدم :

كاد الكأس يسقط من يدى . . لم اكن بللت ريقى بنقطة واحدة بعد عندما

رايته تركت الكوب بسرعة هذه اللحظة انتظرتها طويلا . . شهورا واسابيع واياما . . ساعات ودقائق وثوانى . . مرت على محسوبة من عمرى وانا لاافكر الا فى هذا اللقاء ، لماذا كرهنى الى هذه الدرجة ؟ . . ام لعلها رغبته فى تقديم قصة مثيرة لقرائه ؟ . . مع انه كانت امامه موضوعات اخرى اكثر اثارة وايضا اكثر اهمية والحاحا . . موضوعات تهم كافة الناس الملهوفين الحائرين المتخبطين لكنه تركها كلها وتوقف عند قضيتى يكتب فيها ويعيد . . ترك هزائم يطلقون عليها نكسات ودويلات جمعت من اشتات تحتل اجزاء من دول عريقة تضرب جذورها فى اعماق التاريخ . . ترك معتقلات تحوى الوانا من القهر والتعذيب والاذلال . . وامسك بموضوعى . . ربما كانت امثال هذا الموضوع هى الوحيدة التى يستطيع الخوض فيها . . بيد انه اشتط كثيرا . . لم يكن من حقه ابدا ان يحاكمنى على صفحات جريدته ثم يصدر على حكما بالادانه . . كل يوم كان يطلع على قرائه - وحتى على انا - بتفاصيل جديدة عن حادثتى . . او جريمتى كما اسماها ، كان الأولى به ان يكون روائيا لا صحفيا . . الآن ثبت تجنيه واختلاقه وتدليسه . . ما اشد شوقى . . بل لهفتى . . لأبصق على وجهه . . لا . . لن افعل . . يكفينى أن اسخر منه ، كانت استنتاجاتك عقيمة . . بنبت عليها توقعك الحكم باعدامى . . بعد الحكم لى بالبراءة . . هل تعترف الآن بخطئك ؟ سمعت قهقهة . . يالله . . كنت قد نسيته . . منفذ الحكم . . اردف بسخرية بالغة :

— براءتك ؟ !

لم ادهش لمعرفته بما يدور فى رأسى قبل ان انطق به . . شغلتنى دهشة اخرى لماذا هو يسخر . . طبعا براءة . . الا يرانى امامه حرا طليقا اذهب الى اى مكان اشاء . . اخرج من الاستاد لأجلس فى كازينو واضعا ساقا فوق ساق . . كا لعظماء ؟ عدت انساه او احاول نسيانه . . لكنه أبى على ذلك ، ما كدت اخطو خطوة واحدة حتى وجدته بجوارى . . ماذا ؟ . . هل ينوى ان يمارس مهمته الآن ايضا ؟ ! . . لا . . مستحيل . . الا الآن . . هذا الرجل افترى على . . ظلمنى . . وفى وسعى الآن ان اقول له كنت ظالما فى حكمك على . . ولا بد ان اقولها . . سكت فيما مضى . . واستطيع ان اسكت ايضا ما بقى لى من عمر ، لكنى لا بد ان اتكلم الآن ، سقانى الكأس تلو الكأس . . مرتعة بالحنظل . . جعلنى لبانه يلوكها بين شدقيه . . وعظامى تطرقع تحت اضراسه . . لكنه لا يبالى . . بل تزداد نشوته كلما سمع أنينى . . تضايقت لكنى استطعت التحمل عندما منعنى حارسى من التعبير عن حبى لكنه لن

يستطيع ـ ولا أى كائن من كان ـ ان يمنعنى من التعبير عن حنقى وكرهى . . من اشفاء غليلى ، نظرت اليه . . ربما زجرته نظرة التصميم فى عينى . . لم يأبه لى وحملت نظراته تصميما اكبر . . فتحت فمى كان مستعدا ولذلك وجدت يده فوق شفتى قبل ان انطق بحرف واحد . . لا . . الا هذه المرة . . اتركنى الآن اقول ما اريد وأعدك ان تكون الأخيرة لا استطيع ان اسكت . . فوق طاقة احتمالى . . ارجوك . . اتوسل اليك . . .

انهمرت دموعى . . كدت اقبل يده . . كل هذا لم يجد معه . . على العكس . . ازدادت اصابعه صلابة فوق فمى اصبحت كقضبان من الحديد . . مساكين اذن اولئك المصابون بعاهة البكم . . ولكن . . نعم . . يتفاهمون بالاشارة . . فلأ حاول . . ربما افلحت رفعت يدى اليسرى وبدأت احركها . . انتهت المحاولة قبل ان تبدأ . . رفع يده . . ليس من فوق فمى . . الاخرى . . وامسك بها يدى ، فكرت فى حل اخر . . الكتابة . . نفس سلاح غريمى . . قبل ان اخط حرفا رفع قدمه محاولا بها قذف القلم من يدى . . تشبثت به . . ازداد ضغطه . . كسر القلم . . تحولت غضبتى اليه . . اردت ان اصرخ فيه انك تتجاوز مهمتك ، . . حمدا لله انه يعرف ما أفكر فيه . . زجر بفظاظة :

— لم اتجاوز مهمتى . . يبدو انك انت الذى لم تع الحكم جيدا . ممنوع من كافة انواع الكلام .

ارتميت فى كرسى وانا احس بالمرض يصيب كل قطعة من جسمى . . لو استطعت ان افضفض بما فى نفسى . . اذن لا رتحت ، تذكرت امرا غريبا . . اشخاص اضناهم اشد الضنى اشياء حاولوا اخراجها فلم يستطيعوا . .

تضايقوا . . عانوا . . مرضوا . . اتو الى فى العيادة . . بعد فحصهم رأيت الى أى حد يتعذبون . اعطيت بعضهم نقطا ساعدتهم على افراغ ما فى انوفهم ، ووضعت للبعض الآخر حبوبا سهلت لهم التخلص مما تكدس فى امعائهم استراحوا . . شفوا . وشخص اخر . . استدعانى بعد منتصف الليل . . مثانته ملأى ولا يستطيع افراغها ! . . كانت حالته خطيرة . . اجريت له عملية جراحية فى الحال خلصته من معاناته ، ولو اننى لم الحقه فى الوقت المناسب لكان قد قضى . . اندهشت من نفسى . . لماذا اتذكر كل هؤلاء . . لا تشبه حالاتهم حالتى من قريب او بعيد . . كان ما يضايقهم اشياء مادية . . محسوسة ملموسة . . انا اريد ان افرغ ما يملأ خاطرى من ملاحظات كلام . . الكلام ليس شيئا محسوسا . . الجميع يؤمنون بذلك . . وانا ايضا . . على استعداد لتقديم مئة دليل علمى على ذلك .

اقصد كنت مستعدا لذلك حتى صباح اليوم . . قبل ان يحدث كل ما حدث طوال ذلك النهار المشحون يبدو انى كنت مخطئا . . الجميع مخطئون والا . . فما هو هذا الشي الذى يملأ فمى كله ؟ . . حتى الحلقوم ؟ . . بل انه اخذ فى التمدد والتشعب حتى بدأ يعوق تنفسى . . رغم طعمه الكريه حاولت ابتلاعه . . لكنه لم ينبلع ! . . بدأت احس بالاختناق وكان لا بد ان اتخلص من هذا الشي ان افرغ مافى رأسى ان اتكلم . . حتى استريح

بدأت أحاول اخراج الكلمات . . بازلا كل جهدى . . اكتشفت اننى اقوى مما كنت اتصور . . كاد ضغط كلماتى يتساوى تماما مع ضغط يد حارسى ، فكرت اننى لو زدت ضغطى قليلا فسأتغلب عليه . . حاولت استجمعت قواى . . لكننى لم استطع زيادته قيد إنمله .

بين الشد والجذب . . احترق ذلك الشى الذى كان يملأ فمى . . الكلمات . . شريط طويل من الكلمات . . بدايته عند طرف لسانى ونهايته داخل تلافيف مخى ، اصبح شريطا من النار . . كان لهيبه مروعا . . لسع لسانى وحلقى ورأسى . .

بعده اخذت الاشرطة الملتهبة تترى وتتوالى . . عذاب لا يمكن تصوره . . فوق احتمال اى لسان . . رقدت فى فراشى منهارا . . لا . . لقد خدعت غرّروا بى . . وبك ايضا ايها المحامى البارع . . لم تكن تلك ظروفا مخففة ابدا . . بل لا ريب كانت ظروفاً مشددة ! . . فهذا الحكم اقسى من الاعدام ساعتها ان الانسان يساوى كلمته . . تماما.. . اذا قالها استحق الحياة واذا حرم منها كان الموت أهون . . الغريب اننى سِعدت بهذا الحكم اول الأمر حيث لم اعرف فداحة ما سلبه منى وإلابعد ان جربت الحياة بدونه لمدة ساعات . .

لابد ان استأنف ذلك الحكم القاسى . . لكن كيف افعل ؟ . . كيف اتصل بمحامى ؟ . . ترى هل يكون فى مكتبة ام انه الآن فى المحكمة . . يتكلم ويتكلم ويتركنى انا هنا احرق كلماتى وتحرقنى ؟ . . التليفون على مدى خطوة منى لكن حارسى الى اقرب . . لو استطعت فقط ان اغافله دقيقة واحدة . . نصف دقيقة انحصر أملى كله للخلاص من هذا الجحيم فى كلمة واحدة أقولها لمحامى ، استأنف ، الحارس متيقظ جدا . . لايغفو ابدا . . لو فعل ؟ . . ولو للحظة ، لا بد ستأتى هذه اللحظة . . ظللت انتظرها طويلا . . عبثا خطرت لى فكرة اخرى . . كنت بطل الملاكمة طوال دراستى لماذا لا استغل امكانياتى القديمة فاصرعه ؟ . . سددت اليه لكمة فى جبهته . . ترنح قليلا لكنه اعتدل فى لمحة ليبادلنى أخرى ، وكأنما صدم رأسى جبل . . احسست كأن شرارا يخرج من عينى بينما ملأ أذنى طنين مروع ! . .

فتحت فمى لكن يده امتدت بسرعة . . لاغلاقه ، ومن جديد احسست بالشريط الملتهب يلسع رأسى . . اطول من جميع الأشرطة السابقة . . واكثر لهيبا . . عجبا . . مع اننى لم اكن مزمعا ان القى عليه محاضرة او خطبة طويلة . . او حتى امعن فى شتمة وتوبيخة . . كنت فقط اريد ان اقول . . (آه) ! . .

عدت انظر تجاه التليفون . . لم أره . . ولا أى شى على المكتب سواها . . بدت لى جميلة فاتنة . . ممتلئة بالاغراء . . مددت يدى وتناولتها . . هذه التى كانت مهمتها حتى تلك اللحظة فتح الخطابات . . وفى ثانية واحدة كانت داخل قلبه . . جاءت زوجتى مهرولة . . صرخت :

— ماذا فعلت ؟ !

لم ارد . . كررتها ثانية :

— ماذا فعلت ؟ !

لماذا لم اتكلم ؟ . . هل نسيت الكلام ؟ . . ام اننى لم اصدق نفسى لحظتها اننى استطيعه ؟ . . اخذتها بين ذراعى . . نطقت كلمة واحدة :

— أحبك ! . .

تنهدت . . ثم عادت تسأل بخفوت :

— لكن كيف فعلت هذا ؟ ! . .

— فعلته كى اقول لك هذه الكلمة . .

— لم تكن بحاجة لأن تقولها . . كان يكفينى ان انظر فى عينيك لأتأكد منها . .

— ذلك لأنك تتمتعين بحساسية وشفافية كبيرة . . هناك غيرك اناس غلاظ - مثل الصحفى اياه وأسياده - اردت ان اقول لهم جملة معينة . . وحيث هم لا يملكون الشفافية التى تمكنهم من قراءة تلك الجملة فى عينى مثلك . . كان لابد ان انطق كى اقولها لهم «أنا ارفضكم ، أرفض مظالمكم»

— لكنهم سيشنقونك . . فهل تساوى هذه الكلمات حياة ؟

— أحيانا تكون هناك كلمات اغلى من الحياة .

— قالت وكأنها تناجى نفسها :

— ياله من ثمن باهظ . .

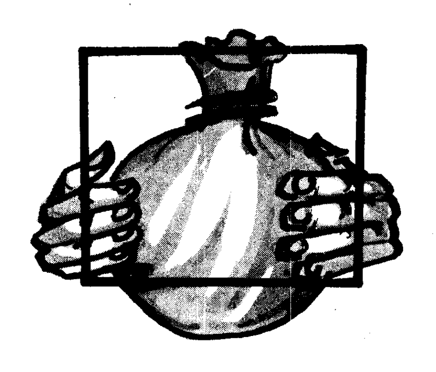
— بل ياله من ثمن بخس ! . .

— وأنا . . الم تفكر فى عذابى اذ أحرم منك ؟ . .

— سامحينى يازوجتى العزيزة . . اعرف اننى سأسبب لك الكثير من الآلام . لكنها لا تقارن بعذابى وأنا انفذ ذلك الحكم الرهيب ! . . أحس الآن اننى انتصرت

عليهم استطيع ان اقهقه قائلا « أنتهت اللعبة » .
فركت عيني . . يا عجبا . . نفس القاعة . . نفس الناس . . بنفس الترتيب . . نفس الشرائط الحمراء والخضراء فوق الصدور العريضة . . نفس المنصة . . نفس الديكور . . نفس الاكسسوارات . . فما اشبه الليلة بالبارحة ، لا . . هناك اختلاف واحد . . اين محامى القصير ذو الرداء الاسود يتحنجل فيه كالغراب ؟ . . غير موجود . . اختلاف بسيط لكنه نفى تماما فكرة انه شريط سينمائى لمحاكمتى الاولى هذه - لابد - محاكمتى الثانية . . والاخيرة كما اتعشم وارجو ، لفت غياب محامى نظر رئيس المحكمة ايضا . . سأل بضجر :
— كدنا نتأخر . . اين محاميك ؟
— لا اريد محامين . . وما الداعى ؟ . . استطيع انا ان ادافع عن نفسى . . ولن اثقل عليكم . . كل ما عندى كلمات قليلة . . فانا كما سمعتم عنى . . لا أحب الكلام ! ، عندما قتلت هذا الشخص لم اكن حاقدا عليه منعه اياى من الكلام . . كان مجرد اداة ، كذلك فأنا لم اضبطه وهو يسرق نقودى ولم اكن واقعا تحت تاثير مخدر أو أصابتنى لوثة مفاجئة . . ولم اره مع زوجتى فى فراش واحد . . ولا هو حاول الاعتداء على . . الامر الذى جعلنى فى حالة دفاع شرعى عن النفس ولا ولا ولا . . . . أى ظرف من تلك الظروف المخففة التى قد تمنعكم من اصدار الحكم على بالاعدام .

إنتهت اللعبة



مهمة صعبة

يسير ويسير . . أما لهذا السير من اخر ؟ . . . لماذا اختاروه هو بالذات لهذه المهمة ؟ . . تعود أن يوكل له دائما المهام الصعبة . . لكن هذه المهمة ؟ . . أم لأنها بلده ؟ ، بدأت أقدامه تغوص فى التراب . . قالوا له على مسيرة عشر دقائق من المحطة . . لكنهم لم يقولوا بالضبط مسيرة

من ؟ . . أو أى شيء ؟ . . ربما يقصدون مسيرة دابة . . أو سيارة . . أو طيارة ! . . له أجيال يسير . . الجو قاتم . . مثل مشاعره . .

أخيرا بزغت الشمس من بين السحب . . ربما كان هذا هو المنزل . . ما كل هؤلاء الأطفال . . يملأون الفناء . . كثيرون جدا . . لا يوجد أكثر منهم سوى . . . الذباب ، هذه الدرجات المهدمة . . . هل يمكن أن يعيش أحد فى مثل هذا المكان كان يجب أن يصحب زوجته معه . . حتى تكف عن الشكوى الدائمة من تواضع حياتها . . فكر فى النكوص على أعقابه . . . لكنه شدد من عزيمته . . عاد يسير وهو يقتلع قدميه اقتلاعا . . . بدا الفقر وكأنه تحول إلى أوحال تعرقل سيره وتمسك بأقدامه . . سأل بعض النسوة فى الفناء فأشرن له على الغرفة . . . دخل ليجد الفقر قد سبقه أيضا إلى هناك حيث وقع ببصمته على كل شيء فيها . . الأثاث . . ملابس الأولاد . . الخ . . الخ . . .

ليته اعتذر عن هذه المهمة . . يستطيع أن ينسحب قبل أن يبدأ . . أوه . . . فات الوقت . . جاءت تهرول . . وفى ذيلها عدد اخر من الأولاد . . يبدو أنها كانت تعجن . . . مسحت يديها فى ثوبها قبل أن تسلم عليه . . فبدا الثوب الذى كان أسوداً فى يوم من الأيام وكأنما قد غطى بنقوش سريالية بيضاء ، بربشت بعيونها القرعاء من أية رموش وهى تحاول أن تبتسم :

— قالوا لى انك من طرف عبد الله . . أرجو أن يكون قد أرسل معك قرشين . . ليس معى ولا خرده . . بل أننى استدنت من بعض المعارف . . لماذا تأخر على هذه المرة ؟ ألا يعرف أنه قد ترك وراءه أولادا يأكلون الزلط ؟ ، ثم اننى لا أرى فى يدك سوى لفة صغيرة . . بعض الشيء . . أهذا كل ما استطاع أن يرسله للأولاده ؟ . . وأين الدواء الذى طلبته منه لسالم ؟ . . إذا كان يعتمد على النقود التى أرسلها معك فقل له أن النقود لن تفعل شيئا . . الدواء غير موجود هنا ، على فكرة . . هو . . . كيف حاله ؟ . . هل مازال الضعف يعاوده ؟ . . ومرتبه . . هل زاده ذلك الرجل الذى لا يعرف الله أم لا ؟ . . قال لى فى اخر مرسال أنه قد طلب منه زيادة . . فهل أجابه لطلبه ؟ . . العمل ثقيل يمتص عافيته كما قال لى . . حار ونار فى جثته الأبعد يستحل عرق عماله ولا يعطيهم إلا الفتات ، اننى أسألك وأنت لا ترد على بكلمة . . الفأر بدأ يلعب فى عبى . . . مصيبة لو لم يكن أرسل معك نقودا . . ربما مرض هذا الشهر فلم يعطه الرجل الظالم مرتبه . . . وإذن ماذا عساى أفعل ؟ . . . اننى أنتظر مرسالة كل شهر بفارغ الصبر لاكف الأيدى الممدودة تجاهى . . وأغلق الحلوق المفتوحة حولى . .



— النقود معى يا سيدتى . . فلم جئت اذن ؟ . . لكن . .

سكت قليلا فتنهدت هى :

— الحمد لله . . لكن أخبرنى . . ألم يقل لك أنه سيحضر قريبا ؟ . . جميع العمال زملاؤه يحضرون كل بضعة أشهر الا هو . . سافر منذ عشرة شهور ومن يومها لم يحضر ولا مرة . . ليكن . . السفر يكلفه مالا ومطالبنا أولى . . عندنا بنت على وش زواج . . وابن قال الطبيب انه يحتاج لجراحة ولا توجد أسرة شاغرة فى المستشفى الحكومى . . اخشى لو تأخرنا بضعة شهور أخرى أن تسوء حالة أكثر . لو كان ما أرسله معك أكثر مما نحتاجه لمصروفاتنا الشهرية فسأحاول أن أدخله مستشفى الدكتور قدرى فى المديرية . . . ولو أن أجره فظيع . . اننى لأتساءل هل هم فى هذه المستشفيات يعالجون الناس أم يذبحونهم ؟ ! على العموم المال يروح ويجىء . . المهم صحة ابنى . . وجهاز شقيقته يستطيع الانتظار عدة أشهر أخرى ، ولو أن الأتفاق كان أن يرسل بعض الأقمشة للتنجيد والمفارش والفساتين من هناك . . حيث الأسعار أقل والأذواق أجمل . . ابنتى تريد طبعا أن يحوى جهازها أشياء جميلة حتى تخرس ألسنة أهل العريس . . خاصة عمته الحاجة رضا . . يا حفيظ من لسانها . . .

عادت تنظر للفافة التى فى يده . . وتفكر فى الأشياء التى كانت تنتظرها منه فتراها جد صغيرة . . قالت بأسف :

— يبدو أنه نسى . . أو أجل هذه المشتريات للشهر القادم . . أسعدك الله يا أخى تذكره بطلبات جهاز انصاف ، جيرانى يظنونى متجلدة بعد سفر عبد الله . . لكن داخلى يتمزق . . ينسحق . . مع ذلك أوافقه على عدم الحضور ادخارا للنفقات . . فعدا كل هذه الطوارىء التى ذكرتها هناك أمر مهم جدا . . أريده أن يفك رهن القيراط الذى ورثته عن عمتى . . أهله طبعا سيثيرون الدنيا لكن بربك . . ماذا فى ذلك ؟ . . أليس هو . . رجلى . . وأبو أولادى . . الذى سيزرعه . . وننعم كلنا من خيره ؟ . .

كان يدهش وهى تتكلم . . ألا تتعب من الكلام ؟ . . فجأة سكتت لابد أدركت أخيرا بعد طول عتابها عليه عدم رده على أسئلتها أنها لم تترك له فرصة لذلك . . والتفت ناحيتها . . لم يجد عينيها مغروستين على جانبى فمه فى محاولة لاستنطاقه . . كما توقع . . كانت تتطلع إلى السقف . . فى نظرة حالمه . . كأن مساحته الضيقة قد كبرت وكبرت . . حتى وسعت القيراط بأكمله . . وبداخله أولادها جميعا يساعدون أباهم فى جمع المحصول الوفير ، تنهدت . . وعادت تتكلم وقد رق صوتها وملأه الحنان . . والحنين . . لم يكن يتصور أن توجد هذه

المشاعر الرقيقة خلف هذه الملابس الخشنة ! ، كانت تقول وكأنها تحدث نفسها أكثر مما تحدثه هو .

— مسكين عبد الله . . الحمل عليه ثقيل . . وأنا مسكينة أكثر منه . . حيث أعيش بعيدة عنه . . بعيدة عن الانسان الوحيد فى هذا العالم الذى قلبه على . . أكثر من أولادى الذين حملتهم داخل أحشائى . . كل واحد منهم لا يهمه إلا ما سيأخذه منى . . بل أكثر من أبى نفسه . . الذى أنجبنى إلى هذه الدنيا . . كان كل همه أن يزوجنى حتى يخفف عن كاهله عبئى . . لم يسألنى يوما عما إذا كان هناك ما أشكو منه ، لا أنسى نظرات عبد الله وأنا أوزع الطعام على الأولاد يوم السوق . . يدقق جيدا فيما وضعته فى طبقى . . ويتشاجر معى إذا وجده لا يزيد عن بعض العظام . . يقسم أيمانا مغلظة أنه لن يأكل شيئا إلا إذا أخذت نصيبا يساوى على الأقل نصيب كل واحد من الأولاد . . ما تأوهت ليلة إلا أنتفض من نومه يسألنى عما بى . . أحاول مهما كان بى ـ الا اقول «اه» . . حتى لا أزيد همومه همى أنا الاخرى ، حين فكر فى السفر وافقته عليه . . بل شجعته ، أكثر من ذلك درت هنا وهناك أسأل بعض من أعرفهم المعاونه فى ذلك . . رغم أننى كنت أعرف جيدا ما يعنيه سفره بالنسبة لى . . لكأننى قطعت جزءا من قلبى وأرسلته بعيدا . . الى ذلك البلد ، بعد سفره أحس كما لو أصبحت أجلس وحيدة فى العراء فى صحراء موحشة قاحلة وكأنه كان هو الخيمة التى تغطينى وتظلل على ، كان الأمان كما كان الحائط الذى إليه أسند ظهرى عندما أنشد قسطا من الراحة بعد طول عناء ، كم أفتقده . . من يوم سفره لم أجد أحدا يسألنى عما أعانى . . اننى حتى لا أجد أحدا أحدثه . . لى شهور لم أحدث أحدا . . ولذلك أتحدث اليوم كثيرا هكذا . . أطلق ما اختزنته طويلا . . لماذا أحدثك أنت بالذات ؟ هل لأننى إذا حكيت لك عن امالى فلن تحسدنى مثل معارفى حيث أنت تقبض مثلما يقبض . . وأيضا إذا ذكرت لك الامى فلن تشمت فى مثل جاراتى اللاتى دائما يتشاجرن معى من أجل الأولاد . . أولادى وأولادهن ؟ . . أم لانك حضرت من طرفه فأنت إذن تحمل رائحة الحبايب ؟ . . أجل الحبايب . . ربما كنت أخجل أن أقولها لأى شخص اخر ، كم يخطر لى أحيانا أن أرسل أليه أن أقطع عملك هناك وعد فورا . . ولنأكلها بالملح . . أننى كأى أمرأة أخرى يشبعنى الحنان بأكثر من الطعام . . لكننى أعود وأتذكر الأولاد . . أنها لتكون أنانية منى أن أبقيه بجوارى . . أسعد بقربه . . وأحرم أولادى من متطلباتهم الضرورية . . أفضل أن أحرم نفسى أنا ، أنك لن تستطيع أبدا أن تعرف ماذا يعنى حرمان الشخص من قلب يحنو عليه ويهتم

بأمره .. لأنك رجل .. طبعا الرجل أيضا يحتاج للحنان والاهتمام .. ولكن بدرجة أقل .. عند المرأة يأتى ذلك فى المقام الأول .. تستطيع أن تسأل فى ذلك زوجتك .. أوه يا أهلى .. لابد أنك تأخرت عليها .. أطلت فى الحديث معك بينما هى - لابد - الآن تنتظرك على نار ...

ضحكت ، مد يده ، وناولها مرتب زوجها دون أن ينطق بحرف .. نهض واقفا ومشى خطوة واحدة .. ثم عاد وكأنه يستدرك شيئا فاته .. فتح اللفافة التى معه وأخرج كل ما كان بها من ملابس ولعب وحلوى .. كان قد أحضرها لأولاده .. قدمها للمرأة القابعة أمامه .

جمعت المرأة الاشياء كلها بين ذراعيها .. ضمتها ألى صدرها .. تنبهت فجأة أنه يهم بمغادرة الغرفة .. هتفت به :

— ألا تشرب الشاى ؟

رد عليها :

— فى المرة القادمة ...

جرت وراءه على السلم وهى تصيح :

— بلغ عبد الله فرحتنا الكبيرة بالمشتريات .. وأنه قد أوحشنا جدا .. لا حرمنا الله منه أبدا .. أبدًا ..

خرج ألى الخلاء .. كانت قد بدأت تمطر .. وكأن السماء تبكى بدورها حزنا وأسى وحسرة .. على الكارثة التى أصابت .. أرملة المرحوم عبد الله، أخرج ورقة من جيبه .. مزقها وهو يتمتم :

— لم أستطع أبدا .. فوق طاقتى .. ليرسل الحاج أليهم شخصا اخر بالخبر المشئوم ! .

أقـــوى حـــب



اسمه « صابر » . . وهو صابر فعلا على المصائب التى ظلت تتوالى على أم رأسة منذ يفاعته حتى الآن ، وعلى استعداد كى يصبر على ما هو أكثر منها ! . . بل واضعافها ايضا ، لكن شيئا واحدا لم يعد فى طاقته أن يصبر عليه . . هذا الدلال الزائد من البنت « المفعوصة » توته ! . . كان والداها أصحاب

فضل عليه . . وفضلها على رأسه من فوق . . وهو معترف به غير ناكر له . . ولا يمل ترديده ليلا ونهارا ، وعلى استعداد لأن يقدم لأمها أى شىء تطلبه ولو كان روحه ، لكنه لم يكن مستعدا أن يصاب بالجنون أو بالفالج ، وهذا ما يبدو مضمونا له بأذن الله فيما لو تزوج من ست الحسن والجمال « توته » ثم هل كان زواجه منها يعتبر شرفا عظيما يسبغه عليها أو منة كبرى يقدمها لأمها ولروح أبيها ردا على جمائلها عليه ؟ . . أبدا ففى مقدورها أن تتزوج من هو أفضل منه بكثير . فهى جميلة وغنية وفى مطلع الشباب . . فلماذا أذن تصر أمها على التمسك به هو بالذات ؟ ، أن « توته » نفسها لا ترغب فى هذا الزواج . . بل أنه قط لم يخطر لها على بال ، وهل كانت تردد أمامه ـ لو أن هذه الفكرة مرت مجرد مرور بخيالها ـ هل كانت تردد رغبتها واما لها فى الزواج من ضابط تتلألأ على أكتافه النجوم ؟ !

هه ضابط ! . . يالغرابة المصادفات ويالتوارد الخواطر ويالاتفاق الآمال . . امال « توته » وآماله هو نفسه . . تلك الآمال التى كانت كبيرة عند ما كان صغيرا . . وعلى عكس الناس جميعا ، كانت تصغر كلما كبر هو وازداد أدراكه وفهمه لنفسه وظروفه والأرض التى يقف عليها فكلما تبدت له حقيقة كانت غائبة . . أو جد فى الأمر حدث جديد . . اختلى بنفسه ليعقد معها مؤتمرا يعيدان النظر فيه فى الصورة التى يحتفظ بها لشخصه فى خياله . . . صورته المستقبلة ، ثم يجرى بها بعض التعديل . . ودائما كان التعديل الى أسفل . . الى أقل . . ! فى طفولته كان صديقا لابن العمدة وزميلا له فى المدرسة الابتدائية الوحيدة بالبلد ، وكثيرا ما لعب معه فى سراى والده . . ومن حين لآخر يرى شقيقه الضابط . . ابن العمدة الأكبر عند حضوره فى الأجازات . . وكان الصديقان الصغيران يجلسان بعيدا وهما يرتبان مستقبلهما ابن العمدة سيصبح ضابطا مثل أخيه ، « وصابر » مثل صديقه طبعا . . وهل يليق أن يفترق عنه ؟ . . أنهما دائما معا . . ينجحان فى كل عام معا . . حتى فى المرة الوحيدة التى رسب فيها « صابر » . . رسب ابن العمدة أيضا ! . .

ألا ليت فترة الطفولة دامت الى الأبد ، فأيامها لم يكن يعلم أن والده بغدانيه اللذين يستأجرهما وأولاده الخمسة وزوجته . . لن يستطيع أن ينفق على تعليمه الثانوى واقامته بالمديرية . . ثم فى الكلية الحربية ، ولما فطن الى هذه الحقيقة أصبحت أمانيه محصورة فى أن يصبح موظفا صغيرا مثل « ابراهيم أفندى » معاون البوستة أو « جرجس أفندى » الصراف . . أو « خالد أفندى » باشكاتب المحكمة ، لكنه فوجىء بعد اتمامه دراسته الابتدائية بوالده يريد أن يأخذه ليعمل معه فى الأرض ، يومها ثار وبكى حتى قيض الله له مدرسة « الشيخ مروان » الذى

أكد لوالده أن الولد متفوق فى دراسته حتى أنه حصل على الابتدائية وعمره خمسة عشر عاما فقط ! . . لذلك يحسن به أن يجعله يكمل تعليمه ، لكن الوالد يحتج بضيق ذات اليد ، فيعود الشيخ ويقترح الحاقه بالازهر الشريف . . حيث لا مصروفات ولا يحزنون . . على العكس ستكون له « جراية » يتزود بها . . أما الاقامة فأمرها بسيط . واقتنع الأب بالفكرة . . وداعب خياله منظر ابنه يرتدى لباس رجال الدين وفكر فى ابن عم بعيد له يقيم فى القاهرة ويتلك بها منزلا كبيرا من عدة أدوار . . أنه يرحب دائما بأى وافد من البلد حتى عرف لدى الجميع بالكرم وحسن الضيافة فاذا قبل هذا القريب أن يأوى « صابر » لديه ، فلن يتكبد هو فى تعليمه نفقات ذات بال . . وهكذا مرة أخرى تواضعت امال « صابر » . . أو « الشيخ صابر » ! . .

وكان « الحاج عيسى » فعلا كريما جدا لطيفا جدا . . وزوجته أكثر منه لطفا وكرما فلم يضيقا بصابر قط ، بل رحبا به كل الترحيب ، وأفردا له غرفة فى شقتهما ، كلمة واحدة خشنة لم يسمعها من أى منهما طيلة اقامته معهما . . ولا حتى تقطيبة وجه قد تدل على تبرمهما بوجوده على العكس كانت عناية « السيدة نفسية » به وخدمتها له ، مما أحرى لسانه بالثناء عليها والامتنان لها والاعتراف بفضلها . . بل بخجله مما يكلفها من عناء ، دائما كانت غرفته مرتبة وملاءات سريره نظيفة ، بل انها لما أحست بحيائه وحرجه من ارتياد المشربية ساعة العصارى عند جلوسها وزوجها هناك ليشرب من القلل . . حين رأته أكثر من مرة يشرب من الصنبور رغم شدة الغيظ فاذا به يرى يوما فى نافذته قلة نظيفة مغطاة بغطاء يتألق كالذهب وتتضوع منها رائحة البخور أى شىء من ذلك كانت تقوم به والدته لو أنها كانت محل السيدة نفيسة فى المنزل ؟ ، لكنه بعد شهور شعر بالحرج من موقفه فقرر أن يعمل بعد الظهر أى عمل حتى يستطيع أن يسهم فى بعض النفقات ، لكن « الحاج عيسى » ـ وكان مايزال متشبعا بتقاليد أهل الريف فلم تفسده مادية المدينة — استنكر الفكرة ورفضها رفضا باتا ، فوجود « صابر » فى منزله أسعده سعادة كبرى ، وجعله يحس كأن الله عوضه به حرمانه من الولد حيث أصابته الأمراض بعد أن أنجب ابنته الوحيدة « توته » ولذلك فأنه أقسم يمينا مغلظة بالطلاق أنه لن يعرف « صابر » أو حتى يحدثه لو أنه فتح هذا الموضوع مرة أخرى . عموما أحس « صابر » أنه يوفى بالشىء غير القليل من دينه للقريب العزيز عند ما كان يقوم عنه ببعض التزاماته كتحصيل الايجار من السكان ودفع فواتير المياه والنور والعوايد . . عدا شراء طلبات البيت ثم اعطاء الدروس للأبنة الدلوعة « توتة » التى كانت ترسب فى دراستها كل عام ، فيحضر لها والدها هدية قيمة حتى لا تحزن ولا تنقهر ! .

راقت الحياة زمنا لصابر حتى لم يعد يردد ذلك المثل الذى سمعه يوما من بائعة بيض كان « يناكفها » وهو يشترى منها . . حسب وصية السيدة والدته له قبل حضوره الى القاهرة « كلا . البيض غال انقصى مليما من كل واحدة . . هذه البيضة صغيرة اعطينى واحدة أخرى بدلا منها . . هذا القرش ممسوح غيريه لى » وكانت البائعة المسكينة غارقة حتى رأسها فى متاعب الدنيا وليست بناقصة متاعبه أيضا ، فأسندت رأسها بيدها وهو تقول « ليتك ياأبى ما تزوجت أمى ، ولا انجبتمانى أنتما الأثنان واشتركتما فى همى » . . وجد « صابر » أن المثل يعبر عن مشاعره بالضبط ، فظل يردده كلما ضايقه فى حياته أمراً وأحبطت له أمنية ، حتى طابت له الحياة فى منزل (الحاج عيسى) فنسى هذا المثل ولكن . . الى حين . . كان الدور قد حل على أمنيته الأخيرة كى تتضاءل وتنكمش مرة أخرى . . بعد وجبة دسمة كان الأطباء يحرمون أمثالها على الحاج سقط مريضا ولزم فراشه أياما قليلة لم تكمل الأسبوع ثم ودع الدنيا مبكيا عليه ، وبعد ليالى المأتم الثلاث جلس « صابر » مع السيدة نفيسة زوجة أو أرملة الحاج يتدارس معها موقفه :

— لقد قررت العودة الى البلد ـ وهل هذا كلام ؟ ! تقول ذلك الآن وليس لى أنا وتوتة رجل نستند اليه فتتركنا ونحن فى أشد الحاجة اليك ؟

— لكن . . ـ أوافقك أن بقاءك معنا فى الشقة سيثير السنة الناس . . قطع الله السنتهم . . فليس وراءهم دائما الا النهش فى أعراض الناس بالباطل وبالحق فما رأيك أذن فى « المسروقة ؟ . . أنها خاليه حاليا كما تعلم .

— لكن ايجار المسروقة جنيهان وأنت تعلمين حال أبى وأنا . .

وشهقت وهى تخبط صدرها بيدها : وهل نتقاضى منك ايجارا وأنت تخدمنا وتتعب من أجلنا فى تحصيل الأيجار وخلافه ؟ . أننى كما تعلم لا أهل لى وكأننى قطعت من شجرة نبتت وسط غابة قاحلة ، ولو لم أجد أحدا بجوارى لاكلنى الناس . . أنك الآن رجلنا ولذلك أقولها لك . . أهتم بدراستك حتى تحصل على شهادتك لأزوجك من توتة .

وضحك غير مصدق : توتة ؟ ! . . وهل ترضى توتة بى ؟ ؟

— وماذا يعيبك ؟ . شكلك وسيم وخلقك رفيع . لقد كان الحاج رحمه الله دائما يثنى على أخلاقك . أيجار المنزل كله فى يدك عمرك يوما ما مسست مليما ، صوتك لم يسمعه أحد . . عيناك يوما لم ترفعهما فى وجه أى قاطنة بالمنزل ، أما فارق السن فهو ليس بذى أهمية . . ثم أنك قريب لوالدها فماذا ستطلب توتة أكثر من ذلك ؟

لكن « توتة » كانت تطلب أكثر فعلا . . تطلب ضابطا يرتدى البدلة

الساحرة وتلمع على كتفيه النجوم ، وكثيرا ما رددت هذه الأمنية أمام أمها بل وأمام « صابر » نفسه ، وكانت السيدة نفيسة تغمز له بعينيها وتقول بعد خروج توتة :

— لا تعول كثيرا على أقوالها . . عقل أطفال . . عندما تكبر ستتعقل ، علام يتقدم اليهاالضابط ؟ . من أجل صيت من ؟ . . جدها المرحوم والدى . . أي نعم كان ابن أصول . . لكنه كان صاحب صنعة منجد . . وجدها الأخر كان مقاول أعمال بياض . . نقاش . . ووالدها عمل محصل جدها حينا حتى أقتنى هذا المنزل فترك المهنة لاشقائه أعمام توتة الذين مازالوا يمارسونها حتى الأن ، وخالاها رحمها الله . . من نفس المستوى ، عندما تنضج ستعرف أنك المناسب لها وتكف عن هذا الهذيان !

وصدقها فغيرها أيضا كان يهذى . . بذات الزى الساحر الذى يخلب الألباب ـ ويا لغرابة المصادفات ـ حتى كبر فأعاد رسم زى اخر وثالث ومن يدرى . . كيف تكون الصورة الأخيرة ، ودخلت الفكرة رأس « صابر » ثم استقرت فيه ، أجل . . ولم لا ؟ . . غدا يصبح مدرسا ذا مؤهل عال يتقاضى مرتبا محترما . . عدا بعض الدروس الخاصة فهو ـ من ثم ـ يصلح لتوتة ومن هى أفضل من توتة أيضا . . ولم يأت الليل حتى كان قد نقل ملابسه وبعض القطع الضرورية من الأثاث الى « المسروقة » ، وهى عبارة عن غرفة تقع على السم بين الدورين الثانى حيث تقيم أسرة الحاج والثالث حيث يقيم أحد السكان ، وكان الصاعد على السلم لا يكاد يلحظها اذا كان بابها مغلقا . . فاذا لحظها دهش من وجودها وتساءل من أى موضع أخذت مساحتها . . ولذا سميت بالمسروقة . الحقيقة أن المبانى القديمة فى حى السيدة زينب كانت لها هندسة غريبة أو لم تكن لها هندسة على الأطلاق . والمسروقة رغم خلوها من النوافذ كلية وصغر مساحتها الا أنها كانت كافية بحاجة « صابر » . . فماذا كان يريد أكثر من مكان يريح فيه جنبه بعد دراسته بالأزهر طوال اليوم ؟

لم يكن قد حل يوم الأربعين على وفاة الحاج عندما بدأت نفس « صابر » تثور على هذا الوضع لقد قبل أولا أن يتكفله قريبه أما الآن فهل تتفق عليه أمراة ؟ . . مستحيل وخدماته لها لا يمكن أن توازى الأقامة والأكل معا ، ولما كانت السيدة نفيسة قد أكدت له حاجتها وابنتها اليه ، فقد أستبعد العودة للبلد . . خاصة وقد أصبح يعد نفسه خطيبا لتوتة . . فلماذا لا يعمل ؟ . . وبحث فلم يجد ـ بعد جهد ومشقة ـ سوى وظيفة محصل بهيئة النقل العام . . وهو عمل يستغرق اليوم كله وعليه فلن تكون هناك دراسة ، وقالت له حماته المستقبلة :

— هذا أفضل . . فالدراسة بالأزهر كانت ستطول جدا . . وتوتة لم تكن لتنتظر كل هذه الأعوام . . صدقني كنت أعيش فى هم أن يحضر لها أحد أقارب والدها عريسا . . خاصة وجمالها وثروتها كفيلان يجعلها تخطف سريعا ، عدا أن وظيفتك هذه لا بأس بها أبدا .

كانت السيدة نفيسة امرأة عملية . . ذات عقل واسع راجح . . وطوال حياتها مع الحاج كانت هى التى تتولى رسم وتخطيط طريقة حياتهما بحكمة وبعد نظر . . وأيضاً بدبلوماسية وكياسة ، ومن ثم لم يكن الحاج يتأخر عن توجيه الدفة حيث تشير وهو يحمد الله على هذه الزوجة الحصيفة . وكان من كياستها أن أقترحت عليه أن يكتب المنزل كله بأسم توتة حتى لا يشاركها أخوته فى الميراث ، ولم تقترح أن يكون ذلك بأسمها هى حتى لا يظنها طامعة فى شىء ، وقد نفذ ما أشارت به وها هى ذى الآن مستريحة من مناكفات أهل زوجها . . خاصة شقيقته الكبرى التى تشبه الحية شكلا وموضوعا ولسانا . وهكذا جلست مع « صابر » فى ذلك اليوم تساعده أو فى الحقيقة ترسم له طريقه ومستقبله . . ولم تنس شيئا حتى الرتوش الصغيرة . . فحددت نصف المرتب يدخره عندها حتى يكتمل منه مبلغ مائتى جنيه وسألته باعتزاز وثقة :

— أم لعلك ترى أن مائتى جنيه كثيرة على توتة ؟ !

ورد بحماسة : أن توتة تساوى كنوز الأرض . . لكننى أخشى ألا يكفى النصف الباقى لمأكلى ومسكنى ومصروفاتى الشخصية .

وهمت السيدة نفيسة أن تتكلم لكنه أسكتها مصمما على أن يدفع مصاريف طعامه حتى يجد له طعما فى فمه ، وايجار حجرته حتى يستطيع أن ينام على حد تعبيره ، وبعد مناقشات وأخذ ورد وايمان مغلظة بالله وبأنبيائه وفى مقدمتهم بالطبع جارتهم السيدة زينب . . حفيدة النبى ـ أتفقا على أن يقسما البلد بلدين لن يدفع ايجارا للمسروقة مقابل قيامه بتحصيل ايجار المنزل . . لكنه سيدفع مبلغا معينا كل شهر مقابل طعامه ، وبذلك قر بال السيدة نفيسة عندما أحست أنها ضمنت ليس فقط عريسا لا بأس به لابنتها . . لكن الأهم الا يتركها « صابر » وهو الشاب الطيب أبن الحلال الأمين . الوحيد الذى يمكنها أن تعتمد عليه فى ادارة شئون المنزل حيث لم تكن تستطيع وهى الأمية التى لا تجيد القراءة والكتابة أن تفعل ذلك وحدها . . كما كانت تجفل من فكرة استخدام وكيل لا تعرف عنه شيئا خشية أن تقع هى وابنتها فى يد شخص خرب الذمة يستغل ضعفهما وجهلهما ووحدتها . . ولقد أصبحت فكرة الزواج وقتها معقولة بعد أن كانت قد بدأتها أولا من باب الدعابة . . وكان يمنع معقوليتها بعد الشقة بين صابر وشهادته وخلو يده من المهر

وخلافه لكن توتة لم تكد تراه فى زيه الجديد حتى كادت تستلقى على قفاها من شدة الضحك ، وقالت لها أمها بلهجة ذات مغزى :

— لقد أصبح صابر يشبه الضابط ! . .

وشهقت توتة بأستنكار فعادت الأم تكرر :

— نفس الزى . . ونفس اللون .

— نفس الزى ولكن . . أين هذا من ذاك ؟

وهدأته الأم بحقنها العتيدة . . « مازالت طفلة . . وهو يستطيع بشىء من الملاطفة أن يستميل قلبها » . . ولكن الشهور تمر وهى على حالها من الدلع والدلال والعناد بل زاد دلالها عندما أخطأت أمها ذات يوم وأخبرتها أن المنزل بأكمله ملك لها وحدها دون شريك ، صعدت توتة ذلك اليوم باكية من الفناء حيث كانت تلعب مع بعض لداتها لعبة « الأولة » . . تلك اللعبة التى تستلزم من الفتيات التنقل قفزا بقدم واحدة أمامها قطعة من الحجر بين مربعات رسمت على الأرض . . فمن فعلت دون أن تدوس أحد الخطوط يصبح من حقها أن تمتلك بيتا فى أحد هذه المربعات تريح فيه قدميها الأثنتين ، يومها داست « توتة » على الخطوط فى كل مرة ومن ثم لم تستطع أبدا امتلاك بينما امتلكت بعض الزميلات فأخذن فى معايرتها ، ورأت الأم دموعها وعرفت السبب فما أسرع أن خرجت الى السلم ونادت الفتيات جميعا لتقول لهن :

— كل واحدة لها بيت فى الأولة . . لكن توتة لها بيت حقيقى . . بيت طويل عريض شامخ . هذا البيت الذى يأويكن جميعا هو ملك لتوتة وحدها سجله والدها بأسمها قبل وفاته .

من ذلك اليوم عرفت توتة أن منزلها المملوك لها وحدها يأوى الجميع بمن فيهم أمها وبمن فيهم أيضا « صابر » الذى يزعجها بدروسه وتوجيهاته ، عند ذلك زاد دلالها ولم تعد تعمل حسابا لأحد ، لم تعد تأبه لصراخ « صابر » عندما يسمع ضحكتها ترن وتجلجل أمام حجرته . . وقد يكون فى ضيافته بعض أصدقائه فيغلى الدم الريفى فى عروقه . . عندما يسمع الأصدقاء صوت زوجته المقبلة ، وينزل ليعنفها ويشكوها لأمها التى تقابل ثورته بهدوء :

— أنها طفلة ياسى صابر . . وهل يعنى أصحابك عرفوا أن التى تضحك هى خطيبتك . . هل علموا صوتها بعلامات مميزة ؟ !

لكن دلالها لم يقف عند حد ، كانت تصعد الى حجرته أحيانا حاملة الطعام اليه فتضعه امامه وتروح تتسلى بالعبث فى كتبه ومجلاته . . وترتدى عمته القديمة مرة ثم الكاب الخاص بعمله الجديد مرة أخرى وتقف أمام المرآة وهى تضحك بسخرية ، أكثر من مرة وجدت فى احدى المجلات صورة زفاف لأحد الضباط

فكانت تعرضها عليه قائلة وهى تخرج له لسانها :

— عما قريب ينشرون صورتى أنا أيضا . . فلا تنسى عندما تراها أن تضرب لعريسى تعظيم سلام . .

وتظل تعابثه حتى يضيق صدره فيرجوها أن تتركه لكنها ترفض بحجة أنتظار الأطباق الفارغة فيضطر لازدراد طعامه بسرعة وهو لايكاد يعرف له طعما ، بعد نزولها يسند رأسه الى يده وهو يتذكر كلمات فيلسوفته الخالدة بائعة البيض ، وما يكاد يفتح .فمه بالشكوى للسيدة نفيسة حتى تقاطعه :

— قل لى ما هى الحكاية بالضبط ياسى صابر ؟ كلما صعدت اليك توتة تزجرها وتطردها من حجرتك لقد شكت لى أكثر من مرة . . أننى أخشى أن ينتهى بها الأمر أن تكرهك ووقتها . . لن يستطيع أحد أن يجبرها على قبول الزواج منك ، يخيل الى أنك لم تعد لها شاريا ، توتة مازالت طفلة . . يعنى عجينة خام تستطيع أن تشكلها كما تريد فقط لابد أن تتعلق بك . . وأمكانك أن تجعلها تفعل . . أن تأكل عقلها . . فقط حايلها . . اضحك فى وجهها . . تعرف حبها للفاكهة . . أحضر لها بعضا منها أصحبها الى السينما بين الحين والحين .

ولم يكذب « صابر » خبرا . . كانت للسيدة نفيسة قدرة غريبة على الأقناع ولو أنها أشتغلت بالمحاماة لما خسرت قضية واحدة ! . . بدأ « صابر » يصلح من سياسته مع « توتة » ، ولم يعد يؤنبها على أية هفوة . . فقد قرر بينه وبين نفسه أن يؤجل كافة نصائحه الى ما بعد الزواج . . وقتها سيستطيع تأديبها أن لم تردعها نصائحه ، عملا بنصيحة حماته . . تمسكن حتى تتمكن ! وبدأت قراطيس الفاكهة تتوالى على « توتة » . . لم يعد يرجع يوما من عمله دون أن يكون بين أحضانه كيس يحوى صنفا تحبه الغالية توتة . وتقول الأم وهى تبتسم :

— لماذا كل هذا التعب يا صابر ؟

ويرد : لا يوجد أى تعب بالمرة .

وفعلا من ناحية التعب لم يكن هناك أى تعب ، كان « الحظ » وأقفاصه كلها يقبعون فى فناء المنزل نفسه ، لم يكن أحد يدرى لماذا سمى ذلك الرجل المسكين « الحظ » الا أذا كان مقصد الذين أطلقوا عليه هذا الأسم . . الحظ السىء ؟ ! ! فهو قد عمل فى عشرين عملا وفشل منها فى عشرين عملا أيضا ، حتى جاء يرجو بلدياته « صابر » أن يسمح له بالجلوس أمام المنزل ليبيع بعض الفاكهة وبأن يبيت هو وأقفاصه فى فناء المنزل صيفا وتحت بئر سلمه شتاء ، وأرضى غرور صابر أن يصبح مقصد رجاء بلدياته فسمح له ، ولم يكن أول الأمر يشترى منه شيئا . . فهو لا يميل كثيرا للفاكهة . . الحقيقة أنه لم يكن يميل

الا لإكمال المهر ، لكنه فجأة أصبح من زبائن « الحظ » الدائمين . . وكل شيء يهون فى سبيل اسعاد توتة . . وفعلا كانت « توتة » تفرح جدا بالفاكهة حتى أنها لم تكن تنتظر حتى تعد والدتها الغداء بل تبدأ فى التهام الثمرات واحدة وراء الأخرى فى سرعة غريبة ، البرتقال لم يكن لها على تقشيره من صبر . . فكانت تثقب الثمرة بمسمار . . أى مسمار يقع فى يدها لا يهم ان كان جديدا أم صدئا . . ثم تظل تمتصها حتى تستخلص عصيرها ثم تقذفها من نافذة المنور ، وعرف « الحظ » العادة ، فأعتاد اذا ما اشترى منه « صابر » برتقالا أن يقبع تحت نافذة المنور حتى تتم البرتقالة رحلتها منه واليه . . كأنها أتوبيس ذو خط دائرى يعود من حيث بدأ بعد أن يفرغ بعضا من ركابه فى منتصف الطريق ،يتلقف « الحظ » البرتقال أو نفاياته فيروى بها شيئامن ظمئه ، وشيء خير من لا شيء وهو الذى يسرح بالبرتقال فوق ظهره ، المنحنى ولا يتذوقه كالابل تقطع الصحراء عطشى والماء فوق ظهورها محمول ، أما اذا كانت الفاكهة المشتراه موزا او يوسفيا فكان يبعد قدر طاقته عن نافذة المنور حتى لا يصيبه القشر فى رأسه !

أما دور السينما فكانت تجربته الأولى لها غير سارة على الأطلاق . . كان فى الفيلم مناظر لم تعجبه قط . . وظل طوال الوقت يتساءل . . كيف تسمح الرقابة أن يرى الناس رجلا يقبل امرأة بلا حياء ولا خجل وهى تتلقى القبلة بعين تستحق أن تخترقها رصاصة ؟ كان ذلك فى نظره جريمة كبرى وأكبر منها جريمته هو عندما يأخذ فتاة صغيرة مثل « توتة » لتتعلم كل ذلك ، وان أكتشف قبيل نهاية الفيلم أنها لم تكن من هذه الناحية فى حاجة لتعليم ، فقد كانت تعلق على كل منظر بوعى وفهم لكل شيء خصوصا تصرفات العشاق . . وياليتها كانت تعى دروسها وتفهمها ولو نصف ذلك الفهم ، ولم يقتصر الأمر على ذلك . . بعد خروجهم سارت بجواره فى الطريق تطرقع بلبانتها وتعيد تذكر بعض مناظر الفيلم وهى تضحك بصوت عال ، ود « صابر » لو أقفل بيده ذلك الفم الذى لا يكف عن المضغ والضحك والكلام والذى يلفت الى صاحبته وهو معها أنظار جميع السائرين . . لقد خيل اليه يومها أن المسافة بين السينما الأهلى التى كانوا بها ودرب سعادة حيث يقيمون قد أستطالت الى أميال وأميال ، وزاد الطين بلة أن لمح وهم يسيرون بجوار القسم بعض أصدقائه من زملاء الأزهر يخرجون من شارع السد فأسرع وانعطف بتوتة وأمها فى الشارع الذى يسبقه مدعيا ـ وهو يجفف عرقه ـ أنه يريد شراء شيء من محل فى ذلك الشارع ، لم يشك يومها لأمها فهو قد بات يحفظ عن ظهر قلب نقط الدفاع التى سوف تستند اليها فى دفاعها عن أبنتها ، بل أنه أصبح يؤمن أن أمها ملومة معها . . صحيح أن « توتة » لم تعد تلتزم بنصائح أمها

أو حتى بأوامرها ، لكن رأية كان أنها تستطيع على الأقل أن ترفض بعض مطالبها حتى تعرف أن من المطالب ما هو معقول وما هو غير معقول ـ مثل حكاية مدرسة اللغة الفرنسية . . خبط صابر كفا بكف :

— إن ما مضى جميعه كوم . ومدرسة الفرنساوى هذه كوم وحدها . . بنت الحاج عيسى والزوجة المستقبلة للشيخ صابر عبد الشكور الكمسارى بهيئة النقل العام ترطن بالفرنساوى قالت انها لابد أن تتعلم الفرنسية حتى اذا تزوجت رجلا من علية القوم تكون أهلا له لماذا وافقت طالما أنت قد وعدتنى بها ؟ .

— وما الضرر يا صابر . . ؟ كل صديقاتها يدرسن الفرنسية . . هل هى أقل منهن ؟ لقد قالت لى أنها أمنيتها .

— وهل حتما تحققين كل أمنية أو رغبة لها ؟

— هذا ما عودها والدها عليه . . لم يكن — رحمه الله — يرفض لها أى طلب فكيف أفعل الآن ؟ . . . كم توتة لدى حتى أكسر بخاطرها ؟ . . ثم هل أنا أدفع لها من مالى ؟ أن الخير كله خيرها هى .

— اذن أنت التى ستتسببين فى أفسادها .

— ابصقها من فمك . . أى فساد لا قدر الله ؟ . هل قال أحد عن التعليم أنه فساد ؟ !

— يبدو أنك أيضا أصبحت تفخرين أمام الجيران بدخول مدرسة الفرنساوى هذه التى تشبه الغراب ، ولعلك قد فرحت جدا أنك أصبحت « المدام » « وتوتة » مدموازيل لقد طلبت منى أمس ألا أناديها الا بمدموازيل ! .

— أوه . . البنت سعيدة . . لماذا تريد أن تكسر خاطرها ؟ !

— اطلاقا . . كل ما أخشاه أن تظن نفسها قد أصبحت ابنة ذوات حقا فلا أعود أنا لائقا لها .

— غير معقول طبعا . .

— ولماذا لا تخبرينها من الآن حتى تكف عن أحلام علية القوم هذه ؟

— لا . . الآن غير ممكن . . سترفض وتركب رأسها . . لكن مع الوقت والحيلة ستبدأ هى من ذاتها ترغبك . أننى دائما أثنى عليك أمامها واكرر أفضالك وأردد مزاياك الى جانب ما أضحت تراه منك هذه الأيام من اعزاز وملاطفة ، ألم تر أنها أصبحت تراعى خاطرك كثيرا ؟

فعلا منذ بدأت حدائق الفاكهة ترسل الى توتة بشىء من انتاجها . . ومنذ بدأت دور السينما تحظى بتشريفها فأنها لم تعد تعاند « صابر » أو تستثيره لكنها لم تغير شيئا من باقى سلوكها على الأطلاق ، مع ذلك فأنه بعد عودتهم من نزهة شم

النسيم لم يبد لأمها أية شكوى منها بالمرة . . رغم أن الأم كانت بلا ريب تتوقع ذلك حتى أنها فى اليوم التالى بدت وكأنها متحفزة للرد على انتقاداته . . لكنه أطبق فمه تماما ، أدرك أن شكاواه لن تجدى اطلاقا حيث تأكد أنهما . . هو وتوتة يسيران فى خطين متوازيين ومن ثم فلن يلتقيا أبدا وأن زواجهما لو تم فسيكون زواجا تعسا . . لقد قرر يومها أن يصرف النظر عن تلك الزيجة تماما ، ولقد أحس وهو يتخذ ذلك القرار براحة وخفة عجيبتين . . كأنه تخفف من حمل كان يثقل كاهله ، لقد كانت أحداث ذلك اليوم الفاصل عجيبة ، وان بدت كأنها القشة التى قصمت ظهر البعير . . كان من رأيه ألا يبرحوا منزلهم يوم شم النسيم قط ، لكنه رضخ لالحاح « توتة » فى الذهاب الى القناطر ، وبالطبع كانت هدفا لمعاكسات الكثير من الشبان المخمورين . . وهو لا يلوم هؤلاء الشبان بقدر ما يلومها هى ، فلم يكن يليق - فى نظره على الأقل - أن ترتاد فتاة مهذبة مكانا عاما فى ذلك الزحام الشديد ، ثم أنها لم تتورع أكثر من مرة عن الضحك بصوت عال على نكته سخيفة ألقاها شاب أكثر سخفا . . بدلا من تجاهله التام والتظاهر بعدم سماعه كما فعل هو . . عندها أمسك أعصابه بأعجوبة والا لتشاجر عشرات المرات ، لكنه حكم عقله وفكر فى توتة وأمها ومن يحميهما اذا تكاثر أكثر من شاب عليه ، أو اذا انتهت المهزلة فى قسم الشرطة ، أكثر من هذا أن « توتة » لم تكن محتشمة كما يكان يود . . والشبان معذورون اذا رأوا أمامهم فتاة بيضاء كالقشدة ، فارعة ، ممتلئة . . فقد كان نضجها مبكرا . . جدا . . لسوء حظه ، حتى بدت وهى بعد لم تتعد الثالثة عشرة كأنها فى العشرين ، خاصة وقد ارتدت فستانا أحمر فاقعا مكشوف الصدر والذراعين وتركت شعرها الطويل مرسلا خلف ظهرها لقد دهش عندما راها ترتدى ذلك الفستان المكشوف فالصيف لم يكن قد بدأ بعد . . وهو نفسه كان يرتدى جلبابا بلديا من الجوخ ويلف رقبته بتلفيحة رغم ذلك لم يشعر بالضيق أو الحر . . وكان فى وسعه أن يرتدى زيا اخر ودولاب ملابسه يشبه محلا لتأخير الملابس التنكرية ففيه الى جانب الجلباب البلدى ، الجلباب الأفرنجى الخفيف ، ثم الكاكولة والجبة والقفطان ، والبذلة الأفرنجية . . وأخيرا بذلة الكمسارى ، لكن الجلباب البلدى كان أحب أزياء المجموعة وأقربها الى قلبه ، كان يختاره كلما بداله أن المجال يقتضى الوجاهة . . ومن ثم يسير به مختالا . . لكنه لم يته ولم يختل يومها « وتوتة » تسير بجواره بفستانها الذى جعل رقبته فى حجم حبة السمسم ، فصورة الجلباب البلدى لم يكن يكملها سوى الطرحة والملس الذى كان يستهويه كلما راه يضم جسدا لابد انه غال على صاحبه والا لما غلفه ضبابه على الأعين المتهافتة وما كان أروع هذا الزى على السيدة نفيسة . . يخلع

عليها كلما ارتدته المهابة والعظمة . . بل والفتنة أيضا الفتنة المصونة غير المبتذلة ، وكان يثير حميته اقتناعه بأن « توتة » لن ترتدى الملس يوما ما أبدا والا لما ألحت على والدتها أكثر من مرة أن تنبذه . برغم أنه لا يليق بها وأنه غير مودون ! ورغم انحياز « صابر » دائما الى جانب أمها ودفاعه عن زيها مبينا نواحى السحر والحشمة فيه ، الا أن « توتة » لم تقتنع أبدا وشملت سخريتها من الملس المدافعين عنه أيضا .

لن تعود هذه الأفكار تزعجه أو تقلقه بعد الان ، نعم أن أسمه « صابر » وقد صبر على العديد من النوازل والمصاعب . . وعلى استعداد لأن يصبر على ما هو أكثر منها أيضا . . لكنه لم يعد بمستطيع أبدا الصبر على دلال هده الدلوعة الغندورة « توتة » لذلك . . وبعد أن وجد أنه لم يعد فى قوس الصبر منزع . . قرر أن يعفى توتة من شرف زواجه . . ويعفى نفسه من صدام أصبح حكاية كل يوم .

أحس بعد قراره هذا بالراحة والهدوء يغمران نفسه حتى أنه دهش . .كان يظن أنه مقدم على عملية بتر . . وأعد نفسه لاحتمال الامها لكن لدهشته لم تكن هناك أية الام على الاطلاق حتى أنه راح يسأل نفسه . . ألم أكن أحبها ؟ لقد تأكد بعد أن اتخذ ذلك القرار أنه لا « توتة » ولا حبها قد دخلا يوما قلبه ولو من قبيل الزيارة ، وكل ما تحمله من عذاب ومعاناة لم يكن من أجلها هى ولكن من أجل السيدة نفيسة فهى التى كانت تريد هذه الزيجة ، ولم يكن قلبه ليطاوعه أن يجرحها أو حتى يخدش مشاعرها مجرد خدش ، فهو لم ير انسانا مثلها ينكر ذاته ولا يفكر الا فيمن يعزهم . .تعطى ولا تسأل المقابل أبدا ، ترى كيف يكون رد فعل قراره عندها ؟ هل تراها تقطع كل ما بينها وبينه من أواصر ؟ . . . هنا فقط شعز بقلبه يغوص بين جنبيه أحس أنه أهون عنده أن يموت ولا يفقدها . . بكل حدبها وطيبتها وأصالتها . . ونورانيتها التى تشع فتنير السبيل لمن حولها . . لكن لم يكن بد مما ليس منه بد إقتنع أخيرا بأنه ليس ثمة فائدة من التأجيل ، بعد بضعة أيام انقطع فيها وهو يظن أن تباعده ربما يجعل فسخ الاتفاق تدريجيا فتفهمه السيدة نفيسة دون أن يضطر هو للمصارحة ، وجد قدميه تسوقانه الى شقتها . . لم يستطيع المضى فى خطته وقدر أن وقوع البلاء أهون من انتظاره ، واستقبلته السيدة نفيسة بترحاب ولهفة :

— خيرا . . لقد شغلتنى عليك كثيرا . . خشيت أن تكون ـ لا قدر الله ـ مريضا لكننى اطمأننت عندما قالت لى توتة أنك تذهب لعملك . . هل كنت مشغولا جدا ؟

قال باقتضاب : نعم . . جدا . . !

صمت قليلا ثم سألها فجأة :

— هل أعجبك ياست نفيسة الفستان الذى كانت ترتديه توتة يوم شم النسيم ؟

— ما باله ؟ . . كان فستانا أنيقا للغاية . . !

— وخليعا للغاية أيضا !

— وماذا عساك كنت تريدها أن تلبس ؟ . . هل تلبس ملسا ؟ ، أن توتة بنت مدارس

— وهل ما يمنع بنت المدارس أن تكون محتشمة لقد كنت فى أشد حالات الخجل وأنا أسير معكما يومها ! . .

ضحكت بهدوء ولكن بمرارة : هكذا ؟ ؟ . . الأن أصبحت تخجل منا ؟

رد بسرعة : كلا . . ليس منك . . من توتة . . . ولو كنت معك وحدك لشعرت بالعزة والكرامة ، ثم ما عيب الملس ؟ . . أنه ليس زى أمها وحسب لكنه زى بلد والدها أيضا .

— لكن يا صابر توتة طفلة فكيف . .

قاطعها : لم تعد طفلة .

— وأيضا لم تصبح عجوزا مثلى .

— من هى العجوز ؟ ! أنك مازلت فى شرخ شبابك يا ست نفيسة .

لكن هذا الثناء لم يستطع أن يمسح غضبتها عليه ، فقاطعته بمرارة :

— ست نفيسة ؟ ! ، أول مرة منذ حضرت من البلد لا تناديني بيا « أبلتى »

— ما كان يصح أن أدعوك أبلتى وأنت لا تكبريننى بأكثر من عامين .

— المسألة ليست مسألة سن يا صابر . وحتى لو كان الرجل أكبر من حماته فانه لا يليق أن يناديها بأسمها . . ومعنى هذا أننى لن أصبح حماتك .

— أظن هذا أمر كان لابد أن نقرره من زمان . . يا ست نفيسة !

ودت السيدة نفيسة لو تصفعه ، فهل توتة ترفض وممن ؟ . . من « صابر عبد الشكور » الذى كاد يقبل يدها يوم قالت له أنها ستعطيه توتة ، توتة الجميلة . . مالكة المنزل دون شريك ، التى تستطيع أن تتزوج من هو أفضل منه . . ضابطا وجيها أو موظفا كبيرا ، لكنه الخوف من المجهول فمن يضمن لها شخصا غريبا لا تعرف عن دخائله شيئا . . أليس محتملا أن يكون شخصا رفيع المكانة لكنه سكير أو مقامر أو زير نساء . ومن سيمنعه عندئذ من جعل « توتة » تبيع المنزل لينفق ثمنه ثم ينبذها نبذ النواة ؟ . . أمها الأرملة الوحيدة المكسورة

الجناح أم أعمامها وعماتها الحانقون عليها انفرادها بالميراث لدرجة أنهم قاطعوها كلية بعد وفاة والدها ، أن مصائب الدنيا عديدة وكم سمعت برجال يسهرون للفجر مهملين زوجاتهم ومع ذلك يبتزون نقودهن ، كانت السيدة نفيسة كعادتها فى كل الأمور تنظر الى بعيد وتخشى على ابنتها مثل هذا المصير . أما « صابر » فهى واثقة من عفته وأمانته ، وضمانها لابنتها حياة ولو متوسطة . . خير من المغامرة ، ثم أن « صابر » كان طوع أمرها . . ولو تزوجت توتة من شخص كبير المقام كما تأمل فانه قطعا لن يتنازل ويقضى مصالحهم ، ومن ثم ستضطر هى للف على شقق السكان وادارات المياه والكهرباء والعوايد والمجلس الحسبى . . و . . و . . الخ . . ثم أنه لاشك سيتعالى عليهم وربما عاير « توتة » بأصلها هذا اذا كان موظفا كبيرا أو ضابطا حقا ولم يتضح أنه محتال ذو سوابق مثل عريس جارتهم « شربات » الذى كان جنديا هاربا من الخدمة ومن عدة أحكام صادرة ضده وأوهم أسرتها أنه ضابط وكان يزورهم بالبذلة الرسمية المزيفة فعلا . . أن والد « شربات » حى يرزق ، مع ذلك وقعت أسرتها فى ذلك المقلب . أما توتة فمن سيستعلم لها عن العريس ويتأكد من صدقه وطيبة أصله ؟ ، لذلك قالت لنفسها « مادمت واثقة من صابر وراغبة فيه فأن العنف لن يجدى . . وهكذا كتمت ثورتها فى نفسها وقررت أن تعالج المسألة بالكياسة . . ضحكت برقة محاولة تخفيف حنقه .

— لقد قلت لك مائة مرة عندما تكبر ستتعقل .

— وأنا أقول لك ألف مرة أنها لن تتغير قط . . فالشجرة العوجاء لا تنعدل أبدا !

— ما معنى عوجاء هذه ؟ . . لا لا . . أسحبها . أكل هذا لانها ارتدت فستانا مودرن ؟ ، أن كل بنات جيلها يرتدين هذه الفساتين لكنه أنت الذى لا ترفع عينيك اليهن . . طبعا هذا خلق حسن لكنك لو نظرت حولك . . حتى لبنات الجيران لوجدت أنك أنت المتزمت بعض الشىء وأنك تظلم « توتة » كثيرا ، ثم هل تقاس الفتاة بفستانها أم بأخلاقها ؟ . . هل لك أى مأخذ على أخلاق توتة ؟

— مستحيل . . ما هذا الكلام ؟ . . أنا واثق طبعا من أخلاقها . . ولو تحدث أحد عنها بسوء قسما لأقتلنه . . لكن الموضوع ليس موضوع فستان اطلاقا كما تظنين انه موضوع مبادىء ، وتوتة مبادئها فى الحياة تختلف عن مبادئى كل الأختلاف وقصارى الكلام . . لا هى من توبى ولا أنا من توبها لأكن متزمتا بعض الشىء ولكن هذا طبعى . . والذى يريد أن يتزوج لابد أن يختار شريكة حياته مناسبة له فى كل شىء . . . تفكيرها وطباعها مثل طباعه .

— بعد الزواج اجبرها أن تتصرف حسب طباعك وتسير حسب هواك . . ألست أنت الرجل ؟

— وهل تكون عندئذ سعيدة وأنا أحرمها من حريتها ومن كل ما تحب وتهوى ؟ . . . واذا كرهتني فهل ستسعدني ؟ . . هل يتزوج الرجل ليحارب زوجته أم لتحارب زوجته معه لقد عودتماها . . أنت وعمى الحاج على التدليل وتلبية كافة رغباتها . فهل سأفعل أنا مثلكما ؟ . . أنني رجل مكافح شقيان في عملي . . أعود منه اخر الليل . . هل يكون باقيا عندئذ في طاقتي ما يسمح لى أن أدلل وأدادى . . أم أريد أن أعود لاجد شريكة واعية قلبها على . . تهتم بشئونى ومتطلباتى . . زوجة قريبة من سنى تحمل معى هم الدنيا لا أن تحملني همها فوق هموم الدنيا ، لك الآن سنوات وأنت تقولين ستكبر وتتعقل ، متى ؟ . . لقد اقتربت من الثلاثين ومرتبى لا بأس به والمهر قد أدخر فماذا أنتظر . . أريد أن أستقر ، أن أستريح . . الى متى سأظل أنتظر طفلة لن تكبر أبدا ؟ ! .

ضحكت السيدة نفيسة عاليا : . . تريد زوجة جاهزة فى الحال ؟ هه . . نفس ما قدرت بالضبط ، لابد امرأة ظلت تطاردك حتى أوقعتك فى حبائلها لم تكن لتتغير هكذا حتى تثور على الصغيرة قبل الكبيرة لولا ذلك ، ما كان أحرى بك أن تقولها صراحة بدلا من أن تصطاد لتوتة المسكينة الهفوات بعد أن بعتها رخيصة من أجل تلك الأخرى . . قل . . قل بصراحة . . من هى تلك التى تريد أن تأخذك ؟

— بالعكس . . اننى أنا الذى أريدها . . وليتها هى ترضى بى . . وليتك بعد كل ما فضفضت وشرحت تفهميننى يا ست نفيسة .

هناك غرف قد تظل مظلمة لا يدخل من نافذتها أى ضوء لأن أحدا لم يفكر فى فتح تلك النافذة ، لكن ريحا قوية تدفع مصاريعها فجأة فاذا بضوء الشمس يسطع داخل الغرفة ويبدد ظلمتها . . كذلك السيدة نفيسة رغم حدة ذكائها وحنكتها ، فانها لم تفهم مقصد « صابر » لأنها لم تحاول قط أن تفكر فى هذه الناحية ، وفجأة لمع فى رأسها شعاع خاطف من الفهم ، فاذا هى تدق صدرها بكفها وهى تشهق بدهشة : ما هذا الذى تقوله يا صابر ؟ !

— أقول ما كان قلبى يخفق به من زمان . . الحب ليس وتدا ندقة فى قلوبنا عندما نريد لكن الحب . . أقوى حب . . هو ما يتسلل إلى القلب كخدر لذيذ حتى يملأه دون أن يتعمد - وربما دون أن يشعر - صاحب ذلك القلب !

— لكن أنا . . أنت . . توتة . . الحاج . .

— الحاج يسعده أن يوجد بجوارك من يرعاك . . أنت أيضا تريدين ذلك لكنك تغالطين نفسك فتظلمينها وتظلمين توتة ، أتركى توتة تعيش حياتها هى وعمرها هى . . .

تدريجيا بدأت ابتسامة رقيقة تبزغ لتغطى وجهها فتنفرد أساريره بعد طول عبوس كما يصحو الجو بعد غيم ومطر طويل . . قالت فى حياء ووجهها تكسوه حمرة خفيفة :

— ربما كان عندك حق . . توتة ليست من سنك فعلا وأمامها سنوات حتى تستطيع تحمل مسئوليات الزواج . . لكن ما ذنبى وأنت الذى كنت تلح على أن ازوجك اياها ؟ ، عموما كل شيء قسمة ونصيب .

غمغم صابر : كنت أتمنى أن أصبح ضابطا لكن القدر أحبط أمنيتى ، توتة تتمنى الآن أن تتزوج ضابطا . . قد يحدث هذا . . وقد - وهذا غالبا - يضل طريقه إلى هذه الحازات المتداخلة ، لكننى بالنسبة لتوتة لن أكون القدر .

فى ذلك المساء بدا لتوتة أنه قد انتابت أمها نوبة شديدة من الرقة والطيبة لقد كررت طلبها فى أن تتلقى بعض دروس العزف على البيانو . . حتى تكون جديرة بعريس الأحلام فوافقت . . رغم أنها كانت قد رفضت هذه الفكرة أكثر من مرة ، ثم أنها لم تتجهم فى وجهها كعادتها أخيرا كلما تكلمت عن أحلامها مؤنبة ومذكرة أياها بأنها قد كبرت وبالتالى أصبح من العيب أن تأتى على لسانها سيرة الزواج والعرسان ، على العكس ضحكت وهى تقول :

— حقق الله لك أمانيك وأنالك كل ما فى بالك . ثم نصحتها بصوت حنون أن تذهب لتنام فلما سألتها بدهشة :

ألن يحضر هذا المدعو صابر ليتفرج معنا على التليفزيون كما اعتاد كل خميس ؟

ردت وهى تهز كتفيها :

— يحضر أو لا يحضر . . ما الذى يضطرك أنت لكى تسهرى من أجله ؟

أسرعت « توتة » تندس فى فراشها وقد خشيت أن تقول لها أنها هى بنفسها التى كانت تضطرها لذلك خشية أن تعود وتغير رأيها . .

لم يكن هذا هو التغيير الوحيد الذى حدث للسيدة نفيسة فى تلك الليلة . . فدرج زينتها الذى لم يفتح طيلة سنين منذ أختار الله الحاج إلى جواره . أو بالأصح الذى لم تفتحه هى من سنين . . فقد تعودت « توتة » أن تفتحه أحيانا من خلف ظهر أمها . . هذا الدرج ، برزت فجأة الحاجة إليه وعادت أصابع السيدة نفيسة تنتقل داخله ، ودق جرس الباب فهرولت بنفسها لتفتحه وأن لم تنس فى هرولتها أن تخطف نظرتين سريعتين . . أحداهما إلى توتة لتتأكد من نومها . . والأخرى إلى مرآتها لتطمئن على منظرها ، فتحت الباب ثم تنحت عنه وهى تهمس بصوت يقطر رقة ودلالا :

— اتفضل . . اتفضل يا سى صابر أفندى .

حياتها الرائعة



لم تذهب لتطمئن عليها فور صراخ طفلها الصغير بأن والدته قد أصيبت بدوار أفقدها الوعى ، ضغط العمل الذى يصل ذروته دائما فى تلك الساعة هو السبب فى عدم ذهابها وليس الأهمال أو عدم الاستعناء . . على العكس كان واضحا تماما أن هذه الأسرة تستأثر من أهتمامها بقدر أكبر كثيرا مما تعطيه

لسائر نزلاء الفندق ، خاصة ربة الأسرة . . دائما تتابع تحركاتها . . أقوالها ، بل حتى مشاعرها الدفينة . . تحاول أن تستشفها عن طريق ما ينطبع على قسماتها .
أول الأمر لم تحاول تعليل السبب . . بل أنها لم تلحظ هذا الاهتمام . . حتى غدا أكبر من أن تتجاهله . . بدأت تسأل نفسها عن الأسباب ، هل لأنها أسرة كبيرة ذات أولاد وأغلب نزلائها ـ بل أغلب مصيفى مطروح . . من الذين يستطيعون تحمل مشاق الوصول اليها ـ دائما اثنان فقط . . عروسان مثلا ، لكن حدث فى حالات سابقة أن نزلت لديها أسر ذات أولاد فلم تولهم ذلك الاهتمام ، وهمس صوت ضئيل من داخلها . . ضئيل لانها حاولت وأده قبل أن يقول كلمته . . لكنه قالها . . « هل تغارين منها ؟ . . من دلائل الانسجام والتفاهم الواضحة على الأسرة ككل ؟ » وضحكت . . بل قهقهت بصوت مرتفع رغم أنها كانت وحدها فى فراشها . . لكن الفكرة كانت سخيفة . . للغاية . . أمسكت الوسادة وألقتها على الأرض . . خبطت كفا بكف . . هل هناك فى هذه الدنيا انسانة يمكن أن تغبط هذه البلهاء ؟ ! ، إلا إذا كانت أكثر منها بلاهة ؟ . . هذه المرأة المسكينة . . التى يرسم كل ما يحيط بها الاطار النموذجى لصورة الضحية !
لحظتها فقط استطاعت أن تصل الى سر اهتمامها بها . . ترثى لها . . من كل قلبها . . وسبب الرثاء طبعا أنها امرأة مثلها . . أكثر من ذلك مرت بنفس ظروفها المجحفة . . تعطى وتعطى دون سؤال . . أجل انها تذكرها بالفترة المظلمة من حياتها . . عندما كانت مع زوجها . . فترة القيود والاغلال . . فترة استبداد شخص ما بها . . كائنا من كان هذا الشخص تحت أسم الزواج . . فترة الموات قبل أن تنبعث حية لتعيش حياتها هذه . . الرائعة . . المتألقة . . النابضة !
لذلك أحست بهذه النزيلة التى رأت فيها نفسها ـ فيما مضى ـ وتعاطفت معها ورثت لها واهتمت بأمرها كل ذلك الاهتمام ، كان تصرفها غير مألوف من أول يوم جاءتها فيه تسأل عن غرفتين خاليتين . . ثم سألت عن الأسعار . . وعما إذا كان ممكنا الاقامة بالنوم فقط ، وعندما أفهمتها أن ذلك غير ممكن . . وأنها لن تجد فى مطروح كلها « لوكاندة » محترمة تقبل ذلك ، عادت ترجو أن تقبل نزولهم بنصف اقامة . . أى بدون عشاء . . متعللة بأنها والأولاد متعودون على العشاء الخفيف ، وبينما هى تمر بأصابعها على ذقنها تفكر فى هذا الرجاء استطردت النزيلة وهى تضحك على استحياء :
— مقيدون بميزانية . . تعودنا الاصطياف فى الاسكندرية . . هناك تجدين كافة المستويات . . سمعنا عن سحر مطروح . . قررنا الحضور أسبوعين . . من نفسنا ، لا نعرف أحدا هنا يمكن أن يحجز لنا مسبقا . . جئنا على فيض

الكريم . . فاذا وافقت على نصف اقامة . . استطعنا تقريب الشقة . . !
ضحكت نجلاء وهى تهتف :
— تحت أمرك . .

اللوائح ليست منزلة من السماء . . عدا أن هناك عددا من الغرف مازال شاغرا . . والموسم كله مازال غير رائج . فجأة أخرجت النزيلة من حقيبتها قلما وطلبت ورقة وراحت تضرب وتقسم وتجمع وتطرح بغير تحرج . . ! ، ونجلاء تنظر اليها مندهشة . . تذكرت أمرا فقطعت عليها حساباتها :
— الأولاد أقل من ١٢ سنة لهم خصم ٣٠ ٪
سطعت السعادة على وجه النزيلة بصورة واضحة . . الأمر الذى ضاعف دهشة نجلاء . . هتفت الأولى وهى تلقى بالورقة :
— رائع . . بعد إذنك . . سأصحب زوجى والأولاد . .
عندما دخل الزوج عرفت لماذا ظل بالكارتة فى الخارج ودخلت هى للتفاهم . . كان يتوكأ على عصا ، وعرفتها الزوجة أنه أصيب فى احدى العمليات الحربية . . لم تكن تتكلم بأسى أو بأسف ولكن بفخر وسعادة ! !
اعتادت الأسرة تمضية بعض أوقاتها فى التراس . . بالقرب من مكتبها . . ووجدت نفسها تهتم بهم اهتماما خاصا . . حتى لكأنها تدرسهم . . ! . . ، كونت فكرة . . الزوج جاد متزن . . معتد بنفسه كثيرا . . شخصيته قوية اسرة تغطى على ما حولها . . لابد أنه يشغل منصبا قياديا فى عمله . . فأغلب حديثه أوامر وتوجيهات . . الزوجة متفانية . . وإذا كان هذا ما تؤديه وهى قائمة بأجازتها . . فما هو شأنها ياترى فى منزلها ؟ ، انها تقوم بأعداد كل شىء ، أفطار الأولاد . . ترتيب الأسرة وضع الملابس والمضارب . والكرات فى الحقائب . . فاذا ما عادوا للغذاء أدخلتهم الحمام ليغتسلوا بالماء العذب وراحت تشطف المايوهات وتعصر البرانس . . ثم تساعد الأولاد فى الغذاء الخ .
بعد الغذاء يدخلون غرفهم ليقيلوا بعض الوقت ثم يخرجوا ليأخذوا الشاى فى التراس . . يجلسون غير بعيد عنها . . الأصح يجلس الزوج . . أما الزوجة فتستطيع أن تقسم أنها لم ترها تركن الى كرسيها أكثر من ربع ساعة متصلة ، بعد حضورهما بدقائق يطلبان جرائد اليوم . . ويضع الزوج يده على جيبه ثم يهتف :
— . . لقد نسيت نظارتى .
وتسرع الزوجة بالقيام الى حجرتهما لتعود بالنظارة . . وتمضى دقائق ويحضر الشاى . . ليضع الزوج يده على جيب آخر ثم يغمغم :
— لقد نسيت سجائرى !

وتضع لزوجة فنجانها دون أن تكمل رشفتها لتهرول الى الداخل . . ثم تعود بنفس الهرولة ومعها السجائر . . بعدها بعض الفاكهة أو البسكويت . . ثم أقراص دواء . . الخ الخ . . تظل هكذا كالنحلة تسعى بين التراس والغرفة عدة مرات كأنها عابدة تؤدى طقوس دين جديد !

فى كل يوم تتوقع نجلاء أنه لابد قد استدرك نسيان الأمس فأصطحب معه كافة حاجياته . . لكن شيئاً من ذلك لا يحدث لتتكرر حكاية كل يوم والزوجة لا تفقد صبرها بينما ضاع من نجلاء كل صبر ! ، قابلتها يوما بالقرب من غرفتها وبيدها النظارة . . سألتها بتهكم وغيظ :

— نسى نظارته اليوم أيضا ؟ ! . انه يتدلل عليك جدا . . !

وتضحك نوال ضحكة طويلة صافية :

— ومن لى سواه أدلله . . ومن له سواى يتدلل عليه ؟

كان هذا أكثر ما يغيظ نجلاء . . كثيرون تضطرهم ظروف قاسية أن يقبلوا الهوان . . لكنهم يدركونه ويحسون به . . ويشكون لطوب الأرض حظوظهم العاثرة . . أما هذه السيدة فأمرها غريب . . أحقا لا تشعر بما هى فيه من عناء ؟ . . لا يبدو عليها التذمر أبدا . . هل تخشى زوجها ؟ . . لكنها لا تتذمر حتى من خلف ظهره . . هل ترغب فى اخفاء همومها وعدم البوح لأحد بمشاكلها ؟ . . لكن كان حتما أن يظهر الضيق على وجهها إذن لم يبق إلا افتراض واحد . . وان كان افتراضا غاية فى الغرابة . . حتى بالنسبة لأمرأة غير متعلمة . . فكيف به إذ تعلق بسيدة تحمل مؤهلا عاليا وتعمل أمينة مكتبة بأحدى الكليات ؟ ، هذا الافتراض هو أنها ترى فى كل ذلك العناء راحتها وسعادتها ! !

لا . . كانت هى على قدر كبير من الوعى . . والاحساس . . تشابهت ظروفها مع ظروف هذه السيدة واختلفت عنها فى أنها رفضت القيام بهذا الدور التافه . . بل الوضيع . . تستيقظ مبكرة لتطهو الطعام وترتب المنزل . . وما أن تعود من عملها حتى تظل تخدم زوجها وأولادها وترعاهم حتى تأوى الى فراشها . . أين حياتها هى المستقلة . . ؟ أين شخصيتها ؟ لا تفعل شيئا أو تتصرف أى تصرف قبل استئذان الزوج . . لا تشترى شيئا قبل استئذان الميزانية ! ، وهل يتبقى لها متعة فى ارتشاف كوب عصير حسبت قبل تناوله كم ستتكلف فيه هى وزوجها وأولادها ؟ ، هل يسعدها ارتداء فستان جديد إذا كان لابد لها كى تشتريه أن تستغنى عن حقيبة أو حذاء أو . . نزهة السينما الأسبوعية ؟ ، قطعاأى شىء تفكر كثيرا قبل شرائه لا تصبح له بهجة ولا لاقتنائه سعادة .

المهم أنه ولا بادرة ضجر واحدة على وجهها ، ويعود السؤال يلح على نجلاء . . أيهما أفضل لهذه المرأة . . تركها فى سعادتها الموهومة أم رفع العصابة عن عينيها لترى حياتها التعسة على حقيقتها ؟ كل مرة كانت تفضل السكوت . . مرة لم تستطع ، قالت نوال وسعادة الدنيا فى عينيها :

— خايلت نظراتنا مروحة كهربائية رائعة . . طبعا لا يوجد معنا فائض يكفى ثمنها . . وفكرت . . إذا اختصرنا اجازتنا يومين استطعنا شراءها .

وصاحت نجلاء بدهشة :

— لكن إجازتكم من الأصل ضئيلة . . خمسة عشر يوما . . تمر سريعا . . لا تكفى لاستمتاع الأولاد . . ولا لتجديد نشاطك . . الناس المرهقون يصيفون شهرين وأحيانا ثلاثة . . حرام أن تنقصى اجازتك . . ترتكبين جريمة فى حق نفسك . . !

وترد الأخرى باقتناع :

— تبالغين . . ولا جريمة ولا أى شىء . . إذا كان هناك من يصيف شهورا فهناك أيضا من يصيف أسبوعا واحدا . . بل يوما وليلة فى نهاية الأسبوع ، وهناك من تمنعهم ظروفهم من السفر كلية . . واثنا عشر يوما فى هذه الرفاهية الساحرة . . نعمة جزيلة . . وتدهش نجلاء وتسأل فى دخيلتها :

— هل ترين نفسك حقا فى رفاهية ساحرة ؟ . لقد رفضت العشاء فأضفت لالتزاماتك عبئا اخر ، لا تكاد تنتهى من تناول الشاى - على دفعات - حتى تحضر بعض الجبن والمربات لعمل « سندوتشات » العشاء كى يأخذوها معهم فى نزهة العصر ، كل يوم تنتظر بيقظة طباخ الأوتيل وهو ذاهب الى السوق ليحضر لها الخبز وتنفحه بقشيشا . . مرة قالت لها :

— ليس كل يوم . .

فردت ضاحكة :

— بل هكذا أضمن ترحيبه . . ولو لم يقم بالشراء لى لاضطررت للذهاب بنفسى كل يوم . . الجبن يمكن الاحتفاظ به أياما أما الخبز فلابد من توافره طازجا . وطبعا المشوار حتى الفرن غير متيسر على الأقدام . . وستكلفنى العربة فى الذهاب والاياب أكثر من ذلك البقشيش .

ويعقد الذهول لسان نجلاء . . هذه السيدة . . كان يجب أن تصبح شيئا من اثنين . . أستاذة فى كلية الاقتصاد . . أو عاملة فى محل « سندوتشات » !

حقا عندما حررت هى نفسها كان هذا الطريق الجديد ينتظرها . . لكنها قبله كم ضاقت بحياتها وما يكتنفها من قيود ، حتى صحبت زوجها والأولاد مرة

الى مطروح حيث كانت خالتها تمتلك فندقا ـ وربما لولا هذا لما حضروا ! ـ قصت لها خالتها عن الفندق القريب الذى يريد أصحابه تركه ! . اقترحت عليها أن تحاول تدبير أى مبلغ ولو ببيع مصوغها وحصتها فى منزل والدها وتستأجره ، ومضت تصف لها الحياة البراقة والمكاسب الكبيرة . . ستلعب بالمال لعبا . عدا المكانة والأهمية . . مكانة المتبوع لا التابع . . صاحبة العمل التى يحسب لها الكل ألف حساب ، ثم . . الحرية و . . . الحفلات الصاخبة رفض زوجها أن تبتعد عنه نصف العام « هل أنا متزوج بالمراسلة ! » وصممت هى . . ثم طلبت الطلاق . . رفض . . صرخت فيه :

— لابد أن تطلقنى . . أريد أن أخرج من هذه الدائرة التى رسمتها لى واحتويتنى داخلهافلا أستطيع تخطيها قيد أنملة . .

مضت تصفعه بكل متاعبها معه . . ذهل . . حتى أنه لم يدعها تكمل وألقى اليمين . . أخذ الأولاد وسافر . .

لم تكذب الخالة . . كل ما منتها به حدث . . وسحرتها الحياة حتى نسيت حنينها للأولاد وانغمست فى العمل . . النزلاء لهم مطالبهم والعملاء يعرضون بعض المهربات . . عينات أخرى من الأعمال مشروعة ومريبة . . جر بعضها البعض . زاولتها وبرعت فيها . . مع كل هذه المعاملات المالية تحجرت مشاعرها وعواطفها . . لم تعد تجيد سوى لغة الأرقام وطرحت كل ما عداها من لغات خلف ظهرها .

فى ذلك اليوم قطع عليها عملها أحد أطفال الأسرة المعهودة يصيح فى أبيه :

— ماما مغمى عليها . .

ولأكثر من ساعة لم تستطع أن تقوم اليها . . حركة العملاء والنزلاء لا تنقطع أبدا . . وراحت تختلس النظر للأفق . . كأنها تتعجل الصراع اليومى المحتوم . . ولم يطل . . ككل مرة . . تغلب الليل وخر النهار صريعا . . فهدأت حركة العمل . . عندئذ رأت أنه من الذوق أن تذهب لتسأل عنها، نائمة وجدتها . . وحواليها الزوج والأولاد يجلسون . . فى يد الزوج زجاجة « الكولونيا » يرطب بها وجهها حينا . . ويهوى عليه بورقة مقواة حينا اخر . . عندما راها تهلل وجهه :

— الحمد لله . . لقد أفاقت لكنها الآن نائمة . . جئت فى وقتك فأنا أريد الذهاب لدورة المياه ولا أستطيع تركها وحدها . . الأولاد أصغر من أن يعتمد عليهم . . ممكن ؟

وتهز رأسها موافقة دون أن ترد . . رغما عنها قفزت الى خيالها فترة مرضها

من أسبوعين . . لم يجلس الى جوارها أحد . . بل لم يفتح بابها سوى عمال الاوتيل وموظفوه . . بل حتى ليسوا كلهم . . من كان لديه أمر لابد من استشارتها فيه . . وبالمرة يسأل عن صحتها . . عندما عتبت على الباقين اعتذروا بكثرة العمل ، فجأة طفقت تبكى . . لكنه كان بكاء داخليا غير منظور للآخرين . . أفاقت من سرحتها لتجد الزوج يتلفت حواليه ثم يسأل أولاده :

— ألم ير أحدكم عصاى ؟

ويبحث الأولاد هنا وهناك دون جدوى فتقول هى :

— ربما كانت فى التراس .

ويرد :

— غير ممكن . . وإلا . . فكيف بدونها استطعت الوصول الى هنا ؟

ثم فجأة يقطع كلامه ليهتف :

— نعم . . نعم . . تذكرت . . هى هناك فعلا . . إذهب ياسامى لاحضارها .

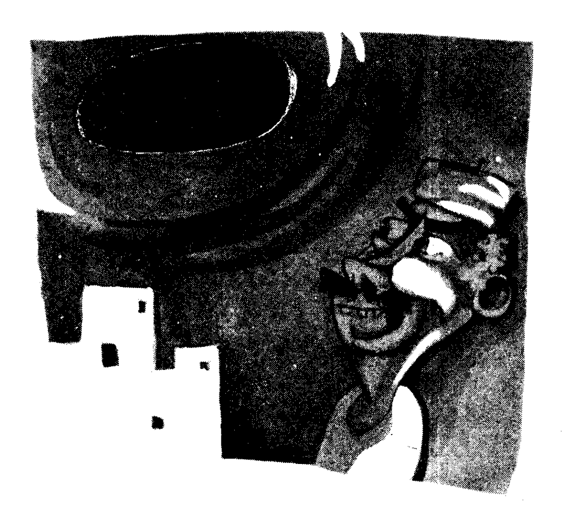
ينظر اليها ويضحك . . ويضجك :

— عجيبة . . لا أقصد ذلك الشاطىء الساحر الذى تتميز وتنفرد به مطروح ولكن ما حدث اليوم . . عجيب جدا . . تصورى . . عندما فاجأنى شريف بخبر اغماء نوال . . نسيت نفسى . . نسيت اصابتى . . وبالتالى عصاى . . وأسرعت الى هنا جريا . . أى والله . . اننى أتذكر الآن أننى كنت أجرى ! . . كيف حدث هذا ؟ : لست أدرى ! !

لم تسمع بقية كلامه . . غطى عليه صوت من داخلها يرد على سؤال قديم لها عن سر اهتمامها بهذه الأسرة . . صوت كان حينما ذكر ذلك الاحتمال لأول مرة خافتا ضئيلا . . يهمس على استحياء خائف . . الآن أصبح مدويا كالرعد . . هل تغارين منها ؟ ، تلفتت حولها بذعر وكأنها تبحث عن مصدر الصوت . . لم تجد من أحد قربها سوى الزوج الذى كان ما يزال يردد ضاحكا :

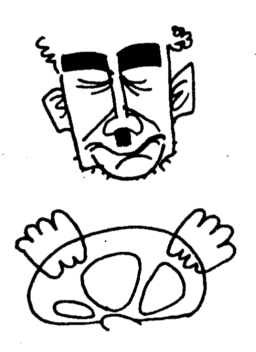
— انها عجيبة . . أليس كذلك ؟ ! .

آدم لن يخرج من الجنة مرتين



ترك كل شخص عمله وأخذ الجميع ينظرون
بدهشة وفضول إلى ذلك الشيء الضخم الذى توجه
ببطء يسير أمام منطقتهم ، وأسرع بعض الصبية ينادون
العدد القليل من النساء اللاتى كن بداخل العشش
ليخرجن بدورهن على هذا الشىء وقبل أن يمر من
أمامهم ، لكن هذه القلعة الكبيرة المتحركة لم تمر وانما

اوراق غير هامة



قال السائق مزمجرا : انني اسير بسرعة تسعين كيلو . . ودهشت . . كيف اذن استغرقوا كل ذلك الوقت ؟ اتراهم نقلوا المطار الى مكان أبعد؟ أخيرا ها هي اضواؤه المبهرة . . منذ اعوام لاحت هذه الأنوار لبصرها كحبات دموع ترقرقت على خد حسناء . .

.. اليوم تبدو لها كحبات لآلىء تزين صدر نفس

الحسناء ! صدق السائق . . لم تصل الطائرة بعد . .

اخيرا جدا وصلت . . بدا الركاب يخرجون . . زرافات وجدانا ، رغم تخطيها الأربعين بدت ساعة خروج الطائرة وكأنها قد استعارت عينا زرقاء اليمامة . . ما يكاد اى راكب يظهر امام فرجة باب الجمرك البعيد حتى تهز رأسها . . ليس هذا طارق . . ولا الآخر ايضا . . ولاالثالث . . ولاالعاشر . . ولا . . ولا الاخير ، كيف ذلك ؟ . . حدد موعد هذه الطائرة وجنسيتها ، وتدور تسأل . . ولا احد يعرف . . او ربما لا احد يهتم . . لكنها تواصل السؤال . اخيرا تعثر على من يرد عليها :

— آه . . ذلك الشاب لقد قال ان جميع اوراقه قد فقدت منه . . جواز السفر والبطاقة الشخصية ، وثيقة السفر التى جاء بها لا تثبت شخصيته

— والحل

هز كتفيه وكأنه يقول كلاما معقولا :- سيقضى الليل هنا بالمطار حتى نعرضه صباحا على الجوازات ! !

وشهقت : الن يعود معى الان الى المنزل ؟ !

نظر اليها مغيظا ولم يعن بالرد ، دارت على الجميع . . ابتداء من نائب مدير المطار حتى الشرطى الواقف بالباب . . ناقشت . . احتجت . . توسلت . . عبثا ، تنازلت عن مطلبها الاول . . ان يخرج معها . . اضعف الايمان ان تدخل هى اليه لتراه ، هذا الرجاء رفض . . مخالف كلية للوائح والقوانين . . وكادت تجن . . اى قوانين هذه التى تمنع اما من رؤية ولدها ؟ ! الا يصدقون انها امه . . يمكنهم تحليل دمه ودمها ! اهم الذين يضيقون بحديثها . . وحديثهم هم هل يرونه الجميع يمكنهم ان يدخلوا عنده ويحدثوه وهى امه الوحيدة التى لا تستطيع ان تراه بعد ثلاثة اعوام من الفراق سته وثلاثون شهرا الف وثمانون يوما . . بكل ماتحوى من ملايين الساعات والدقائق والثوانى . . تحملتها لأنه كان بعيدا عنها بمئات الأميال . . الآن هو معها فى نفس البلد . . فى نفس المدينة . . وفى نفس المكان . . مع ذلك يفصل بينه وبينها جدار ! مجرد جدار يجعلها تعود ادراجها دون ان تراه ؟ ! ان تطمئن على صحته ؟ ان ترى ما فعلت به الشهور الطويلة فى الغربة . . هل زاد وزنه ان نقص ببضعة كيلوجرامات ؟ هل فتح لون بشرته ام ازداد اسمرارا ؟ . . هل اخشوشنت يداه ؟ هل هل بزغ شاربه وبسمته الجميلة على شفتيه دائما هل مازالت مكانها ام اخلته لملامح جدية صارمة اه ليت معها فأسا او اية الة حادة اذن لهدمت هذا الجدار وحتى بدون الفأس تستطيع ان تهدمه بأظافرها يبدو انهم لمافطنوا لما تفكر فيه فهاهم يأمرونها بالخروج وكفاها

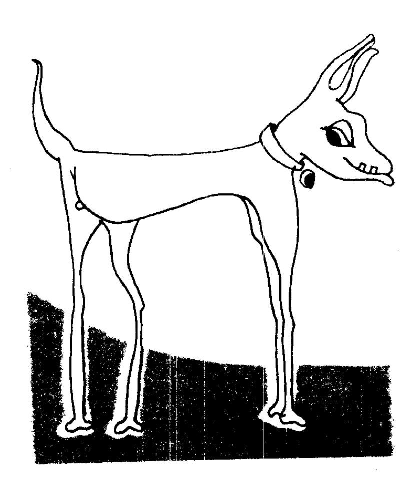


ماسيهته لهم من ازعاج . . وهم . . ماذا سببوا لى المرارة والالم والاحباط التى انضمت لتشارك فى الوليمة المنصوبة على مشاعرها المكشوفة . .

كل هذه المعاناة بسبب ورقة ما اكثر الاوراق تلفتت حولها وحيثما نظرت رأت امامها تلالا من الاوراق، صور سياحية جرائد ملصقات دعائية اوراق لف تحيط بكل شىء يحمله المسافرون دوسيهات تقارير، المطار بجميع ارجائه ملىء بالاوراق بعض هذه الاوراق ثابته فى مكانها وبعضها بفعل نسمة الهواءهبت فجأة - راحت تتطاير قريبا منها وكأنها ترقص حولها رقصة شيطانية . . بدأت بايقاع بطىء ثم اسرعت فى هوس مخبول، حتى سلال المهملات متخمة بالاوراق حتى حافتها لكن الورقة الوحيدة التى يريدونها غير موجودة . . ماذا تزيد تلك الورقة . . هل هى مكتوبة بماء الذهب وفتحت حقيبتها . . هى الأخرى مكتظة بالاوراق . . اوراق تقوم اليوم بما كان يقوم به الجنى خادم مصباح علاء الدين فى قديم الزمان . . تستطيع ان تفعل اى شىء وتحصل لصاحبها على كل شىء . . علاج للمريض طعام للجائع امان للخائف كساء للعارى دفء للمقرور راحة سرعة رفاهية كل شىء من الثقافة حتى المجون ! بل انها احيانا تستطيع ان توفر السعادة وحتى الحب مابالها اليوم تبدو عاجزة كسيحة . . ماكادت تمسك برزمة منها حتى زجروها مهددين . .

ترى كيف فقدت اوراقه تلك ؟ واين هى الان ؟ هل احترقت مع بعض من متاعه وهى الآن ذرات رماد تطيرها الرياح من فوق تل عال بعيد هل سرقت مع حافظة نقوده وهى الآن فى جيب شخص اخر غير بعض بياناتها ؟ هل سقطت منه دون ان ان يشعر فعثر عليها شخص ما . . ربما طفل صغير لا يستطيع ان يفرق بين قيمة اية ورقة واى ورقةاخرى وهى الان بين يدية يمزقها ليصنع منها مراكب يلهو بها فى حوض ماء ؟ ! نعم . . ما الذى يمنعه ان يفعل ذلك وهذه الاوراق حالت بينها وبين رؤية ابنها ومنعتها من أن تقبله وحرمتها ان تأخذه بين ذراعيها لتهدىء دقات قلبها الملهوفة بصوت قلبه هذه الاوراق نفسها بالنسبة لمثل ذلك الطفل تعتبر اوراقا غير هامة، غير هامة على الاطلاق . . .

لم يضحك أحد



التفت ركاب الدرجة الأولى بأجمعهم الى تلك التى كانت تهم بركوب الأتوبيس. . . لا . . لم تكن نجمة من نجوم السينما . . ولا هى بالفاتنة الأنيقة . . وانما للضجة التى احدثتها . .

— حاسب ياأسطى . . حاسب بالله عليك . . تمهل . . تمهل جيدا . . ياللداهية . . لقد زمر

الكمسارى . . لن أركب اذن . .
وقال السائق : - ياستى انى أراك . . فكيف أسير وأنت على السلم ؟
— يعنى هل أركب ! ؟
— نعم اركبى . . نعم ياستى والله العظيم . قبل أن ينطلق الأتوبيس كان لسانها ينطلق بسيل اخر من الدعاء للسائق الأمير طيب القلب . كان هناك - على غير العادة . . مقعد خال فجلست وهى تطلق تنهيدة ارتياح طويلة ، وجاء الكمسارى فسألته فى حرص قبل أن تدفع :
— هذا الأتوبيس . . هل يذهب عند مستشفى الكلبة ؟
— ولماذا بالذات كلبة ؟ . . طيلة عمرى أعرف أن اسمها مستشفى الكلب
— لأن التى عقرتنى اليوم كلبة . .
ضج الركاب جميعا بالضحك وقال الكمسارى :
— هاتى النقود
وعادت تتأكد : - هل يذهب الى مستشفى . .
— قلنا نعم . . هاتى . . خلصينا
واطمأن بالها وهى تناوله القرش فعاد لثورته :
— هاتى قرش اخر . . هنا درجة أولى
— وهل ترانى كنت أقسمت ألا أركب الا فى الدرجة الأولى ؟
هات لى مقعدا خاليا فى الدرجة الثانية وأنا أذهب هناك
— وهل لابد من جلوسك . . لماذا لا تقفين مثل الباقين ؟
— لا أستطيع . . رجلى تؤلمنى . . اليوم صباحا عقرتنى بها كلبة
— اذن فادفعى قرشا اخر . . والا فلن نسير . . هه . .
وزمر الكمسارى فوقفت السيارة . . وتذمر الركاب . . وأخذ الجميع يتكلمون فى وقت واحد . . بعضهم يرجو الكمسارى التساهل نظرا لظروفها . . والبعض الآخر يؤيد الكمسارى فى اصراره لأن الحق حق والقانون لا شأن له بظروف الناس . . خاصة وأن وراءه مفتشا قد لا يرحمه ، لكن لا كلام هؤلاء ولا أولئك حل المشكلة . . جاءالحل فى صورة قرش دفعته سيدة لم تتكلم طوال الوقت . . وعاد الأتوبيس يسير والسيدة تلهج بالشكر لمنقذتها :
— لا أوقعك الله فى ضيق أبدا . . لم أكن لأستطيع الوقوف حيث عقرتنى اليوم فى رجلى كلبة . .

وقاطعتها السيدة باقتضاب : ـ سلامتك . . وتدخل أحد الركاب متسائلا : ـ هل تعرفين الكلبة التى عقرتك ؟

— لا أبدا . . اطلاقا . . انها كلبة ضالة كانت تسير بالشارع . . وجرت قبل أن أتنبه الى أين

— اذن من أين تأكدت انها كلبة وليست كلبا ؟

وارتبكت : ـ لأنها . . لانها . . لأن اثداءها كانت مدلاة . . ويبدو أنها ترضع .

— خسارة . . لو أنك تعرفينها . . لنصحتك بأن تأخذى بعضا من شعرها وتحرقيه . . ثم تضعيه على الجرح . . فلا يكون هناك أى داع بالمرة للمستشفى وحقنه العشرين المؤلمة بالبطن

قالت بلهفة : ـ حقا . . ؟ هل حقا تقول ؟ . . اذن ـ انزل المحطة القادمة . . الحقيقة أننى أعرف الكلبة و . . وأصحابها أيضا . .

قال راكب بحدة : ـ بل أنصحك بأن تتوجهى للمستشفى . . قصة الشعر هذه خرافة . . فماذا يمكن أن يفعل بالله عليك ؟ !

وقال الراكب الأول ـ لكنها وصفة مجربة . . وقد أجرتها والدتى لشغالة كانت بمنزلنا

— فقط كان من حظ الشغالة أن الكلب الذى عقرها لم يكن مصابا بالسعار . . ولك أن تحمد الله أن الجرح لم يلوث من جراء الشعر هذا

— أعتقد أن أحدا لم يسألك . . كما أعتقد أنه ليس من الذوق فى شى أن تسفه رأى شخص ليس لك به صله . .

— لو كنت تتكلم فى السياسة أو الفن أو الكرة . . أو حتى الدين . . لتركتك تقول ما تريد مهما كان خطأ . . أما والأمر يتعلق بسلامة انسانة قد تتسبب نصيحة جاهلة فى اصابتها بمرض خطير فواجب أى شخص ألا يسكت . .

وخبطت المرأة صدرها : ـ مرض خطير . . يا للداهية . . لا . . لا . . أذهب للمستشفى

وقال صاحب النصيحة : ـ من حسن حظك أن محطتى قد جاءت والا لجعلتك تدفع ثمن نعتك لى بالجهل . . يا متعلم جدا . . !

سألها شاب : ـ لماذا ادعيت أولا أنك لا تعرفين الكلبة . . ثم عدت وأقررت أنك تعرفينها . . وأصحابها أيضا ؟

— حسنا . . صاحبة الكلبة أخت زوجى . . وقد أكدت على الا أذكر ذلك لاحتمال أن يضايقها المسئولون فيأخذون الكلبة أو يقتلونها . . وأنا لا استطيع مخالفة رأيها فيكفينى ما نالنى بسببها من أذى . .

قالت سيدة بسخط ـ ويبدو أن كلام المرأة المسكينة كان له فى نفسها صدى ـ قالت :

— تؤذيك وتنفذين أوامرها ؟ ! ان ضعفك هذا هو الذى يطمعها فيك . .

ردت وصوتها يقطر مرارة : ـ لم أكن ضعيفة امامها هكذا أول الامر . . كنت أواجهها واتحداها . . لكنها ظلت توغر قلب زوجى على . . وكما يقولون أن الدوى على الآذان أكثر من السحر . . ظلت به تملؤه وتدفعه حتى طلقنى وتزوج أخرى . . لكن هل تصدقين بالله أننى سعيدة لذلك . . !

شهقت : سعيدة لزواجه من اخرى ؟ !

— يعنى . . أحيانا أحس بالسعادة لأن الأخرى ثارت لى منهم . . فى بداية زواجى أرادت شقيقته وأمه أن تضعانى تحت وصايتهما لكنى لم أقبل . . ثم ضقت ذرعا باستبداد أسرته بى وتدخلهم فى كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا فقررت أن أستقل بمعيشتى . . وعملت ما فى وسعى حتى وافق زوجى على أن يؤجر لى سكنا مستقلا . . وقامت قيامتهم ولم تقعد وظلوا يجأرون . . بل يعوون لكل من يقابلهم «أخذته من وسط أهله» نعم أنا أخذته من بين أهله وخرجت به الى منزل آخر لكنه كان قريبا للدرجة التى تسمح له بالتردد عليهم كل يوم أو يومين . . الأخرى أخذته الى . . السعودية ، له عامان هناك لم يروه خلالهما مرة واحدة . . هكذا ذنب أناس يخلصه أناس .

عاد الركاب يضحكون وعلق أحدهم متسائلا :

— هل يعقل هذا . . تفرح لكارثة تصيبها لأن ذلك سيؤلم من تكرههم ؟ !

ورد راكب :

— وما الغريب . . ؟ الم يفعلها شمشون من قبل حين هدم المعبد عليه وعلى اعدائه ، والآن يا شمشونة القرن العشرين . . هل تعتقدين أن غياب زوجك . . السابق . . عن أهله يضايقهم ؟

— بل انه يكاد يفرسهم . . اذا كانوا قد حاربونى كل تلك الحرب لاننى أبعدته عنهم حارتين . . وكان دائما معهم وهم أيضا معنا . . فى كل مرة أذبح بطة سمينة تعبت فى تربيتها . . كنت أجدهم يطبقون علينا . . بالصدفة . . حتى ضقت ذرعا بهذه المصادفات . . يشاركون أولادى أطايب قوتهم . . وهل نشاركهم نحن أطايبهم ؟ لذلك كنت أحيانا اخبره بعزمى على ذبح البطة ثم أضربهم «بومبة» يحضرون ليجدوا الباذنجان بالخل أو الفول المقلى . . وأتعلل لزوجى بأى عذر طرأ فى لحظة فجعلتنى أؤجل البطة ليوم اخر . . !

تريثت قليلا . . حتى سكنت ضحكات الركاب ثم عادت تردف :



— الآن . . علام يحصلون من خيره . . ؟ لاشى ، كان المفروض أن تجعلهم المرأة الأخرى يعرفون فضلى لكن الكراهية متأصلة . . يتهموننى بأننى السبب فى بعاده عنهم . . ولو كنت أرحته وأرضيته لما تركنى وترك البلد كلها . . وعلم الله . . هم السبب ، الآن أهادتهم . . بعد خراب مالطة . . يرسل نفقتى والاولاد على أخته . . وأنا اخذ منها . . من تحت يدها ، وكنت اليوم ذاهبة اليها لآخذ النقود لكنها أخبرتنى أن الشيك لم يصل بعد . . فى اعتقادى أنه أحيانا يكون قد وصل لكنها تقول لى ذلك لأذهب وأعود أكثر من مرة وهى تتلذذ باذلالى . . اليوم لا نقودا أخذت ولا برجلى سليمتين خرجت . . مع ذلك أنفذ أوامرها . . علمنى الدرس السابق ألا أعاديها . . من يدرى . . ربما أوغرت صدره ضدى مرة أخرى . . ولو بالمراسلة . . فيقطع عنى النقود ، يالداهية أين ذهب الكمسارى . . ؟ والآن لو جاءت محطة المستشفى فانها ستفوتنى حيث لا اعرفها ولا عمرى يوما دخلتها . .

وعاد الكمسارى من الدرجة الثانية فابتدرته قائلة :

— أرجوك أن تصنع فى معروفا وحياة والدك فتنبهنى عندما نصل المستشفى حيث لا أعرفها ولاعمرى يوما دخلتها . . ولعنة الله على هذه الكلبة التى . .

— حاضر ياستى . . حاضر . . سوف أنزلك أمام المستشفى تماما . . فهمنا . . !

لما كان أغلب الركاب قد اشتركوا فى مناقشة مشاكل هذه الراكبة التى لاتنتهى . . وكأنها مشاكل الشرق الأوسط . . فقد أراد شاب ماجن يطيل شعره ـ الذى فرده عند الكوافير ـ حتى كتفيه . . ويرتدى بلوزة مزينة بالتطريز والدانتيل فوق بنطلون محزق جدا . . أراد أن يتظرف على حسابها . . قال لها :

— اسمعى . . دعك بعد من أخت زوجك ونقوده . . ومن الكلبة ومستشفاها وتعالى . . نتزوج . . ! أنا وأنت . . ما رأيك . . ؟ الا اعجبك كما تروقيننى يا فاتنة النساء . . !

قهقه جميع الركاب لكن المرأة لم تهتز وانما ـ وبكل هدوء ـ قالت :

— لم تر زوجى طبعا . . لقد تركنى . . هذا صحيح . . لكن ذلك لا يجعلنى أنكر الحقيقة . . كان رجلا . . بكل ما يمكن أن تعنى هذه الكلمة من معان متعددة . . رجلا ذا شخصية ومهابة . . عندما يتكلم فالكل يسمع . . وعندما يأمر فالكل يطيع . . أتزوج بعده ماذا ؟ ! . شى لا أحد يدرى الى أى جنس ينتمى ؟ . . هل هذا معقول . . ؟

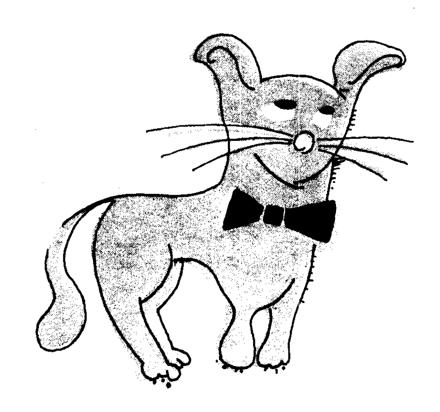
أستبدل سبعى بكلب . . ؟ !

لم يضحك أحد من الركاب . . منذ صعدت الأتوبيس وضحكات الركاب تنطلق اثر كل جملة تقولها وكأنها اللازمة الموسيقية التى تتكرر عقب كل كوبليه فى أية أغنيه . . هذه المرة لم تنطلق الضحكات . ..حبس الجميع أنفاسهم منتظرين رد فعل الشاب . . الذى وجم تماما . . كف عن الضحك فجأة . . لم يثر ولم يشتم ولم يحتج . . ظلت عيناه ترمشان وهما تجوسان خلال وجوه الحاضرين خلسة فلم تفته ابتسامات الشماته رغم محاولة الجميع اخفاءها .

حاول أن يفعل أى شىء . . أن يكسر جمود السكون فأدار راديو ترانزستور كان فى يده . . ليلعلع صوت عبد الوهاب «تيجى تصيده يصيدك» ، ولا يعلم أحد اذا ما كان استمر يسمع عبد الوهاب أو أغلق الراديو . . لأنه نزل فى أول محطة !

تغيرت نظرة الجميع الى المرأة . . فلم يعد أحد يفكر فى أن يسلى نفسه على حسابها . . حتى الكمسارى نفسه . . جاءها بعد دقائق ليخبرها فى لهجة ممتلئة بالاحترام . . أن المحطة القادمة هى محطة المستشفى . . مستشفى الكلب . .

سؤال بلا جواب



يده تمسح شعرها الناعم الغزير . . وسؤال واحد يطرق خياله ، ظل السؤال يدور داخل رأسه رغم تأكده التام أنه لن يعرف أبدا الاجابة عنه . . الى الابد ، اللهم الا اذا عاد سيدنا سليمان وبعث الى الحياة من جديد ليستطيع أن يسألها وحتى فى هذه الحالة من الذى يضمن أنها ستقول الحقيقة ؟ . .

اليس من المحتمل أن يكون العمر الطويل الذى عاشرته فصيلتها للآدميين قد جعلها تتعلم المكر والتلاعب بالحقيقة أو التهرب منها . . فلا تذكر الا ما يتفق مع مصلحتها الشخصية ؟

وعاد يمسح على رأسها وظهرها فرفعت وجهها ترنو اليه بسعادة وهى تهر هريرا عاليا رغم الامها الشديدة التى لا يشك فى قسوتها . . حيث هو الآخر ذاق كسر العظام وجرب آلامه .

وأحس بضميره يحزه لكنه حاول أن يدافع عن نفسه ، لم تكن قطته أو قطة الأسرة . ولا أمها أيضا . . قطة جائلة أقام ابنه الصغير معها علاقة صداقة وطيدة عن طريق « سلم الخدم » ، أو ذلك السلم الخلفى الذى يفضى اليه باب المطبخ والذى يدعونه سلم الخدم رغم أن واحدة ممن عملن فى منزله لم تطأه بقدمها على الاطلاق . . ربما بسبب اسمه . . !

هل كانت هذه القطة تحمل فى يدها أو بين ثنايا فرائها ساعة ! تحضر بالضبط فى موعد انتهاء غذائهم ، حين ينصرف كل الى شأنه . . هو وزوجته الى فراشهما ليقيلا بعض الوقت . . والبنتان فى محاولات لفك ألغاز الدروس . . والشغالة الى المطبخ لغسيل الصحون وطارق فى ذيلها ومعه الطبق الذى جمع فيه كل ما تبقى على المائدة من عظام وخلافه . . ودائما يجد القطة فى انتظاره . . قبل أن تمد فمها للطعام تظل تتمسح بأقدامه دقائق . . وكأنها تشكره مقدما . . ثم لا تنسى أن تفعل نفس الشىء بعد انتهائها منه . . ! !

شيئا فشيئا بدأت تدخل المنزل وتجول فيه بعض الوقت . . فى الفتها كانت تشبه قطط المنازل لا قطط الشوارع ، يوما بدت عليها ملامح لم تخف على الأب والأم . . هذه القطة حامل . . حذار حذار تركها تدخل المنزل هكذا دون رقابة خشية أن تضع حملها به . . وما أغنانا عن كل هذه القذارة . .

لكنهما كانا فى واد وطارق الصغير فى واد ، قال لهما سمعا وطاعة ودبر فى نفسه أمرا ، معذور من يشك فى سلامة طوية القطط . . بعد طول معاشرتها للآدميين الذى يمكرون وهم بعد فى هذه السن . . لا . . لم تكن ولادتها فى دلفة مكتبه صدفة أو أمرا خارجا عن ارادته كما ادعى . . أبدا . . والا فمن صنع تلك الحشية من القطن ووضعها هناك ؟ ، وصمم الأب على اخراجها مع صغارها فورا . . فلا طاقة له على تحمل رائحة كريهة أو أصوات مزعجة . . لكن الأم توسطت !

— حرام . . هى هنا بمأمن من الكلاب والزبالين وعبث الاطفال . . ولن

تكون هناك روائح أو أصوات الا بعد أسابيع تكون القطيطات الصغيرات قد شددن عودهن خلالها .

وقد كان . . ما ان بدأت القطط الصغيرة تتعلم الأكل حتى بدأ تسريحها . . رفقا بالأم رئى أن يتم ذلك تدريجيا ، وانتهى الأمر مع ثلاثة وجاء الدور على الأخيرة . . وفجأة وقع شىء غير التاريخ . . تاريخ هذه القطة الصغيرة المسكينة على الأقل . .

هل كان الذى حدث فى صالحها أو على العكس تماما ؟ . . لا أحد يستطيع أن يقطع بالضبط . . بدأ الأمر فى أوله أنه فى صالحها على طول الخط كيف لا وقد كانت نتيجته أمرا من القائد الأعلى للمنزل بعدم تسريح هذه القطة الأخيرة ، ولم يكن ذلك القرار بالشىء المدهش فى نظر زوجته وهى التى روضت نفسها منذ زمن طويلة على تحمله بفضائله ونقائضه أيضا . . وفى مقدمة هذه الأخيرة « النظافة » ! ! طبعا النظافة كعادة مجردة ليست نقيصة . . لكنها بالتأكيد تصبح كذلك اذا استلزمت كل تلك الطقوس التى يطبقها مراد وما كان أصدق أسلافنا عندما قالوا « أن كل شىء يزيد عن حده ينقلب الى ضده » صاح فى ذلك اليوم الخالد بالضبط كما صاح من قبله سلفه أرشميدس عندما اكتشف قاعدته المشهورة « وجدتها » ! ، وأسرعت اليه زوجته فى الحمام ـ تماما حيث كان أرشميدس ـ لينهى اليها البشرى السعيدة :

— هذه القطة صيادة بارعة . . منذ دقائق وهى تجرى خلف صرصور ظل يحاورها طويلا ويختفى منها خلف أنبوبة البوتاجاز لكنها ظلت تنتظره دون ملل ، لقد تركت حلاقة ذقنى لأرى النتيجة ما كاد يخرج مرة أخرى حتى عادت تتعقبه بحذق واصرار . . ثم ثم لم تهدأ حتى استقر داخل معدتها ، أتعرفين ؟ . . هذه هى الطريقة الوحيدة لابادة الصراصير من المنزل ما دمت تصرين على عدم استعمال المعاجين السامة خشية أن تصل اليها أيدى الأولاد ، أما الماء المغلى والشبشب وغيرهما فكما لمست بنفسك ـ لم تكن أمورا مجدية .

تحقق توقعه . . لم تمض أسابيع حتى انقرضت الصراصير من المنزل بالضبط كما انقرضت الديناصورات من العالم من قبل . . ، لم يعد أحد يلمح اطلاقا صرصارا أو حتى ظلا لصرصار . .

ومرت شهور . . استمتعت القطة فيها بالرعاية والتدليل من كل أفراد الأسرة . . وفى مقدمتهم مراد نفسه ، لكن حاميها الأول انقلب عليها يوما حتى أنه أصدر أمره بطردها فورا . . غير قابل فى ذلك الأمر أى مناقشة ، لم يكن ذلك لأن الصراصير انتهت فانتهت معها مهمتها وحيثيات بقائها . . تماما كما فعل

سنمار من قبل . . لا . . لم يكن مراد « سنماريا » الى هذه الدرجة ، فاحقاقا للحق أنه بعد اختفاء الصراصير ظل - لفترة طويلة - ذاكرا فضلها مسبحا بحمدها ولكن . . كل هذا شيء . . وطلوعها فوق مائدة الطعام شيء اخر . . !

بسبب التدليل الشديد من أفراد الأسرة كلهم عامة وطارق على وجه الخصوص . . أصبحت تسبقهم الى المائدة كلما أعدت . . حيث يجدونها هناك بجوار الأطباق والملاعق والأكواب . . وكأنها بيلوه جميل يزين المائدة . . كانت هذه وجهة نظر طارق . . أما داعية النظافة الأول فى العالم فكان له رأى اخر ، ما يكاد يراها على المائدة حتى يصيح بابنه « انزلها » لكنها فى سرعة البرق كانت تعود الى مكانها السابق . . حتى ضاق بها ذرعا . . وفى أحد ايام بلغ ضيقه منتهاه فصرخ :

— هذا شيء لم يعد يطاق . . هذه قذارة لا يمكن السكوت عليها . . تسير وأقدامها حافية على الأرض بما فى ذلك المطبخ ودورات المياه . . ثم بعد ذلك تدوس فوق المائدة التى نضع عليها الملاعق والشوك . . . وأحيانا الخبز . . ؟ !

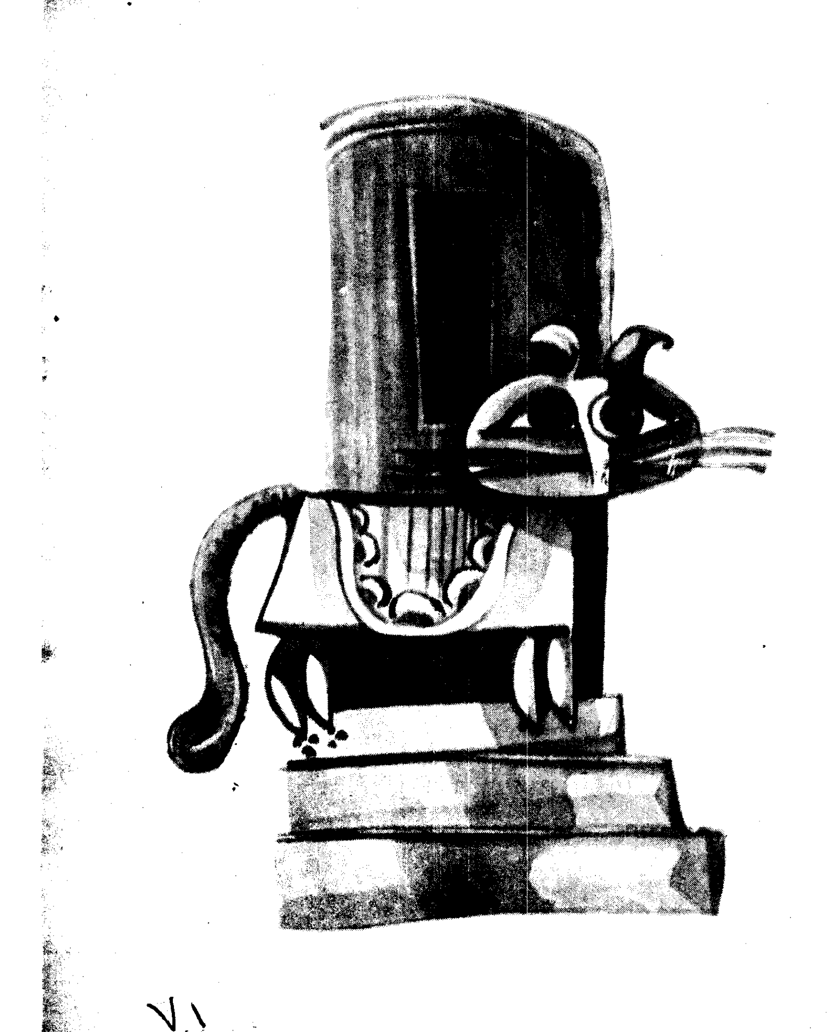
قال طارق : - واذن فهل تريد أن نلبسها حذاء من أربع فردات حتى تخلعه قبل صعودها الى المائدة ؟ . . ولكن . . أين عسانا نجد هذا الحذاء البالغ الصغر حتى يناسب مقاسها ؟ !

— أشتم فى كلامك رائحة التهكم . .

— انك تسيء الظن . . لماذا لا تكون رائحة براءة الأطفال التى يقولون عنها ؟ . .

— عموما فلتسخر كما تشاء ولكن . . لتضع فى حسبانك أننى لا أريد رؤية هذه القطة فى المنزل بعد اليوم . . !

بدأ طارق يتراجع ويغير من لهجته ليشتم الأب منها روائح الملاينة والتوسل والتألم على التوالى . . لكن الأب رفضها جميعا وأصر على فرمانه العالى ، ثم بعد مفاوضات عسيرة وافق على التنازل عن فكرة أخذها بالسيارة الى مكان بعيد ورضى بأن تأخذ مكان أمها القديم على السلم ، وكانت الأم قد تركت المنزل وسلمه بعد توطن ابنتها فيه الى حيث لا يعلم أحد . . وربما تكون قد ماتت ، المهم أن طارق اضطر أن ينفذ أمر والده . . أخرج القطة وأغلق من خلفها الباب . .



ولا يظن أحد أن خروج ادم من الجنة كان أقسى على نفسه من خروج تلك القطة من منزلها . . فشتان بين الحب والدفء والنظافة وتوفر الطعام والشراب فى المنزل . . وبين الحياة خارجه حيث توقع الغدر والاعتداء فى أية لحظة . . ومن أى مخلوق . . ومعاناة البحث عن القوت . . وافتقاد اليد الحانية التى تمسح شعرها . . وبرد بلاط السلم وهى التى ما كانت تقبل النوم على السجاجيد - ولا ترضى بغير البطاطين الوثيرة على السرير بديلا ، هذا عدا حب القطط الغريزى لمكان نشأتها . . حتى أن علماء الحيوان أطلقوا على فصيلتها لقب عاشقة المكان ! لذلك لم يكن طارق مخطئا حين صارح أباه :

— ليتنا أخرجناها وهى صغيرة مثل اخوتها . . لكننا أضررنا بها أشد الضرر عندما عودناها رفاهية العيش . . ثم أخرجناها بمنتهى القسوة .

على عكس ما توقع لم يغضب الأب . . نظر الى زوجته ضاحكا :

— لم يأخذ منى شيئا . . أخذ منك أنت كل شىء . . حتى فلسفتك . .

طبعا القطة لم تستسلم بسهولة . . أياما وأسابيع وهى تموء باحتجاج وتعالج عقب باب الجنة - الموصد دون وجهها - بأظافرها بلا يأس . . عبثا ، لكنها بعد ذلك . . وشيئا فشيئا استسلمت للأمر الواقع . . ، أصبحت تقضى نهارها فى التجوال ثم تأتى فقط لبعض الساعة كل يوم . . فى موعد الغذاء . . وهكذا أعاد التاريخ نفسه . .

بعد شهور رأى مراد ابنه يحمل القطة وهو يبكى - وكان بكاؤه قد انقطع بعد ايام الأولى - غضب وصاح فيه :

— كيف تحملها الى صدرك هكذا ؟ . . لم تعد الآن نظيفة بعد أن . .

قاطعه طارق صارخا من بين دموعه : - انها مصابة . .

ووضعها على الأرض فاذا هى تعرج وهى تسير بصعوبة شديدة ، ومباشرة انفثأ غضب مراد ليحل محله حنو غريب وهو يمسك بيد القطة المصابة برفق ثم يقرر :

— من المؤكد أن بها كسرا . .

— صاح طارق : - ولكن . . ما سببه ؟ .

هز مراد رأسه : - من يدرى . . ربما خبطتها سيارة . . أو دراجة . . أو قذفها طفل بحجر ، وربما انصفق عليها باب . . أو أى شىء من هذا القبيل .

للحال بدأت أوامره تنهال كقذائف مدفع سريع الطلقات :

— خذها الى الشرفة القبلية وضعها فى الشمس . . حيث الدفء مفيد

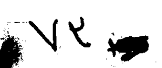
للكسور . . احضر لها بعض الطعام . . وأيضا اناء به قليل من الماء حتى لا تتكبد السير على يدها المكسورة ، أهم شىء لابد أن يحوى غذاؤها شيئا من اللبن فهو يساعد على سرعة التئام الكسر . . الخ الخ .

أسرع طارق يقبل والده الذى أبدى دهشته :

— وهل كنت تتوقع منى أن أخرجها للشارع وهى على هذا الحال . . لا تستطيع الدفاع عن نفسها أمام أى عدوان . . ؟ ان قانون الشارع يشبه قانون الغابة . . البقاء للأقوى . . !

استمرت تلك العناية عدة أسابيع . . ثم كان لابد مع كل هذا الاهتمام أن تشفى لتستأنف كافة أنشطتها . . بما فيها القفز . . ليس القفز فوق السدود ولكن فوق المائدة . . ! وفشلت كل محاولات طارق ووالدته وشقيقتيه فى حملها على الاقلاع عن تلك العادة . . وكان ذلك أمرا غريبا . . كيف لم تدرك رغم ذكائها الخارق أن قفزها هذا غير مرغوب فيه ؟ ، فعلا كان ذكاؤها مدهشا . . أو على حد تعبير الأم :

— انها توشك أن تتكلم . . ! ، وهذا هو الشىء الوحيد الذى ينقصها عن الآدميين . . لقد عرفت صوت شحذ السكين . . ولما كنت غالبا لا أشحذ السكاكين إلا من أجل تقطيع اللحوم فاننى لا أكاد أبدأ بشحذ سكين - حتى ولو كنت أنوى تقشير البطاطس - حتى تحضر بوسى من اخر المنزل . . مثل ذلك يحدث أيضا عندما أفتح فرن البوتاجاز فتصدر مفصلاته صريرا معينا . . وتعرفون أننى تعودت وضع اللحم عند اخراجه من الفريزر فى الفرن وهو مطفأ حتى يذوب ثلجه . إذ أخشى وضعه على المنضدة أو فى النملية - وما أسهل فتح بابها - خوفا منها ، أكثر من ذلك كنت أدهش لنومها فوق التليفزيون فى الشتاء . . حتى وضعت يدى عليه يوما بعد أن أدرته لاكتشف أن سطحه قد سخن وسألت نفسى « هل من أجل ذلك ؟ » وراقبتها . . فلم أجدها تصعد الا عندما نديره . . ولا تقربه أبدا وهو مطفأ ، من أين تعرف أنه قد أدير ؟ . . وهل عن طريق الصوت تسمعه . . أو الصورة والضوء تراه ؟ ، ثم من أين لها أن تعلم أنه بمجرد ادارته سيسخن ؟ . . طبعا عن طريق التجربة . . لكن هذا يستلزم ذكاء حادا ، أيضا عندما تجذب طرف ردائى ثم تجرى تسبقنى الى الباب عندما تريد الخروج لقضاء حاجة . . أما الذى لم أكن لأصدقه لولا تكراره . . فهو عدوها الى النافذة وقفزها عليها عند سماع كلاكس سيارتنا حين يطلقه مراد اذا أراد شيئا أو أحدا يحمل مشترياته ، وغير ذلك امارات عديدة تدل على أنها تفهم كل



شيء . . كل شيء عدا ضيقنا بصعودها على المائدة . . !

وكان لابد مما ليس منه بد . . أخرجت من المنزل مرة أخرى لتعود بعد أقل من شهر بكسر جديد فى ساقها . . ! ، الأمر الذى دعا مراد لأن يتساءل . . هل عرضت نفسها للاصابة متعمدة كى ترجع الى المنزل . . أم كان ذلك مصادفة ؟ . . انها لتكون مصادفة غريبة . . التعمد أيضا غريب . . خارقة الذكاء نعم . . ولكن . . هل يصل ذكاؤها الى هذا ؟ . . الى معرفة القوانين التى تحكم تصرفات البشر . . ؟ . . « اذا أردت الحصول على شيء فلابد أن تتنازل فى مقابله عن شيء » .

يسود هذا القانون كافة المستويات بدءا من أعلاها . . كما يحدث عندما يريد بلد ما أن يسترد سيادته وكرامته وعزته فلابد أن يتنازل عن رفاهيته وكمالياته بل وبعض الضروريات . . وأيضا عن أرواح عديد من خيرة أبنائه الأبرار ، وحتى أدنى المستويات . . عندما يريد رجل امرأة لعوبا مغرية فانه يتنازل مقابل استمتاعه بها عن شرفه وطهارته ونوازع دينه . . وقد تكون من بيئة منحطة فيتنازل أيضا عن كبريائه وكرامته وعزة نفسه . . فاذا كان زوجا فانه يتنازل كذلك عن أمانته وضميره ، وهناك عشرات ومئات الأمثلة التى تملأ البون الشاسع بين هذين المثلين .

وعاد يمسح شعرها الناعم . . وهى تنظر اليه والسعادة ملء عينيها . . وما زال السؤال يدور داخل رأسه . . يدور رغم تأكده التام أنه سؤال سيظل أبدا . . بدون جواب .

أغلب النساء يفعلن هذا !



قالت وهى تضغط على كلماتها :

— وأنا اعاون ابنتى رجاء فى انجاز واجبها المدرسى وجدت فصلا كاملا فى كتاب الدين عن الخطأ والاعتذار عنه . . فيه الى جانب الاحاديث الشريفة اراء لكبار الفلاسفة . . وكلها تدور حول حتمية اعتذار المخطىء للشخص الذى أخطأ فى حقه . .

لم يعلق مصطفى . . بل حتى لم يبد عليه أى انفعال واستمر فى تناوله طعامه واحتارت منيرة . . هل غاب مرادها عن شقيقها . . أم أنه يتغابى ؟ وتعلقا بأمل الاحتمال الأول أردفت :

— جميل حقا أن تهتم المدارس بالتوعية الاخلاقية الى جانب المواد الدراسية فمن الخصال الحميدة فعلا الاعتراف بالخطأ وعدم المكابرة . .

رفت على شفتيه ابتسامة ساخرة :

— هل ترمين لشىء معين ؟

فجأة تبخر حماسها وشملها الارتباك :

— لا . . أبدا . . أقصد . . يعنى . .

— الاعتذار عن الخطأ مطلوب ومرغوب حقا الا إذا صاحبته شبهة تذلل أو خضوع ، عندما علمت بموضوعك هممت أن أصرخ فيك لشدة استنكارى لتصرفك . . وكنت سأصبح أول من يدعوك للاعتذار لزوجك لولا أنه سبقنى وصرح لك ـ أمامى ـ بأن حياتكما معا لم تعد ممكنة . . فمن جهته هو . . لم يعد راغبا فى العيش معك ، وخيرك بين أن تحضرى معى الى منزلى . . أو يترك هو المنزل ، لم يحاول أن يعتب عليك أو يشكوك لى وللأسرة . . أو أو . . أى طريقة تترك ولو بابا واحدا مفتوحا للتفاهم . . واذن فليس لاعتذارك سوى معنى واحد ـ فى تأويله وتأويل الناس هو التوسل اليه كى يعيدك للعيش معه . . أية كرامة تتبقى لك ؟ وماذا يقول الناس عنى ؟ . . لم استطع أن انفق على أختى ؟ !

— أوليس هناك احتمال لسبب اخر ؟ . . لماذا لا يكون السبب اعترافى بخطئى ورغبتى فى اصلاح هذا الخطأ ؟ . . لماذا لا يعنى ذلك حرصى على عدم حرمان الاولاد من أبيهم ؟

— هذا اذا افترضنا فى الناس حسن النية والعكس أحوط ، ثم الاولاد . . هل ينقصهم شىء . . سواء من مأكل أو ملبس عما كانوا فى بيت أبيهم . . ؟

— أبدا أبدا . . تبذل كل ما تستطيع . . وأنا لا أنكر فضلك . . لكن . .

— اسمعى . . خلاصة الكلام أننى لا أوافق ابدا على ان تذهبى اليه . . ولا أريد أن تفتحى هذا الموضوع بعد الآن على الاطلاق . . هل هذا مفهوم ؟

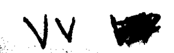
حسنا . . لن تفتح هذا الموضوع . . لكنها ابدا لم تكن مقتنعة بأسبابه التى ساقها ، لقد لامها الجميع على تصرفها عندما علموا بملابسات الموضوع حتى اعز صديقاتها وأقرب أقربائها . . قالوا انها بتصرفها هذا كانت تفكر وهى فى القاهرة . . وفى القرن العشرين . . نفس تفكير قاطنات أقصى كفور الصعيد فى

القرن التاسع عشر . . لماذا يلومونها على هذا وها هو شقيقها الحاصل على أعلى الشهادات يفكر هذا التفكير الرجعى المتزمت . . واضعا الكرامة . . أو قشورها . . فوق أية قيم أخرى ؟ مقتنعة هى تماما أنها أخطأت فى حق زوجها . . بل أن فعلتها كانت تتبدى لها مع مرور الأيام وامعان التفكير أكبر حجما وأكثر جسامة . . ومن ثم كان ما فعل بل وأكثر منه أمرا منطقيا مبررا كل التبرير . . ورد فعل طبيعيا متوقعا تماما . . حتى ان أى منصف كان لابد ملتمسا له الاعذار ، عرضته للسجن والاتهام والقيل والقال . . كم من اصدقاء رثوا له . . وكم من زملاء سخروا منه . . وكم من منافسين شمتوا فيه . . مع أنه للحق لم يكن يستحق منها هذا التصرف ابدا ، لقد عاشرته اثنى عشر عاما كان حريا فيها أن تتكشف لها كافة اخلاقياته وطباعه . . ما ظهر منها وما بطن . . لم يكن فى طبعه الخسة والغدر أبدا بأى انسان مهما بعد . . فهل يمكن أن يغدر بها هى . . ؟ ومع كل ما كان يظهره لها من محبة واخلاص واعزاز كانت تزيد مع الأيام . . ؟

لم يكن له قط سوى بيته وأولاده . . لكن الغدر . . لم سمى بهذا الأسم . . ؟ أليس لانه يأتى مفاجئا دون توقع مسبق ؟ . . مخطئة والف مخطئة . . المعدن الطيب لا يتغير أبدا . . والذهب يظل ذهبا حتى وهو فى النار . . ليخرج منها أكثر لمعانا وبهاء . . وفعلتها السخيفة لم يكن لها سوى معنى واحد . . أنها لا تثق به . . صفعة ولا شك . . لا يقبلها انسان كريم قط . . المخجل أكثر أنها عندما تكشفت كان ذلك امام عدد كبير من اصدقائه وزملائه فى العمل ، ما الذى كان يمكن أن يحدث لو لم تقدهم الصدفة البحته للكشف عن السارق الحقيقى ؟ وتشعر كأن يدا باردة تعصر قلبها . . أكان يوضع فى السجن ويحكم عليه ظلما وعدوانا . . وتكون هى السبب ؟ !

أى درس قاس . . لكن كيف وأين ومتى تستفيد من هذا الدرس . . أما كان حريا به أن يمنحها فرصة أخرى ؟ . . لكنها هى لم تعتذر حتى يعرف انها ادركت خطأها وندمت عليه . . ولكن . . هل أعطاها الفرصة للاعتذار ؟ لو أنه فقط عتب بهدوء . . أو حتى بثورة . . ؟ يقولون إن العتاب دليل العشم . . فهل معنى تصرفه انه قطع العشم منها نهائيا ؟

تريد أن تذهب وتعتذر له . . فماذا يكون الحال لو أنه رفض حتى الاستماع اليها واغلق دونها بابه واذنيه وقلبه ؟ أو لم يفعلها يومها ؟ لكن الا يكون الجرح العميق قد التأم الآن قليلا ؟ أن المرأة فى مصر فى ظل القوانين الحالية ـ ضعيفة مظلومة . . الطبيعة تزود الحيوانات وحتى الحشرات . . الضعيفة

بسلاح . . من أى نوع . . يحميها من بطش الاقوى . . فهل كثير على المرأة أن تبحث لنفسها عن سلاح ؟ عادت للخطأ . . فها هى تفكر بمنطق الغابة والبقاء للأقوى . . والاسلحة المضادة التى يلتمسها كل من الزوجين فى مواجهة الآخر . . وليس جنبا الى جنب مع الآخر فى مواجهة ضغوط الحياة وتحدياتها . .

رغم قسوة تصرفه فانها لم تحمل له ضغينة . . عذرته عندما قدرت ظروفه واحاسيسه . . لماذا لا يقدر ظروفها هى أيضا ويلتمس لها العذر ؟

سمع طبعا عن زوجات كثيرات لاقين ظروفا صعبة . . بل أنه سمع عن مأساة عمتها . . لكن كرامته تأبى الا أن تغلق عينيه وتصم أذنيه عن كل عذر أو ظرف . . وتقع هى بين كرامة زوجها وكرامة شقيقها كأنها بين المطرقة والسندان . . !

لو أنها فقط استطاعت ان تحدثه ؟ تعرفه الى أى حد ندمت ؟ لكن من ادراها أنه لا يعذرها ؟ . . يا له من تساؤل . . ان ذلك يبدو بوضوح . . والا فما معنى بقائه بعيدا أكثر من ثلاثة شهور ؟ لو أنه قدر ظروفها لسعى لعودتها إلى منزلها . . ولكن . . لو أنه أصبح غير راغب فيها حقا كما قال شقيقها فلماذا لم يرسل إليها بقسيمة الطلاق ؟ . . أليس معنى ذلك أنه يترك الباب مفتوحا ؟ الا اذا كان يريد بذلك ان يعذبها أكثر . . أن يعلقها كما البيت الوقف على حد ما يقولون ! !

كاد رأسها ينفجر لكثرة ما أدارت فيه من احتمالات . . لا تستحق كل ذلك . . كانت حسنة النية عندما راحت تدخر هذه النقود . . لم تتوقف لحظة لتفكر فيما قد يعنيه ذلك بالنسبة لزوجها . . كان كل ما يعنيها ان تجنب اولادها ما قاساه أولاد كثيرون . . منهم أولاد عمتها . . لم يكن زوج العمة معوج السلوك لكن الغانية اللعوب عرفت كيف تدير عقله . . بل أن تسلبه اياه تماما حتى لم يعد يبدو للعقل أى أثر فى كل ما أصبح يبدو منه من تصرفات رعناء ، لم يكتف بالزواج منها رغم ضعة أصلها . . بل أنه طلق زوجته وشرد أولاده . . ورفض حتى أن ينفق عليهم مليما . . وهكذا لاقت عمتها فى تربية أولادها الامرين ، أكثر من مرة رددت أمامها العمة حكايتها تلك . . وبعدها تردف « كان هذا جزاء اخلاصى له . . كانت اموال تجارته كلها بين يدى لا يعرف عنها شيئا . . لكننى كنت احافظ له عليها . . بعد ذلك ندمت . . لو اننى استطعت اقتطاع جزء صغير من كل صفقة . . لما عانيت فى تربية أولادى كل ما عنيت »

كانت تلك الاحاديث من أعوام بعيدة . . وهى بعد طفلة . . حتى أنها نسيتها تقريبا . . لكن يبدو أنها ظلت مترسبة فى أعماق اللاشعور . . ذلك أنها



راحت كلما وجدت الى ذلك سبيلا ـ راحت تدخر من خلف ظهر زوجها بعض الجنيهات القليلة . . لم يكن ذلك أمرا مرتبا أو حسب خطة موضوعة بناء على تعليمات عمتها . . اطلاقا . . هذه الحكايات القديمة كادت تضيع فى زوايا النسيان ، لكن هذا الادخار كان شيئا تلقائيا عفويا . . كمن يهش ذبابة حطت على أنفه . . أو كمن يضع يده على عينيه عندما يخرج من الظلام الى ضوء الشمس مرة واحدة دون أى تفكير . . وربما لو انها فكرت لقطعت باستحالة اقدام كمال على ما أقدم عليه زوج العمة ليس فقط لاستقامته وانتفاء أية شبهة لعلاقة نسائية غير شريفة ـ فان الأخير كان ايضا قبل دخول تلك الشيطانة حياتهم مثال الاستقامة والسمعة النظيفة ـ لكن الاستبعاد لانه كان هناك فارق كبير فى علاقة كل من الاثنين بأسرته . . كانت علاقة زوج العمة بها وبأولاده منها علاقة رسمية بحته . . داخل اطار الواجب . أما علاقة كمال فكانت علاقة ود ورحمة . . ألفة وتفاهم . . حب وحنان . . يصادقها وأولاده ويعيش حياة كل واحد منهم . . لدرجة أنها لا تدرى الآن كيف استطاع رغم كل هذا الحب المعطاء السخى ان يتحمل بعدهم عنه طوال تلك الفترة ؟ !

لم تكن تعيش معه فى توجس أو قلق ابدا ، رغم ذلك كانت تخفى عنه ما تدخره دون أن تجد فى ذلك أى تعارض مع ثقتها به واطمئنانها الى حبه . . ربما كان عقلها الباطن الذى تأثر بقصة العمة هو الذى كان يحركها فى ذلك الاتجاه . .

حتى كان اليوم الأغبر . . كان أغبر بكل المقاييس . . حتى حالة الطقس . . انقلبت بعد أسبوع صحو إلى جو خماسينى عاصف . . مترب بلغ من شدته ان اسقط بعض الأشجار . . ومثل غيرها . . اغلقت منيرة النوافذ جيدا حتى لا يدخل الغبار . . لكن العاصفة بأكملها انتقلت الى داخل منزلها . . من الباب . . اشد وأعتى مما كانت بالخارج . . واقتلعت ايضا بعض الاشجار . . رغم أنها كانت متينة الجذور . . مورقة الفروع ، فى ذلك اليوم اكتشف مدير الشركة عجزا كبيرا فى عهدة كمال . . اصابع الاتهام كلها كانت تشير اليه . . حتى اضطر المدير أن يبلغ الشرطة التى استصدرت امرا من النيابة بتفتيش منزله . . وبكل ثقة البرىء جاء معهم . . قبل التفتيش سأله ضابط المباحث عن المكان الذى يضع فيه نقوده الخاصة فرد بهدوء :

— ليس عندى نقود خاصة . . فى هذا الغلاء تصبح نعمة كبيرة من الله ان يستطيع الموظف تلبية مطالب اسرته . .

بعد لحظات جاء الضابط وفى يده أكثر من ألف جنيه . . معلنا عثوره عليها

فى دولاب الحائط . . الذى يحوى خزين البيت من أرز وسكر وخلافه كانت النقود ملفوفة جيدا فى خرقة قديمة داخل علبة من الصفيح . . أخفيت بتعمد تحت العديد من قطع الصابون المعبأ فى كرتونته ، مكان لا يحتمل فيه أبدا وجود نقود . . تبادل رئيسه وزملاؤه النظرات . . نظرات ملؤها الشك . . لم تمض الا اسابيع على حضور كمال الى رئيسه طالبا سلفية من الشركة لتغطية نفقات العيد . . لم يكن الدور عليه فى السلفة لكنه الح . . أقسم ان ليس فى بيته أكثر من جنيهات معدودة . . ! أصابه الذهول . . أصفر وجهه جدا . . لم يكن يفوقه صفرة سوى ابتسامات زملائه . . بكت منيرة وهى تقسم للحاضرين ان هذه نقودها . . ادخرتها عاما وراء عام . . وقال الضابط بحسم :

— سنرى . .

ثلاثة أيام مضت وهما يدوران داخل كل دقيقة فيها لا يعلمان ان كانا ما يزالان على قيد الحياة أم انتقلا الى رحمة الله . . حتى فادت المصادفة ضابط المباحث الى اكتشاف اللص الحقيقى . . مصادفة لم يكن أحد ليتوقعها قط . . تشبه فى سذاجتها ما يكتبه مؤلف ردىء فى احدى المسلسلات التليفزيونية البوليسية ، أجل مؤلف ردىء . . فلو كان مؤلفا قديرا متمكنا لجعل المصادفة أكثر حبكة واثارة . . لكنه القدر يترفق حينا ويقسو احيانا . . يلهم الكتاب ما يقتبسونه منه مرة ويقتبس هو منهم مرات ، فى ركن قصى داخل الخزانة يعثر الضابط على فص من الزفير الازرق الصغير . . ليتذكر انه رأى مثله فى زر قميص أحد الموظفين . . فلما بحث فى الكم الآخر وجد الزر بدون فص . . وو . . ولم يجد اللص مناصا من الاعتراف ، ما الذى جعل الفص يسقط فى هذه اللحظة وهذا المكان بالذات . . ربما عمل كمال الخير . . وربما نية منيرة الحسنة . . وربما ان الله لا يرضى بالظلم . . وربما ان الجريمة الكاملة ستظل حلما يراود البعض لكنها لن تتحقق ابدا . .

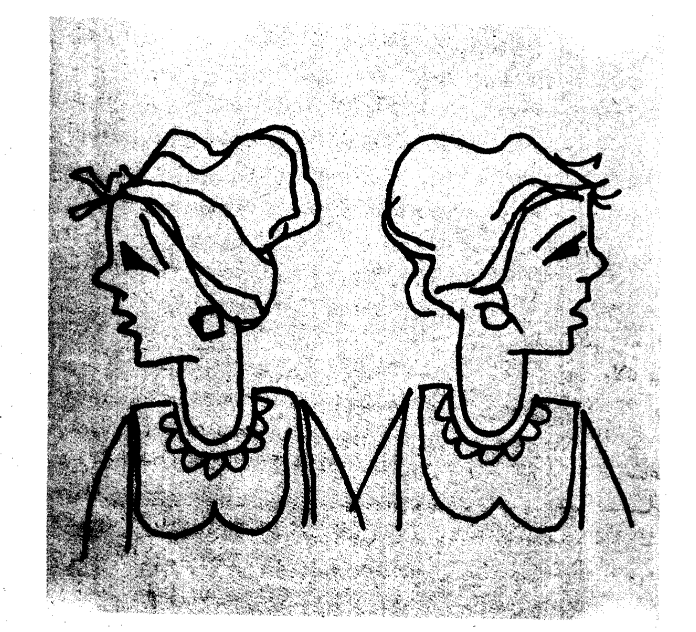
وربما وربما . . المهم ان الغمة انزاحت اخيرا وان للزوجين ان يلتقطا نفسيهما ، استدعى المدير كمال ليعتذر اليه . . لكن اه مما تبدى وقتها داخل عينيه من معان . . حقا اختفت منها نظرات الشك لكن لمة السخرية لم تكن اهون كثيرا على نفسه . . وعاد كمال الى المنزل ليقذف بكلماته فى وجهها :

— لن نعيش معا تحت سقف واحد : !

ولم تستطيع ان تنطق بكلمة واحدة . . بوغتت بما قال . . كانت تتوقع أن يسأل . . يعتب . . يستنكر . . يثور ، ورتبت فى نفسها ردودا لكل حالة . .

تحوى تبريراتها . . لكنها ابدا لم تتوقع أن تكون كلماته كما النصال يبتر بها الوشائج التى ربطتهما بأوثق رباط . . لذلك ارتج عليها ، ايضا ساعد على تدهور الموقف بينهما مصادفة وجود شقيقها الذى جاء يسأل عما جد من أخبار ، فخلف الباب المغلق على أى زوج وزوجته . . لا وجود لشىء أسمه الكرامة اطلاقا . . ولذلك فانها ـ الكرامة هذه ـ تنتهز فرصة وجود أى شخص مع الزوجين لتفلت من سجنها وتطفو فوق سطح الاحداث . . حتى تكاد تغطى على كل ما عداها . . وهذا ما حدث يومها . . جاءت كلمات كمال القاسية لزوجته امام شقيقها . . فكان حتما ان تغضب لكرامتها وكرامة شقيقها أيضا « فوق البيعة » . . ! وها هو الآن قد اصدر أوامره حتى بعدم الحديث فى هذا الموضوع مرة أخرى ! انه لم يتزوج وبالطبع لم ينجب . . ولذلك فهو اخر من يقدر قيمة وجود المرأة فى بيتها . . والاولاد فى بيت أبيهم . . نعم . . ماذا يعرف هو عن عذاب الشخص عندما يكون فى غير فراشه . . أو عندما يكون فراشه فى غير بيته . . ؟ كما النبات عندما ينقل الى غير أرضه . . يذوى . . يموت ، انها طبعا لا تتهمه بأنه يفضل بقاءها لديه حيث يعود من عمله فيجد كل شىء معدا . . لا محال . . ولكن . . ربما انه لا يهتم لعدم وجود منغصات . . ومن يدرى . . لو كان عنده اولاد وزوجة . . يضايقها وجود منيرة وأولادها لديهم لربما تنازل قليلا عن ولائه لمولاته حضرة صاحبة الجلالة « الكرامة » ! لقد سألها : « ماذا ينقص الاولاد . . وماذا ينقصك ؟ » باستثناء الطعام والشراب والنوم . . ينقصها كل شىء . . كل شىء ! لكنه لا يحس بها . . وكيف يستطيع وهو لا يراها أكثر من نصف ساعة فى اليوم . . على مائدة الغذاء . . بعدها ينام . . ثم يستيقظ ليذهب الى القهوة . . فلا يعود الا قرب منتصف الليل . . ليجدها نائمة ، تظل تشاهد برامج التليفزيون ـ مهما كان ما يقدمه ـ فى دفع تروس الانتظار لشىء لن يجىء . . حتى يعزف السلام . . فتأوى لفراشها .

يوما انقطع التيار وخيم على الشقة ظلام حالك . . عدا الشرفة . . فقد كانت الليلة مقمرة . . ماذا يفعل القمر للناس أو فى الناس ؟ شاهدت بعض افلام يتحول فيها انسان الى وحش مجرم فى الليالى المقمرة . . على العكس شعرت هى بروحها تشف ومشاعرها ترهف . . وتذكرت كمال . . ملأها الحنين اليه . . والى جلستهما معا فى الشرفة كل يوم بعد أن ينام الاولاد . . يتكلمان أى كلام . . فى أى أمور من أمور حياتهما المشتركة بكل ما تحوى من تفصيلات صغيرة . . حديثه كان يمتعها ويشجيها ، كأنها تنصت لسيمفونية . . أو ترنيمة كانت تظنها ابدية . . ستظل الى نهاية الحياة ، منذ تركت منزله أصبحت تشعر



بالوحدة . . حتى وهى بين الناس . . من اقارب ومعارف ولو تعدوا العشرات . . !

وتذكرت فى تلك اللحظة جارتها احسان . . اكثرت من التردد عليها بعد وفاة زوجها . . مواسية ، استنكرت منها ذهولها وانهيارها البالغين وطالبتها بالتماسك ، وكان رد الجارة « عندما يكون التفاهم والانسجام تاما . . عندما تصبح الاهداف والميول والاهتمامات واحدة . . عندما يكون قلب كل من الزوجين على الآخر . . تتداخل خيوط حياتها كما خيوط الطول والعرض لتكون نسيجا متينا . . فاذا انسحبت خيوط الطول كلها مرة واحدة . يصبح النسيج أو ما تبقى منه خيوطا مهلهلة . . كنا كذلك ثم اصبحت تلك الخيوط المهلهلة ، شهقت . . الآن فقط عذرت جارتها . . كانت محقة فى تعبيرها . . طوال غدوها ورواحها فى منزل شقيقها تحس كما لو كانت كيانا غير مكتمل . . !

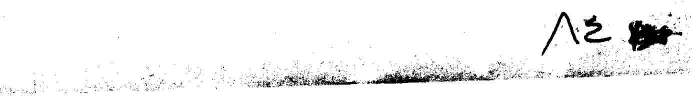
بالنسبة لجارتها هذا قضاء الله . . وهو لا يسأل عما يفعل . . لكن البشر يسألون . . وهى لماذا تعيش خيوطا ممزقة وزوجها موجود ؟ . . وكمال ايضا وهى تعرف جيدا مكانتها فى قلبه لماذا أرتضى أن يعيش هو الآخر خيوطا مفككة وزوجته على قيد الحياة ؟ ! العمر يمضى واللحظة التى تمر هيهات أن تعود . . وحرام ان يضيعا اجمل ايامهما فى عناد .

وتنبهت الى نفسها فجأة لتجد دموعها التى ظلت تسيل دون أن تحس ـ قد اغرقت وجهها حتى دخلت بعض القطرات فمها فلسعته مرارتها . . أول مرة تسيل دموعها . . تبكى منذ شهور لكنه كان بكاء داخليا غير منظور للآخرين . وهى تجفف دموعها كانت قد وصلت الى قرار . . تصرفه هو كان رد فعل لتصرفها . . أما فعلتها هى فكانت خطأ بينا لم يكن لها ابدا ما يبررها . . لذلك فان على عاتقها يقع عبء اصلاح ما فسد .

لا تدرى بالضبط هل نسيت تحذيرات شقيقها . . أم أنها تجاهلتها . . كل ما تدريه أنها وجدت نفسها أمام باب منزله . . لا . . منزلهما معا . . تضغط زر الجرس ، لم تكد تعرفه . . اصابه الذبول . . كأنه تقدم فى السن عشرة أعوام كاملة . . ارتج عليها فلم تستطع ان تنبس ببنت شفة . . حتى بعد أن استقرت فى مقعدها المواجه لمقعده فى غرفة المعيشة . . أما هو فوضع يديه على عينيه دقائق . . ثم رفعهما فبدت تحتهما الدموع . . ! فتح فمه . . لم يستطع أن ينطق بأكثر من جملة واحدة :

— لماذا يامنيرة ؟ ؟

— فهمت بعد ما حدث أنها كانت غلطة . . ندمت عليها كثيرا وقد جئت



اليوم لاعتذر لك . . حرك يديه بمرارة :

— لكن لماذا . . ؟ لماذا . . ؟ لماذا فعلت ذلك . . ؟ !

— كنت ادخر لمواجهة غدر الأيام .

— عندما يدخر الزوجان معا فهما يحتاطان ضد غدر الايام أما عندما تفعل الزوجة ذلك وحدها . . من خلف زوجها فهى إنما تحتاط ضد غدره هو ! ماذا ظهر لك منى خلال عشرتنا الطويلة حتى توسمت فى الغدر ؟ كدت تدخليننى السجن مظلوما . . وعندما حدثت المعجزة وظهرت براءتى أصبحت اضحوكة للزملاء . . شهور ومزحتهم المفضلة عن النقود المعطرة . . والصابون ذى المئذنة ! !

قالت بألم :

— ومن أجل ذلك اردت ان تعاقبنى ؟

— لست ادرى هل عاقبتك أم عاقبت نفسى ؟ يعلم الله كيف عشت هذه الشهور ، وربما كنت استحق هذا العقاب فعلا . . فرغم حبى لك فشلت فى أن اعطيك الشعور بالامان . . والحقيقة اننى وقتها لم أفكر فى عقاب أحد . . لكنى رأيت أن شركتنا وان انجبت البنين . . عقمت فلم تنجب الثقة بى ولا الامان لك . . ان حياة يشعر فيها احد الطرفين بالتوجس والقلق . . وتوقع الغدر من شريكه فى أية لحظة لهى حياة فاشلة وشركة خاسرة ليس هناك من داع اطلاقا ان تستمر . .

هتفت باستنكار :

— لكن هذا كله غير صحيح . . بالمرة . . لم يكن اجرائى موجها اليك ابدا ، أغلب النساء فى قريتنا ـ وكثرتهن غير متعلمات ـ يفعلن هذا . . انها وصية غير مكتوبة ولا منطوقة . . لكنها ميراث الجدات للامهات والحفيدات . . تركة مثقلة بأوزار الاجداد الاقدمين ! أما عن شركتنا فأبدا لم تكن عقيما . . شعرت بحبك واعزازك . . وكيف يمكن الا أشعر بهما وقد غمرانى ؟ ! كما انى خبرت طباعك وتأكدت من نبل خلقك وطيب معدنك . . وعمرى اطلاقا ما توجست منك . . وانما كنت وما ازال ـ اثق بك ثقة بغير حدود . .



هتف :

— هل تعنين حقا ما تقولين ؟

رددت ودموعها تشترك معها فى تأكيد كلماتها :

— بل وأقسم عليه . والله على ما أقول شهيد .

وضمها اليه وهو يغمغم .

— اذن فقد أخطأت انا ايضا عندما لم استوضحك لتصرفك تبريرا . . منيرة فلنحاول يا منيرة أن ننسى خطأينا . . ونفتح صفحة جديدة . . وأرجو . . رغم كل ما حدث . . ان نستطيع .



أحلام العمر كله

ـ هأنذا يا افندى ..

لكن الافنـــدى لم يرد .. ولم يرفع رأســا .. بل ظل يحملق فى الاسم المكتوب على الكراسة التى فى يده ...

كان ذلك فى مدرســة نجع حمادى الثـانوية الخاصة للبنين .. عندما وقف مدرس العربى فى احد الفصــول بجسمه النحيل البالغ الطول .. يزيده طولا ذلك الطـــربوش الداكن .. رغم أن اللون لم يكن ينسجم ابدا مع وجهه الاسمر الذى لوحته الشمس حتى حولته الى لون البرونز الخـــام ، وعينيه الصفيرتين اللتين لم يكن يبدو لهما لون من خلف نظارته السميكة .. تلك التى ارتكزت على أنف ضخم قد تمدد وتمدد آخذا راحته حتى احتـــل مســـاحة ثلاثة أرباع وجهــه .. وتربع عليهـا .. ولم يترك لباقى تقاطيـــع وجهــه ـ ومعها ذلك العدد الوافر من النقر الصـغيرة التى تحكى قصـة مرض لعله الجديرى أصيب به حاملها ولم يعالج كما يجب ، والغضون الكبيرة التى تشى بعـدد الأعـوام الكثيرة التى سلخهـا صاحبها من عمر الزمن ـ سوى الربع الباقى .. وقف أمام تلاميذه ممسكا بين يديه اللتين نفرت عروقهما حتى ليمكن لمن يراهما أن يعد عروقهما ويعرف بالضبط خط سيرها واللتين تلوحان ـ وهما على هـــذا الحال نموذجا طيبا يستطيع طلبة الطب أن يدرســوا عليه بوضوح الدورة الدموية للأصـابع .. ممسكا كراســـــات الانشاء يوزعها عليهم بعد تصحيحها .. حتى وصـل الى احداها فقرأ الاسم بصوت عال :

ـ محمد السعيد محمود جلال .

وقام صاحب الاسم من مقعـده وتأهب لاســـتلام كراســته . لـكن الاســـــــتاذ لم يمد يده .. أضطر التلميـــذ أن ينبهه لوجوده لـكنه مع ذلك ظل ينظر الى الـكراسة وعلى وجهـه دلائل التفكير العميق .. أخيرا نظر الى تلميذه وهو يقول :

ــ اسمك هذا يذكرنى باسم آخر .. يشبه تماما فقط بالعكس .. محمود جلال محمد السعيد .
ــ لابد أن يكون والدى ..
ــ هل جدك كان اسمه على اسمك .
ــ كلا .. اسمى أنا الذى على اسم جدى .

حك الاستاذ ذقنه متفكرا ..
ــ وما المانع .. من الجائز فعلا أن يكون والدك ، هل كان والدك تلميذا فى مدرسة الانوار الثانوية ؟
ــ لا أعرف طبعا .. أعتقد اننى وقتها كنت صغيرا جدا ..
ــ حسنا .. هل تستطيع أن تذكر لى بالتفصيل أوصاف والدك ؟
ــ شاربه صغير و ...
ــ أى شارب يا ابنى .. هل يوجد تلاميــــــذ بالثانوى لهم شوارب ؟.. اسمع .. هل هو أبيض اللون ووجهه أحمر مثــل الانجليز .. يميل قوامه الى القصر ؟
ــ تماما .. تماما ..
ــ اذن لابد أن يكون هو محمود جلال.. ياسلام .. اننى اذكره جيدا رغم اننى درست للألوف .. لكن محمــود بالذات كان من النوابغ القليلين الذين لا أنساهم .. كنت أحبه كثـــيرا واعتبره مثل ابنى .. ليتــه يكون هو .. بودى أن أرى تلامذتى القدامى بعد أن كبروا وأصبحوا رجالا .. وأين والدك الآن ؟ ..
ــ مقيم معى .. فى البيت ..
ــ أقصد ماذا يعمل ؟
ــ مأمور المركز .
ــ مأمور المركز ؟ البك مأمور المركز ؟ انت ابن البك المأمور ؟ .. محمود جلال أصبح مأمورا ..؟ ياه .. اسمع يا محمد يا ابنى .. قل لأبيك على اسمى اذن بعد عودتك واسأله عما اذا كان .. هو تلميذى حقا .. وهل يذكرنى أم لا .. ؟

***

فى المنزل جلس عباس أفندى ســــاهما ويده على خده .. ودخلت عليه زوجتــه وهى جد مشــغولة .. أنه لم يــكد يذق الطعام على الغداء .. ان قلقهـــا عليه له أكثر من سبب ليس أهمها حنـــانها عليه .. تخشى أن يــكون مريضــا .. ولــكنه لم يــكن

يمرض .. لم يكن من حقه أن يمرض مثل باقى الناس .. حتى المرض كان محرما عليه .. فالايام التى يتغيبها عن المدرسة كانت تخصم منه مهما تكن الاسباب .. أصحاب المدارس لايرحمون .. لذا كان يتجاهل جميع أعراض الامراض التى كانت تبدو عليه ويتظاهر بأنه لا يراها .. أولاده أحوج لتلك القروش التى قد تقتطع منه .. لقد كان يخفى توعكه حتى عن زوجته .. فمنظرها وهى تفحصه بنظراتها القلقة حين تحس بأى تغيير فى نظام يومه قد يوحى بمرض ما .. يثير من الرثاء أكثر مما يثيره منظر المريض نفسه .. سألته

ــ ماذا بك .. هل أنت متعب .. ؟

ــ أبدا ... اننى أفكر .. تصورى يا بهية ان البك مأمور المركز كان تلميذى فى يوم من الايام ..

ــ كيف ذلك .. ؟ غير معقول .. انك لم تدرس طيلة حياتك فى غير المدارس الاهلية .

ــ وماذا فى ذلك .. هل غريب ان يصبح تلميذ بمدرسة أهلية مأمور مركز ؟

اقتنعت بعد تفكير يسير .. لقد كادت نظرتها للمدرسين بالمدارس الاهلية تنسحب على تلاميذ تلك المدارس أيضا .. والفرق بين المدرس الميرى والمدرس الاهلى كان فى تلك الايام لا يختلف كثيرا عن الفرق بين الريال الحقيقى والريال البرانى .. تنهدت وهى تخرج نفسها من التفكير فى حال المدرسين الاهليين لتعاود السؤال :

ــ هل أنت متأكد أن المأمور كان تلميذك فعلا ؟

قام يذرع الغرفة وهو يقول :

ــ حتى الآن لست متأكدا تماما .. لكن كل الدلائل تشير الى ذلك ــ وغدا صباحا سوف أعرف ..

ــ حسنا .. اذا كان المأمور تلميذك حقا فلماذا لا ت ....

قاطعها وهو يهز رأسه عدة مرات مؤكدا :

ــ هذا هو الأمر الذى أفكر فيه من ساعتها .. حقا لو كان المأمور هو نفسه تلميذ زمان .

سرح كل منهما بخياله متصورا أمله البعيد وقد تحقق .. أمل العمر ، بعدها انتقلت عدوى الانفعال الى السيدة بهية .. لم يعد

لها صبر للرد على اى من الأولاد.. لم تعد تطيق الجلوس طويلا فى مكان واحد .. لم تجد لها شهية على العشاء .. لا للأكل ولا للحديث مع زوجها .. لقد بدا لهما أمل كبير هذه المرة بحيث لا يحتمل مجرد الشك فى تحقيق تلك المعجزة .. اجل .. اصبح حصول ابنهما زكى على عمل معجزة ، بعد كل ذلك البحث المضنى طيلة عام ونصف .. لم يترك هو أو والده وسيلة فى وسعهما الا لجآ اليها .. لكن كل وسائلهم تلك كانت دون جدوى .. حيث لم يكن هناك فى ذلك الوقت سوى وسيلتين لا ثالث لهما يمكن أن تصيبا الهدف .. الرشوة أو الوساطة ولم يكن لعباس افندى استطاعة فى أيهما .. فهو لا يملك اكثر مما يقيم أود أولاده حتى آخر الشهر .. كل شهر .. من اين له اذن ما يدفع منه الرشوة الكبيرة التى لمح اليها أكثر من شخص ؟ .. كذلك لم تكن له معرفة بشخصية كبيرة يمكن أن يفتح اسمها امامه الابواب .. واذن .. فلا مفر أمام ابنه من الانضمام الى جيش العاطلين من حملة الشهادات .. ذلك الجيش الذى كان يتزايد كل يوم مكونا ازمة جديدة الى جانب الازمات الكثيرة الطاحنة التى خلفتها الحرب العالمية الثانية .. والتى لم تجد شيئا فى حلها تلك المقالات الكثيرة التى كانت تنشرها الصحف .. كان عباس افندى أول الامر يهتم بهذه المقالات اهتماما كبيرا ويقرأ كل سطر فيها حتى يئس من جدواها .

ومشاكل العاطلين جميعا كوم .. ومشكلة ابنه زكى كوم وحدها .. كان قد ظن يوم نجح ذلك الابن فى امتحان الدبلوم بمدرسة التجارة المتوسطة أنه قد حصل لأسرته كلها على التأمين المنشود .. وعلم الله لم يكن حصوله على تلك الشهادة امرا هينا أبدا .. بل كانت مرحلة تعليمية أكثر صعوبة من مضغ الزلط لم يكن زكى تلميذا متفوقا قط .. حتى ولا عاديا .. ولم تخل سنة واحدة طيلة دراسته من الملحق .. الذى أصبح عادة .. رغم الدروس اليومية التى كان يعطيها له .. عدا الدروس الاخرى التى كان يقوم بها بعض زملائه — كل فى مادته — مجاملة له ، وكأنما لم يكفى عباس أفندى الفكر الذى يلم به عند ظهور النتيجة المعتادة فكانت زوجته تزيده بتأنيبها :

— فرحتى بك يا أستاذ الجيل .. تنجح أولاد الناس ، ولا تفلح مع ابنك ..

وكأنه هو الذى رسب .. أو كأنه كان بوسعه ان يسقيه العلوم بالملعقة .. ليت ذلك كان ممكنا اذن لما تأخر .. حقا صدق من قال ان النار تخلف رمادا .. حتى سهل الله اخيرا وحصل على شهادة التجارة المتوسطة .. وقد اختار له والده هذا الاتجاه من التعليم ظنا منه أن الشركات بحاجة الى عدد وفير من خريجيه. وانه ما أن يحصل على تلك الشهادة حتى تتخاطفه الشركات ، لكنه .. مع الايام .. اكتشف أشياء وأشياء كانت خافية عنه .. ليس أهمها ان الشركات فى فترات الحروب تتجه الى توفير عدد من موظفيها لا الى تعيين موظفين جدد .. وان عدد الخريجين الذين يقدرون بالألوف جعل للوظائف الجديدة التى لا تتعدى العشرات سوقا أشبه بالبورصة .. كل يوم فى صعود .. بفضل سماسرتها الجشعين ، وكف عن تقديم الطلبات لكل شركة أو مصلحة بعد أن ظل عاما كاملا يبدو له فيه كل يوم أمل جديد سرعان ما ينتهى بانتهاء اليوم .

اصبحت مسألة حصول زكى على عمل اشبه بالحمى بالنسبة للأب والأم معا فالاسرة بجيش الاولاد الذى تضمه لا تعتمد من بعد مرتب عباس أفندى على شىء غير الله .. لا قطعة أرض ولا حصة فى منزل ولا أخوال ولا أعمام أغنياء .. أو حتى فقراء .. والمدرس الاهلى ليس لأسرته معاش من بعده .. صحيح أن الأعمار بيد الله وحده .. لكن عباس أفندى قد قارب السبعين واصبحت مسألة وفاته أو مرضه وعجزه عن العمل أشبه بالغمامة السوداء التى تظلل سماء الأسرة وتمنعها حتى من الاستمتاع بيومها الى أن يحل ذلك الغد الرهيب .. وانتظار البلاء أشد عناء من وقوعه .. لذلك انحصر أمل الأسرة فى حصول زكى على عمل يسندهم وقت الشدة .. لكن الأمل ظل يخبو تدريجيا حتى لم يعد يتبقى منه سوى شعاع ضئيل - تماما كبصر عباس أفندى الكليل - أبقاه لهم ايمانهم بالله وبقدرته على تحقيق كل شىء ..

ثمة أمر آخر .. أو مشكلة أخرى .. لم تكن شديدة الالحاح كالاولى لكنها اكثر مساسا لقلب عباس أفندى .. كان يحول عينيه فى أى اتجاه بعيدا كلما احضرت له ابنته دولت شيئا حتى لا تلتقيا بعينيها وفيهما ذلك التساؤل الواضح متى يا أبى .. منى .. متى .. ؟ يوما ثار عليها ورد بنظرة من عينيه كسؤالها ..

نظرة نارية وماذا أفعل ؟ ماذا فى يدى ؟ ماذا تتوقعين منى ؟ أن أسرق ؟ .. اختنقت نظراتها العاتبة خلف ستار من الدموع المنكسرة وكانها تقول له ولماذا انجبتنا ؟ تغيرت نظرته الى الاعتذار .. ذلك أمر الله .. استأنفت عيناها الحديث .. لست متعجلة .. فقط اخشى أن يمل هو .. فينسحب .. والبنات كثيرات ، أما بالنسبة لى فهى فرصة ربما لا تتكرر .. صدفة .. معرفته بنا كانت صدفة فريدة .. لست ابنة سيدة ذات مال ولا رجل صاحب نفوذ يمكن أن يجذبا الخطاب بدون معرفة .. كما اننى لا أخرج لينانى أو يعجب بى أحد . هل كانت عيناها بكل تلك القوة فى التعبير حتى لتقولا كل ذلك أم انها هواجسه هو ومخاوفه هو .. حيث أنه نفسه .. أحيانا .. عندما تتسع رقعة أحلامه حتى لتصل الى زواج زكى كان يتصور العروس ابنة رجل ليس ثريا ولكنه يملك على الاقل شيئا يتركه لاولاده من بعده ، رفع عينيه بابتهال الى السماء منهيا ذلك الحديث الصامت .. ربنا موجود يابنتى .. ربنا موجود ..

أجل ربنا موجود ومن غيره يمكن أن يؤمل فيه وهو لا يملك أن يضيف الى المائة جنيه التى دفعها العريس مائة قرش .. كى يجهزها انه لم يكن يستطيع أن يشترى الجهاز كله بالمائة جنيه فقط فعرسان تلك الايام لم يكونوا ليتقبلوا ذلك أبدا .. بل لابد من مبلغ يساوى المهر على الاقل ان لم يكن أضعافه ، لم يكن يستطيع أيضا أن يبدأ بشراء بعض لوازم الجهاز من مقدم الصداق حتى يحلها ربنا .. كما اقترحت زوجته .. له هو نظرة أبعد.. ربما لا يتمكن بعد ذلك من اتمامه لو طال المدى .. من أين يأتى وقتها للعريس بنقوده ؟ لابد اذن أن يكون المبلغ الذى سيسهم به هو موجودا قبل أن يتصرف فى مليم واحد من المهر .

الامل الوحيد كان أملا مركبا على أمل .. ربما يكون زكى شهما فيعمل لها ما يسمى بالجمعية بجزء من مرتبه .. وهل يمكن أن يعترض ؟ .. انها شقيقته وكم خدمته وكم لبس وأكل من صنع يديها .. هل يكون انانيا الى ذلك الحد ؟ .. أراد يوما أن يطمئن فأثار موضوع زواج دولت مع زكى .. فرك زكى كفيه ولم يرد ... غلت الدماء فى رأس عباس أفندى وكاد يثور على ابنه .. ألا يعد بشىء .. ؟ لكنه عاد وكبح جماح ثورته .. هل يتنازع على جلد الدب قبل صيده ؟ لتأخذ تلك المشكلة اذن أجازة مؤقتة ،

لكنها قطعتها وعادت ، حاول ان يسجنها فى اعماق النسيان ولكنها اكثر من مرة كانت تغافل حراسها وتطفو الى سطح التذكر كيف يمكن أن يتناساها وذلك السؤال الخالد يتجول ليل نهار داخل الشقة مع تجوال دولت النشيطة .. آه لو حلت المشكلة الاولى .. وظيفة زكى .. وظيفة لزكى .. يارب ..

كل تلك الخواطر ملأت ذهن عباس أفندى وقلبه وتفكيره .. بل انها كادت تملأ معدته حتى أن لقيمات قليلة أشبعته ثم عاد الى أفكاره .. هل يستعصى على مأمور المركز والحاكم العسكرى للبلد كلها بحكم القانون أن يجد عملا لزكى .. ؟ وهل تراه يبخل على مدرسه القديم بخدمة كهذه ؟ .. غير معقول طبعا .. الا ليته يكون هو تلميذه البعيد حقا ..

لم ينم عباس افندى من الليل الا اقله .. قام من سريره اكثر من عشر مرات لينظر فى ساعته .. أخيرا عنت له فكرة أفضل .. فتح شيش نافذته ونام قبالتها وعيناه مثبتتان عبرها كأنما يريد أن يجذب بهما أول تباشير الضوء ليبدد العتمة التى ما زالت باسطة عباءتها على الكون .. مستعجلا طلوع النهار .. وكأنه تلميذ ينتظر بلهفة نتيجة أخطر امتحان له .. لأول مرة ينقلب الوضع ويتعلق أمل مدرس فى كلمة ينطقها تلميذ .. بل لقد خيل اليه وهو يتلقى تحية الصباح من تلميذه انه لا ينتظر الرد على سؤال وانما ينتظر الحكم له أو عليه فى قضية ستقرر مصير حياته ، لكن التلميذ لم يكن يبدو عليه الاهتمام .. فجأة وجد الكرة تقترب منه فضربها بقدمه واندمج فى اللعب عدوا خلف الكرة .. وعباس أفندى يعدو خلفه بطول الفناء وعرضه :

— محمد .. محمد .. محمد .. سألت بابا عنى يا محمد ؟.. طلع هو تلميذى القديم يا محمد ؟ ..

***

دق الجرس فأنهى الطلبة اللعب والقى محمد الصغير نفسه فجأة أمام أستاذ العربى فانطلق مندفعا يقول :

— عملت الواجب كله يا افندى وحفظت المحفوظات صم و... وقاطعه عباس أفندى وهل سألت بابا ؟

وكاد قلب عباس أفندى ينخلع .. ثم هدأ ومحمد يردف :

— أقسم بالله العظيم ما سألته فى شيء .. وانما حللت التمارين كلها وحدى ..

وقال عباس افندى نافد الصبر .. سألته عنى ؟

وتذكر محمد اخيرا : آه .. صحيح .. تصور .. ظهر فعلا أن بابا هو نفس تلميذك الذى تحدثت عنه .. لقد تذكرك فورا حيث ذكر لى انك كنت المدرس الوحيد الذى يستقبل تلاميذه فى منزله، يبدو انه كان يحبك كثيرا .. فقد كانت السعادة تبدو واضحة على وجهه وهو يحكى كيف كان هو وعدد من زملائه دائمى التردد عليك وكيف كنت ترحب بهم كثيرا وتحدثهم فى موضوعات شتى خارج الدرس .. لقد ضحك وهو يوصينى أن أسألك هل تذكر الشيخ كباب ؟

الدنيا تدور بعباس افندى .. وعندما يتمالك نفسه يرد متأثرا :

ـ الشيخ كباب .. وهل أنسى هذه الحكاية طول عمرى .. ؟

ـ وما هى يا افندى حكاية الشيخ كباب هذه ؟

ـ ليس الآن وقتها يابنى .. ليس الآن .. الم يقل لك شيئا آخر .. ؟

ويرد بعدم مبالاة :

ـ نعم .. قال لى أبلغك أنه يريد أن يرى حضرتك ضرورى .. ويستحسن أن يكون ذلك اليوم ...

وغمغم المدرس : ـ اليوم ؟ اليوم ؟ سأرى ..

لم تكن اجندته حافلة بالمواعيد حتى يرجىء البت فى تحديد الزيارة ولكن كانت هناك أسباب أخرى ، ان بذلته البنية العتيقة لم تكن قد زارت المكوجى منذ أسابيع عديدة .. ليس فقط توفيرا لأجرة « الكواء » .. بل أيضا لأن الدنيا كانت ايامها شديدة الحرارة .. وتوضيح الصلة بين الحر وبين كواء البدلة يحتاج الى تفسير طويل .. « فالمكوجى » اللعين دائما يؤخرها عنده عدة أيام فى كل مرة فيضطر هو أن يرتدى البدلة الثانية الرصاصية اللون .. ولم يكن منظر الاخيرة بأكمامها المرتقة عند الكوع مما يليق بمدرس محترم .. ليست الاكمام فقط .. باقتها أيضا عملت فيها يد الرفاء .. لذا كان يضطر مرة أخرى.. الى ارتداء البالطو فوقها .. فاذا كان الجو باردا .. أو حتى حارا بدرجة محتملة فقد تبدو حجته فى ادعاء الكحة والزكام وارتداء البالطو حماية وخوفا من المضاعفات معقولة .. أما فى هذا الحر الشديد فستكون مكشوفة ، لذا كانت اجازات

بدلته من الكواء فى هـذه البلدة من الصعيد بجوها الحار أكثر من أجازت موظف مدلل .. وطربوشه .. كان فى حاجة الى الـكواء ودفنه لابد ان يحلقها وحداؤه ! و .. و .. لـكنه مع ذلك قرر أن يحاول .. أرسل الطربوش مع أحـد أبنائه وأوصاه بانتظـاره وذهب هو بنفسه بالبدلة .. قال للكواء باعتداد :

ـ وحياتك يا أسطى أريد هـذه البـذلة الآن فان ورائى موعدا .. موعدا مع البك مأمور المركز ..

لم يبد على الكواء أى اهتمام .. فهو شاب مستنير العقل يقرأ الجرائد ويعرف أن جميع الناس متساوون ابتداء من الخفير حتى الوزير .. انه لم يعاصر أيام الاحتلال التى عاشها عباس أفندى حين كان المواطنون ينظرون الى الحكام وكأنهم من طينة أخرى غير طينتهم .. وكان الحكام من جهتهم ـ بمعاملتهم المتغطرسة لهؤلاء المواطنين ـ يؤكدون تلك النظرة .. عباس أفندى لم يستطع أن يتخلص من ذلك الاحساس .. ما زال حتى تلك اللحظة يعيش بعقليتـه القديمة ، لذلك عندما لم ير من الكواء ما كان يتوقعه من دهشة وانبهـار ظن أنه لا يصـدقه .. عاد يقول وهو يضحك :

ـ أعتقـد أنك لا تصـدقنى .. لا تصـدق اننى على موعد لمقابلة البك المأمور ؟ .. معك حق .. اذن ماذا ستقول عندما أخبرك انه كان تلميذى فى يوم من الايام ؟

وكانت دهشة الـكواء للظروف الغريبة : مأمور بلدنا كان تلميذك؟ هنا فى نجع حمادى ؟

ـ كلا ... بل فى القاهرة .

اسم القاهرة بما لهـا فى نفس الكواء من رنين وبريق هو الذى اثار انتباهه أكثر من الموضوع كله .. كان قد سمع من بعض من اسعدهم الحظ بزيارتها حكايات وحكايات ..

كف عن العمل ليسأله بدهشة :

ـ كنت تعمل فى القاهرة ؟ .. اذن ماذا رماك هنا ؟

كم مرة تمنى ـ ربما أكثر من عدد شعر رأسه ـ لو كان مدرسا اميريا .. الا ستطيـع أن يحقق ذلك ولو فى الخيال .. الـكواء لا يعرف عن أنظمة التعلم شيئا وفى وسعه أن يأخذ حريته امامه.

ـ نقلت الى هنا ، الوزارة (وبتنحنح) وزارة المعارف تجـرى دواما بين مدرسيها حركة تنقلات .

وماذا كان فى وسعه أن يقول ؟ .. أكان لابد أن يذكر له انه اكتشف أن ما ينطبق على العبيد ينسحب ايضا على المدرسين الاهليين .. كلما كبروا فى السن قلت قيمتهم وقل الطلب عليهم ، بعد هذه الخدمة الطويلة أصبح أصحاب المدارس يفضلون المدرسين الشبان .. يستطيعون القيام بأى عدد من الحصص .. عدا أن مرتباتهم أقل ، رغم انه شخصيا لم يكن يدقق كثيرا فى مسألة المرتب حتى قرأ اعلانا نشره صاحب هذه المدرسة فى أعماق الصعيد فشد الرحال اليها ، انتبه على صوت الكواء يسأل بخبث :

ـ لكن ماذا فعلت حتى نقلوك هنا ؟

ويرتبك ..

ـ فعلت ؟ لا شيء طبعا .. دوسيهى ناصع البياض .. انها ليست أكثر من تنقلات دورية .. ثم .. أنا الذى طلبت النقل الى الصعيد بعد أن قال لى الاطباء ان جوه افضل لصحتى .. و .. وكان من حظى أن وجدت مأمور المركز هنا احد تلاميذى القدامى ..

وأردف قائلا :

ـ أى والله كان تلميذى وكنت انا أدرس له .. أقول له هذا صح وذاك غلط .. تصور ..

كان يتكلم بصوت عال حتى يسمعه كل القريبين من المحل والمارين بجواره ولكم ود ساعتها لو اجتمع أهل البلدة كلهم فى ميدان واحد ووقف هو أمامهم على منصة عالية ليعلن لهم تلك الحقيقة الساحرة .. خاصة لزملائه المدرسين وحضرة الناظر .. ولكن مهلا .. لابد أنهم سيعرفون فى يوم من الايام .. وان غدا لناظره قريب ...

كان يمر بفترة نادرة من فترات الرضا عن نفسه .. أجل ان حياته لم تضع هباء .. ومجهوداته فى تعليم التلاميذ أتت ثمارها والبك المأمور لو لم يتلق علومه وتوجيهاته لما نجح فى اللغة العربية وبالتالى حصل على شهادة اتمام الدراسة الثانوية .. ومن لم يحصل على الثانوية فانه بالطبع لا يستطيع الالتحاق بكلية الشرطة .. اذن فهو .. الشخص البسيط الذى لا يكاد يحس به الناس صاحب فضل على البك المأمور ولولاه ما أصبح مأمورا .. وغيره .. وغيره .. كثيرون .. لابد انهم أطباء الآن

وضباط وقضاة ومهندسون .. كانوا يوما تلاميذ جاهلين أتوا اليه لينهلوا من علمه ويتثقفوا على يديه .. وهو هو المدرس الاهلى المتواضع الذى لا يحظى بتقدير أحد .. صاحب الفضل على هؤلاء الذين يحظون بكل الاحترام والتقدير .. حسنا .. يكفيه هذا .. يكفيه جدا .. ويمد يده فى جيبه ليخرج بقية السيجارة ولأول مرة يشعلها مبتسما .. تعود أن يدخن السيجارة على حلقات .. وتعود أن يتحسر ويسخط فى كل مرة يضطر لاطفائها قبل أن يرضى مزاجه تماما .. لكنه ساعتها لم يشعر بالحسرة .. العقب أشبع مزاجه وزيادة .. كما لو كان قد دخن سيجارة كاملة ، لكنه يعود ويتذكر الحاجات المادية لأسرته والوظيفة المرجوة لابنه فيفيق من نشوته ويستحث المكوجى ...

ابتسمت له زوجته ابتسامة لم يرها منذ زمن طويل .. ربما منذ عام ونصف .. ولكن يبدو أن الحكاية كانت أكبر .. قالت له فجأة :

ـ هل تذكر يوم زواجنا يا عباس ؟ .. كنت آخر وجاهة .. ويتنهد .. أين منى الآن ما كنته فى ذلك اليوم .

وتتحمس الست بهية .. والله انت الخير والبركة على أى حال.

ربتت كتفه برقة وحنان حتى توقع أنها ستقبله .. لكنها لم تفعل .. اكتفت بالدعاء له :

ـ بالتوفيق ان شاء الله .

فى مكتب المأمور قالوا له انه مشغول فى لجنة عمد وان أمامه الشاويش النوبتجى يستطيع ان يحدثه فيما يريد ، لكنه يعرفهم انه لا يريد شيئا بل المأمور هو الذى يريده وهو الذى استدعاه ويختم حديثه بكبرياء :

ـ فقط قولوا له عباس افندى المتولى .. وهو سيعرف .

بعد انتهاء اللجنة يقوده عسكرى المراسلة الى غرفة المأمور ويمشى وقد ملأته الرهبة يقدم رجلا ويؤخر الثانية .. لكن المأمور يتلقاه بترحاب بالغ يمسح عنه بعض رهبته :

ـ أهلا أهلا عباس أفندى .. أهلا وسهلا .. تصور انك لم تتغير كثيرا خلال هذه السنوات الثلاثين التى مضت ؟ .. اننى سعيد جدا أن أراك ثانية يا أستاذى .. رؤيتك أعادت لى ذكريات كثيرة جميلة ..

لا يمكن أن يكون المـأمور قد فهم ما رد به عباس افندى .. اذ هو نفسه لم يتبين ماذا قال .. فقط لو جلس .. ربمـا استرد جاشـه .. لـكن المأمور ما زال واقفا يضغط بكلتا يديه على منكبيه الضامرين بود شديد ، ويحـاول أن يلم شتات نفسه والمـأمور يقدمه للموجودين بأنه كان أستاذه فى المدرسـة الثـانوية ، واليوم هو مدرس ابنى .. اى ان أفضـاله على الاسرة كبيرها وصغيرها ، ثم يقدم اليه الحاضرين عنـده وكلهم من الاعيان وكبـار التجـار والموظفين ، ورحب الجميع به وأخذوا يقدمون اليه السجائر .. بل والسيجار .. دخن عددا من السجائر .. الاولى مسرورا والاخيرة متحرجا ثم اضطر للاعتـذار عندما شعر بأنه يكاد يدوخ .. آه لو انه أخذ معه كل السجائر التى قدمت اليه .. لـكفته شهرا .. اسفا على ان الدخان لا يختزن .. كما تفعل الجمال بالطعام .. عموما الفرج اصبح قريبـا عليه فقط ان يطرح التردد ويحدث المـأمور فى مطلبه ..

لـكنه رغم شـدة تلهفه لم يستطع ان يفعل .. كان حتما أن يتحلى بالكياسة وينتظر اللحظـة المناسـبة ، غير انه ما يكاد يهيىء الفرصة حتى تفلت من بين أصابعه ، رغم طول الوقت الذى قضـاه فى مكتب المـأمور ، ساعتان مرا عليه هناك جاء ذكر طلبـه حتى طرف لسانه خلالها خمسين مرة وأقفل عليه فمه خمسين مرة أيضا .

انقضت أولى الساعتين فى عمل .. وكلما أعد نفسه لذكر مطلبه دخل وافد جديد .. هـذا مرشح أحد الاحزاب فى انتخابات مجلس النواب جاء يشكو من الفاظ ماسة وردت عنه فى منشورات خصـمه ويطلب مصادرتها .. بالاكثر خوفا من تعدى رجاله على رجال ذلك الخصم . وهذا مالك لعدة مئات من الأفدنة يشكو من تعنت مهندس الرى معه وتأخير حصوله على الميـاه رغم حلول الدور عليه .. ثم سكرتير النيابة يقـدم للمأمور طلبـا من البك الوكيل برغبته فى المرور على سجن المركز .. ويبـدو انه كان لذلك الطلب أهميـة كبرى عنـد المـأمور فاقت كل ما سـبقه فما يـكاد السكرتير ينصرف حتى يصـدر المـأمور عديدا من الاوامر لتنظيف السجن وتحسين ملابس المساجين و .. و .. وهـذا موظف فى دائرة البرنس يوسف كمال يبسط بعض مطالب الدائرة .. دخل بعـده الطبيب البيطرى يستنجد بالمـأمور ، فالوباء متفش بين المواشى

والاهالى يرفضون حقنها خوفا عليها وهو يطلب عددا من الجنود لمصاحبته حتى يحقنها بالقوة بعد أن فشلت كل دعايته فى اقناعهم بكذب الاشاعات التى اطلقت عن حقنه .. وهذا معاون البوليس يقدم للمأمور تقريرا يبدو أنه كان بالغ الخطورة والتى انعكست دلائلها على ملامح الرجلين .. وهذا مندوب شركة السكر يحدث المأمور بالفرنسية فلا يفهم عباس أفندى مطلبه .. ثم ضابط مباحث شاب بدا لعين عباس أفندى شديد الشبه بابنه الثانى سمير .. ذلك الشبه الذى أطلق لآماله العنان فحلق معها .. لم يع من حديث ذلك الضابط سوى بدايته عندما اندفع يبشر المأمور لدى دخوله انهم اخيرا قبضوا على ذلك المجرم العتيد الذى كانت وزارة الداخلية قد طلبت القبض عليه منذ ثلاثةأشهر .. قبل ان يخرج جاء طبيب الصحة يطلب ارسال قوة لاخلاء السكان من المنزل الذى اختاره للمستوصف الجديد .. والذى أجره له صاحبه ومع ذلك يرفض القيمون فيه الخروج رغم حكم المحكمة الصادر لصالحه .. وغيرهم كثيرون .. عمد وضباط وموظفون وأوراق تحمل أوامر تخرج واخرى تدخل لتوقع وان كان ذلك لا يتم الا بعد قراءة دقيقة ، وتليفونات عديدة تدق .. مسكين المأمور .. لم يكن يظن انه مرهق بالعمل الى هذه الدرجة .

بين كل زائر وآخر يتجه المأمور ببصره الى ضيفه ليرحب به :

ـ أهلا وسهلا عباس افندى .. آنستنا يا عباس أفندى .. كيف حال الصحة يا عباس أفندى .. هل انت مبسوط ؟ كيف حال أولادك ؟ ..

وقبل أن يرد عباس افندى يكون المأمور قد غرق حتى اذنيه فى عمل جديد .. الى ان دقت الساعة السابعة مساء .. وأعلن المأمور أن وقت العمل قد انتهى وأمر بعدم ادخال اى شخص له طلب الا اذا كان الأمر عاجلا جدا .. وجاء بعض كبار الموظفين ليصحبوا المأمور الى النادى كعادتهم كل مساء فاستمهلهم ساعة لأن عنده ضيفا عزيزا ، التفت حينئذ بكليته الى عباس أفندى .. هل تذكر يا عباس أفندى كذا .. هل تذكر يا عباس أفندى ذاك ؟

وانطلق عباس أفندى معه فى الذكريات محدثا الموجودين عن ذكاء المأمور وعبقريته وتفوقه أيام الدراسة .. أقسم لهم انه

كان دائما يتنبأ له بمستقبل عظيم يتفق وهـذا النبوغ المبكر .. وما حصـل عليه حتى اليوم ليس سـوى بداية السلم .. ولـكن قريبا جدا (وســأذكركم) سوف يعلو كرسى الوزارة .. ولا يلبث أن يقطع المسـافة بين المستقبل والمـاضى فى ثوان ليعود ويقص ويقص مما يذكره عن تلميذه القديم ...

اغلب هـذه الحكايات كانت حقيقة .. فالمـأمور كان فعلا متفوقا فى دراسته ... وان كان عباس افندى قد بالغ فيها بعض الشىء .. عـندما رأى رضـاء المـأمور وغبطتـه بهذه الروايات .. من أين له فى هذه السن بتلك الذاكرة العجيبة حتى أنه لم يكد يغفـل شيئا .. لم يستطع المـأمور أن يكتم تساؤله الموشى بالسرور :

ــ حتى حصولى على الثقافة والتوجيهية فى عام واحد لم تنسه ؟

لم يـكن عبـاس افنـدى يتميز بالذاكرة القوية وحسب ولـكن بقسط كبير من الذكاء ايضا .. أحس من تساؤل المـأمور انه يود لو افاض أكثر فى سرد ذلك الحديث فهو من مفاخره .. من الأشياء التى لا تحدث للـكثيرين كما قال المـأمور بتواضع (بل انها لم تحدث فى التاريخ لسواه) هكذا أكد عباس افندى متحمسا :

ــ ما يكاد الطــالب ــ أى طالب ــ ينجح فى امتحــانه حتى ينصرف للهو والمرح اما أنيذاكر طيلة الاجازة ثم يتقـدم للشهادة التالية فى امتحان الملحق من المنزل ويحصل عليها أيضا بنفس التفوق فتلك ــ والا فأى شىء آخر ــ المعجزة . ويستدرك :

ــ كان ذلك دأبه فى جميــع الاجازات على مدى الاعـوام التى درست له خلالها ، أكثر من مرة حضر الى خلال العطلة الصيفية ليسألنى فى بعض علوم السنة الدراسيـة التالية بعد أن يـكون قد اشترى جميـع كتبها .. بعدها لم يـكن غريبـا أن تكون الدراسة بالنسبة له كشرب كوب من الماء .. لا يهمه أن يضيع نصف الاسبوع فى التمرن على لعبة الكرة ..

أما عن براعته فى تلك اللعبـة فيتحدث غير محرج .. عن عدد المباريات التى كسبتها المدرسة خلال لعبه لها .. كان « الجول » لفريق المدرسة الذى حاز بطـولة مدارس القطـــر ولم يخسر مباراة واحدة طيـلة وجوده فيه ، ثم عرج على حكاية الشــيخ كباب عنـدما احتك فى أمر ما مع ناظر المدرسـة وصـاحبها ففصله بـكل بســاطة .. خاصـة وصـدر النـاظر كان موغرا ضـد

عباس افندى من قبل بسبب وشايات ما فتىء يدس بها احد زملائه .. لم يفطن عباس أفندى لسبب تلك الوشايات الا متأخرا .. بعد أن علم ان الاستاذ المعمم الذى حل محله هو شقيق ذلك الزميل الغادر .. لم يحب التلاميذ المدرس الجديد قط :

ـ وتزعم « البك » وفودهم التى كانت تذهب الى الناظر راجية عودة عباس أفندى لكن الناظر لم يعــر الرجاءات آذانا صاغية ، فما كان منه الا ان دبر للمدرس الجديد فصــلا لا يختلف عن روايات السينما .. اختبأ مع عدد من زملائه ليلا فى مكان مهجور يقع فى طريق عودة ذلك المدرس كل ليلة من المقهى الى منزله .. بعد أن تلفحوا بملاءات بيضاء وأمسكوا بأيديهم أسياخا من تلك التى يشوون عليها اللحم .. وما كادوا يلمحونه حتى احاطوا به وهم يدمدمون بكلمات غير مفهومة ويقفزون حوله قفزات شيطانية ملوحين بالاسياخ فى أيديهم . ظلوا على ذلك بضع دقائق والشيخ وصل به الذعر مداه .. سكتوا اخيرا ليتكلم (البك) فى صوت عميق مدو « أنت رجل شرير .. اخذت مكان انسان مظلوم لذا حكمنا بتقطيع جسمك اربا اربا .. وشيه على هذه الاسياخ لتقدمك فى وليمة كبرى للجان .. اذا .. اذا لم تستقل فى ظرف أسبوع » . وخاف الشيخ على لحمه .. أو على حياته فقــدم استقالته .. ولم يجد الناظر بدا من اعادتى .. رجعت معززا مكرما .. من يومها سمينا الشيخ المستقيل الشيخ كباب ..

عقارب الساعة تزحف وعباس افندى ما زال يروى والمأمور غارق فى السعادة .. الحاضرون مبهورون وهو ينتقل بهم بين فصول الدراسة وملاعب الكرة ومنزله وحجرة الناظر حتى وصل الى مواقف المأمور الوطنية عندما كان يتزعم المظاهرات الساخطة على الانجليز .. المنادية بالاستقلال التام .. حين لاحظ فتور المأمور ما زال يشجع ويؤيد ، بل واحيانا يعمل مع كل حركة المسئول غير التلميذ الصغير .. حتى عندما علم بعد ذلك ان المأمور ما زال يشجع ويؤيد ، بل واحيانا يعمل مع كل حركة تحررية تقوم فى البلد ضد المستغلين والمستعمرين ولكن سرا .. لم يغير رأيه .. اذن لم يكن هو فقط الذى اضطر بعد حادثة الشيخ كباب الى مهادنة اصحاب المدارس فى كل شىء والسكوت عما لا يعجبه منهم حتى انه رفض حضور الاجتماعات التى كان يعقدها شباب المدرسين للبحث فى مطالبهم ، بل انه لم يتأخر يوما

عن توقيع الاقرارات التى تقدم اليه والتى كانت تؤكد انه يعامل حسب اوامر الوزارة من حيث المرتب وخلافه .. رغم أنه لم يكن يقبض فى يده فعلا نصف ما كان يوقع عليه .. أجل لم يكن هو فقط الذى اضطر الى اغماض العين عن القذى .. فها هو ذا المأمور نفسه يضطر لاخفاء أعماله ومشاعره الوطنية بعد أن كان شعلة من الحماس ، ينادى بأعلى صوته بكل ما يؤمن به من مبادىء .. حفاظا على منصبه .. ما كان منه عندئذ الا أن يغير الموضوع سريعا.

ذكرته فكرة الحفاظ على المناصب بالعمل الذى يرجوه لابنه فبدأ يمهد لانهاء ما عنده من الذكريات حتى يحدث المأمور فى ذلك الموضوع .. عندما دق جرس التليفون مبلغا المأمور عن وقوع حادثة قتل فى احدى العزب التابعة للمركز ، فى الحال قام المأمور من مكانه وهو يوجه حديثه لمدرسه القديم :

— عن اذنك يا عباس أفندى .. دعنا نراك دائما .. اذا كان هناك شىء يضايقك أو كان لك أى طلب .. فقط قل لى عنه .. أنا طبعا مستعد لأى خدمة ..

لكنه لم يستطع أن يتكلم فالبكسفورد قد حضر أمام الباب والحجرة امتلأت بالضباط والمخبرين والمأمور يرتدى طربوشه فى عجلة ...

خرج عباس افندى يسير كالمحموم ، أحقا قابل المأمور ولم يحدثه فى مطلبه ؟ وهل كان يعدم المناسبة ؟ لاحت له أكثر من مناسبة.. بل كان فى استطاعته أن يخلقها لو لم تاح من تلقاء نفسها .. هل يا ترى ستتكرر الفرصة أمامه قريبا ؟ .. على أن أخشى ما كان يخشاه .. مقابلته لزوجته .. لدى دخوله ألفاها تجلس قرب النافذة فى حالة تحفز .. لم تترك له الفرصة لالقاء السلام ما كادت تلمحه داخلا حتى انهالت عليه بالاسئلة ..

— هيه .. هل قابلت المأمور ؟ .. هل حدثته ؟ .. وعدك ؟.. هل كان يبدو عليه أنه جاد فى وعده وينوى تنفيذه أو انه فقط كان يزحلقك .. ؟

بذل عدة محاولات لمقاطعتها حتى استطاع أخيرا أن يذكر لها انه لم يحدث المأمور قط فى تلك المسألة .. واذ بها تصمت قليلا كالمصعوقة ثم تنطلق هادرة :

— كيف ذلك .. هل جننت ؟ .. ما هذا الكلام — هل يوجد



انسان فى الدنيا يضيع مثل هذه الفرصة ؟

بالكاد استطاع اسكاتها : كان المأمور مشغولا جدا .. ثم اننى لم أجدها مناسبة ان اطلب منه خدمة فى أول مقابلة .. ماذا يقول الرجل عنى ؟

ـ وماذا كان عساه سيقول ؟ ثم .. فليقل اى شيء .. المهم كان الواجب ألا تضيع فى يدك فرصة كبيرة مثل تلك الفرصة .

ـ يا ستى لم تضع ولا أى شيء .. عندما أقابله فى المرة القادمة .

قاطعته وهى تكاد تبكى .. هل انت ضامن انك ستقابله مرة قادمة ؟

ـ طبعا .. انه هو بنفسه الذى أكد على .. قال لى بالحرف .. « دعنا نراك دائما .. »

ـ ربما كانت كلمة مجاملة ليس الا ..

ـ كلا .. كلا .. بل كانت من قلبه ، وسأمر عليه بعد بضعة أيام

ـ ولماذا تنتظر بضعة أيام أخرى .. ؟ لماذا بالله عليك ؟..

تشبه شخصا كان ابنه فوق كتفه فاذا به يضيعه ثم يدور بعدها يبحث عنه .. الا تفترض انه ربما شغل بعد ذلك فلا يجد لديه وقتا لمقابلتك ؟ الا تفترض انه ربما يسافر فى اجازة ... أو ينقل من هذا المركز نهائيا .. ؟ الا تفترض انك أنت ...

لكنها لم تكمل .. فذكر الموت غير مستحب .. حتى فى السبعين ، ثم لقد انتهى الامر فلتجعل كل همها من الآن أن تذكره وتؤكد عليه حين تأزف ساعة المقابلة الثانية ، لكن المقابلة الثانية تأخرت .. من سوء الحظ لم يحل أيامها عيد ولم تبد اى مناسبة ولو تافهة لذهاب عباس أفندى الى المركز وفى كل يوم يؤكد على تلميذه :

ـ سلم على والدك كثيرا ..

ثم يسأله فى الصباح التالى : هل أبلغت سلامى للبك المأمور ؟..

ـ نعم .. وهو بدوره يسلم عليك ...

وينتظر عباس افندى بقية الحديث ولكن محمد الصغير يسرع وراء الكرة اذا وقعت تلك المحادثة فى الفناء .. أو يفتح درجه ليخرج كتاب المطالعة اذا كان الحديث فى الفصل دون أن يزيد ..

ويمر أسبوع وتحت الحاح زوجته يذهب الى تلميذه القديم الذى يقابله بنفس الحفاوة :

ـ ما هذا .. أين انت يارجل ؟ .. اكانت زيارة واحدة وانتهى الأمر .. ؟

ويرد عباس افندى الذى كان قد صمم أن يحول اى حديث الى مطلبه العتيد :

ـ أنا تحت النظر يا سعادة البك .. فقط كنت مشغولا بعض الشيء فى مشكلة ..

ـ خير ان شاء الله ..

ـ ابنى زكى .. حصل على الشهادة منذ عام ونصف ومن يومها وأنا أبحث له عن عمل ..

ـ أين تريده أن يعمل .. ربما استطعت مساعدتك ..

وبدت الحيرة على وجه الاستاذ : ماذا تعنى بأين ؟ ..

ـ يعنى فى الحكومة أم تفضل له العمل فى الشركات ؟ ..

وكاد عباس افندى يبكى : أى شيء يابك .. أى شيء ..

ـ ما رأيك فى اننى أرجح كفة الشركات .. خاصة شركة السكر .. تدفع مرتبات لا بأس بها .. خذ هذه البطاقة ودعه يذهب بها غدا الى الشركة ..

هكذا بكل بساطة كتب المأمور توصية على بطاقته .. لم يحتج الامر الى تلك المحاضرة الطويلة التى كان عباس افندى قد أعدها فى ذهنه عن احتياجهم الشديد لتلك الوظيفة .. لكنه رغم ذلك قالها .. فطيب المأمور خاطره :

ـ هو فقط يقدم تلك البطاقة للمسئولين فى الشركة غدا وعلى الله التوفيق ...

فى اليوم الثانى ذهب زكى بالبطاقة الى شركة السكر وفى الاسبوع الثانى كان يجلس على أحد مكاتبها موظفا محترما .. بمرتب يقل قليلا عن مرتب والده الذى قاربت مدة خدمته فى التعليم نصف قرن .. لقد كاد الذهول يستولى على عباس افندى وزوجته حين جاءهما الخبر السعيد .. أو حين تحققت المعجزة التى كانوا قد يئسوا من تحقيقها أو كادوا .. بعد الذهول كانت الفرحة الكبرى .. وأى فرحة .. وأى سعادة بعد أن تخلصوا من حمل ثقيل كان يكاد يقصم ظهورهم .. ولم يعد الفد يبدو لهم وكأنه غول مفترس يفتح فمه تأهبا لأن يبتلع أولادهم .. لقد كان عباس افندى يضحك فى وجوه أولاده ، فاذا ما اداروا له ظهورهم ركبه

الهم من اجل مستقبلهم . الآن يستطيع ان يضحك فى وجوههم ومن خلف ظهورهم .. الآن يستطيع ان ينام طيلة الوقت الذى يمضيه ممددا فى فراشه بعد أن كان يقضى ثلاثة أرباعه فى التفكير ..

***

وجاء أول الشهر .. وكان يوما مشهودا .. اختلطت فيه المشاعر وتضاربت .. الفرحة كانت أقوى من القلق .. وطال انتظار الاسرة جميعها لزكى رغم انه حضر فى نفس موعده اليومى ، على المائدة تنقلت نظرات الأم اكثر من مرة بين وجه زكى وبين ذلك الجانب من صدره .. ناحية الجيب الداخلى .. لم يكن يبدو لها متورما بدرجة كافية تطمئنها . ترى هل أنفق زكى الكثير من مرتبه .. ؟

بعد الغداء اجتمع مجلس الاسرة الذى كان مكونا فيما مضى من الأب والأم ثم انضم اليه زكى الذى اصبح منذ ذلك اليوم الخالد زكى افندى .

بدأ عباس أفندى الحديث :

ــ كيف تقترح انفاق مرتبك يا زكى .. ؟

ــ انا لا اقترح .. بل انت تأمر يا أبى ...

ــ انت صاحب المرتب .. والمال مالك تتصرف فيه كما يحلو لك

ــ كيف تقول ذلك.. أنا كلى ملـكك يا أبى .. فكيف بمرتبى ..؟

وترقرقت دموع التأثر فى عينى عباس افندى .. على عكس جميع امتحاناته فى المدارس نجح زكى فى امتحان الحياة الاول .. بدون ملحق .. اظهر انه ابن حلال اثمرت فيه التربية وما تطلبته من مجهود وسهر .. وعرق .. رغم ذلك ابى واقسم الا يفرض على زكى شيئا .. أخيرا تكلم زكى على استحياء :

ــ يكفينى ربع المرتب .. لمصروفى الشخصى .. وها هو الباقى يا أمى ...

صاح عباس أفندى باستنكار : كلا يا زكى .. غير معقول أن أقبل .. هذا كثير ..

وتدخلت الأم : بل النصف من حقك يا زكى .. هذا عدل .. الربع الاول لمصروف يدك والثانى تدخره لمستقبلك .. سيأتى يوم تفكر فيه فى الزواج .. وطبعا لابد من مبلغ يضاف الى ميزانية البيت .. للتوسيع على الاسرة ولمواجهة الزيادة فى النفقات ايضا .

الاولاد يكبرون كل يوم ومطالبهم تزداد .. مع ذلك يكفينى ربع مرتب زكى (وقبلت يدها ظهرا لبطن) نعمــة ... أما الربع الاخير فهو لدولت .. للمساعدة فى جهازها .. وكما مد الله فى عمرى حتى رأيت هــذا اليوم السعيد .. يوم أصبح زكى موظفـا قد الدنيـــا .. أدعو الله أن يمد فيه وفى عمر عباس أفندى ايضا حتى نرى دولت فى ثوب الزفاف .. هيه ما رأيكما فى هذا التوزيع ؟ ..

بدا ارتياح الموافقة على وجه عباس افندى وقبل زكى يد والدته شاكرا ممتنا .. السعادة جعلت عباس أفندى يبدو كمن رجع فى السن عشرة اعوام الى الوراء ..

تحسنت صحته أيضا .. خفت كثيرا نوبات السعال التى كانت تلازمه .. امتلأ وجهه وزال الكثير من تجاعيده .. أصبح أقــوى بنية .. يتجلى هذا فى ضغطه على اليد عند المصافحة .. معنويات عباس أفندى هى الاخرى ارتفعت كثيرا .. امسى مرحا لطيفا ينطلق لسانه بالنكتة الرائقة .. خاصة فى مجلس المأمور الذى كان يزداد سرورا بزيارته .. يحس كلما رآه واستمع الى ذكرياته عن أيام تلمذته .. أيام صباه وشبابه .. أحلى أيام العمر لدى الجميع .. كأنه لا يزال يعيش تلك الايام ..

اما فى المدرســة فقــد كان مرحه أكثر انطلاقا ورنين ضحكاته أعلى صــوتا .. حيث لم يــكن هناك ذلك الجو الرسمى بما يفرضه من قيود لا سيما فى الفصول مع تلاميذه ، عامة وتلميـــذه المفضــل محمد خاصة ، دائما يذكر له أنه قد درس لوالده أولا ثم له .. ثم سيعلم ابنه من بعده ولن يرضى بأقل من ثلاثة أجيال من الاسرة تتلقى العلم على يديه .. فقط هو يطلب منه أن يسمى ابنه محمود جلال على اسم والده حتى يعرفه عندما يلتقى به فى أى مدرسة وأى بلد ولــكن محمد السعيد يرفض :

ــ كيف يــكون ذلك .. هل ستصبح سلسلة .. الا يــكفى أن اسمى أنا على اسم جدى ؟ .. سوف أطلق على ابنى أحد الاسماء الجديدة « المودرن » ..

وتعجب عباس افندى وتلاميذه المزحة فيعيــد طلبــه فى اليوم الثانى .. ثم يــكرر الحكاية بعد الحصة التالية وبعد كل حصة عربى لتصبح حكاية كل يوم :

ــ هيه .. هل ستطلق على ابنك اسم محمود جلال ؟

ــ كلا .. ابدا ..

ـ حسنا انتظر على .. سوف اريك نتيجة عملك ..
ويضحك التلاميذ ...

لم يكن عباس افنـدى فقط هو الذى تغير بعد حصول زكى على وظيفة ...كان لها فى الاسرة كلها كمثل أثر حجر كبير القى فى ماء ســاكن .. الاولاد بدأوا يطلبون ما تهفو اليه نفوسهم فقد أصبح هناك احتمال لاجابة بعض هذه المطالب .. السيدة بهية زاد وزنها وقل شجارها وعصبيتها على أى شىء .. لم يعـد صراخهـا فى الأولاد يسمع من أول الشارع .. لم يسكت صوتها نهائيا ، أحيانا الآن .. تغنى ! .. أصبحت أكثر تفانيا فى خدمة الاسرة كلهـا عموما وزوجها عباس افندى ـ استاذ المأمور الذى اكتسب فجأة أهميــة كبيرة ـ خاصة ، زكى دخل الفترة الثالثة من حياته .. الفترة التى عثر فيها على نفسه وشخصيته وأهميتـه .. بعد فترة دراسـته وما صاحبها أو ما ملأها من تأنيب وتبكيت ومعايرة .. ثم فترة بطالته التى لم يصاحبها أى شىء .. لا حسن ولا سيىء .. هو لم يترك لأحد الفرصة كى يحس به .. كان يتسلل الى البيت تسللا كما لو انه عمل عملا شـائنا .. الآن أصبحت تصاحب عودته الى المنزل ضجة تبـدأ من المطبخ ولا تنتهى فى غرفة المـائدة ودولت بينهما تهرول .. بينما والدته تساعده فى خلع ملابسه .. تماما كما تفعل مع عباس افندى .. أخيرا دولت الرقيقة التى كانت تبـدو كوردة بدأت تذبل .. استعادت رونقها .. رغم انهم يسقونها .. أو بالاحرى يجهزونها بالقطـارة .. كل شهر تأخذ والدتها نصيـبها المعلوم من مرتب شقيقها دون زيادة أو نقصان وتشترى لها شيئا .. الاولوية للملاءات والمفـارش تطريزها يستغرق وقتا طويلا .. ثم الفساتين التى تأخذ خياطتها وقتـا أقل مؤجلة الاشياء التى تشترى جاهزة حتى آخر الشوط .. مع ذلك لا بأس .. صـعود الجبل لا يبـدو مستحيلا ولا بعيدا طالمـا أن قدميك عليه تخطوان .. وتمر الايام والشهور هادئة .. ويقترب العام من نهايته .. فتقام المبـاراة الأخيرة فى الـكرة بين المناطق التعليمية حتى يتفرغ التــلاميذ عقب انتهـــاء المباريات للدراسة .. بعـد المباراة يخرج محمـد السعيـد من المدرسـة ليجد عباس افندى جالسا فى الفنـاء قرب الباب على حقيبة كتبه بعـد أن قلبهـــا على جانبها .. يسأله بدهشة :

ـ ماذا بك ياعباس أفنـدى .. لماذا تجلس هكذا ؟ ..

ـ اثناء انصرافى احسست بعض التعب والدوار .. مع انك انت يا اخى خارج تتقافز .. وكأننى انا الذى كنت املأ الملعب عدوا وانت الجالس فى المدرج متفرجا .. او ربما فى زمانكم المقلوب هـذا اصبحت المشاهدة اكثر ارهاقا من اللعب .. اياك ان تظن انها مسألة سن .. اننى شباب اكثر منك .. ولو كنت نزلت الملعب بدلك اليوم لكنت لعبت خيرا منك ..

يضحكان .. ثم يستأنف عباس افندى بجدية :

ـ لكن والله كنت رائعـــا اليوم .. ذكرتنى بوالدك مساه الله بالخير .. عندما كان يلعب .

ـ بالمناسبة .. والدى أوصانى صباح اليوم أن أسألك .. لماذا قلت زياراتك له هذه الايام حتى مضت على آخرها فترة طويلة..؟

ـ وانت نسيت ان تبلغنى السؤال كعادتك دائما.. مع ذلك بدون تبليغك ..

انا كنت عنده اليوم بعد الظهر ...

ـ عجبا .. هل تقرأ الغيب ؟ ..

ـ الم تكن تعرف ذلك حتى الآن ؟ .. حسبنا اسـألنى عن أى شىء فى الماضى أو فى الحاضر وأنا أخبرك عنه بالتفصيل ..

ـ ومن يعرف الماضى مثلك يا عباس افندى .. المهم المستقبل..

ـ اذن سأحدثك عن المستقبل .. هذا اذا سألتنى عنه ..

ـ نعم بالله عليك .. اخبرنى .. ما الذى سيأتينى به المستقبل؟

ويطرق عباس افندى قليلا ثم يقول وهو يهز رأسه متصنعا الجد :

ـ كل خير ..

ـ وماذا يخبىء لك أنت ؟

ويبدو الغموض على وجه عباس افندى ويعمق صوته :

ـ كل خير .. أيضا ..

وترتفع الضحكات من جديد ..

لـكن فى صباح اليوم التالى يدخل محمد على والده فى المركز وهو يبكى ، ويدهش الوالد ويسأله :

ـ ماذا بك يا محمد .. هل أساء اليك أحد ؟ ..

ويرد محمد من بين دموعه .. عباس افندى ...

وتزداد دهشة المأمور :

ـ عباس افندى هو الذى أساء اليك ؟.. لـكنه كان هنـا فى

مكتبى أمس وسألته عنك فقال انك متفوق فى دراستك كثيرا ..
ـ ليت الأمر كان كذلك يا ابى ولكنه .. مات ..
ويصرخ المأمور : من .. مات ؟ ..
ـ عباس افندى ...
ـ كيف .. ؟ لا تقل ذلك يا محمد .. لا تقل ذلك .. حتى ظهر أمس كان بصحة جيدة ..
ـ بل وحتى منذ ساعة كان فى المدرسة سليما معافى .. دخل عندنا الفصل فى حصة الصباح الاولى والقى علينا درسه الاخير .. بعده عاودته الوعكة التى كانت قد المت به عصر أمس فاستأذن فى الانصراف الى منزله .. بعد اقل من ساعة بلغ المدرسة خبر وفاته ..
تمتم المأمور بذهول : ولكن كيف .. ؟
ـ قال ابنه الصغير ـ الذى جاء بالنبأ ـ انه فور وصوله الى المنزل تمدد فى فراشه بمعاونة زوجته التى اراحته على الوسائد وغطته جيدا ثم ذهبت الى المطبخ لتعد له كوبا من الشاى .. عندما عادت اليه سرها ان تقلصات الألم جميعها قد زالت عن وجهه .. لكنها عندما اقتربت منه ألفته ساكنا .. كان قد مات .. فى هدوء ..
خبط المأمور كفا بكف :
ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون ..

دق الجرس فى مكتب المأمور عدة مرات دخل على أثر كل جرس احد الاشخاص ليخرج حاملا أمرا .. وكانت كل الاوامر تدور حول جنازة عباس افندى ..
قال المأمور :
ـ هذا الرجل أستاذى .. وله على فضل كبير .. ولو اننى لن اوفيه حقه مهما فعلت الا اننى سأبذل كل ما بوسعى حتى نشيعه الى مقره الاخير بكل مظاهر الاجلال والاحترام التى احملها له فى نفسى ..
رد جميع من فى مكتب المأمور وكانوا عددا كبيرا من العمد والاعيان :
ـ واجب .. واجب .. سعادتك أبو الواجب ..
ـ ما رأيكم ؟ ستسير قوات البوليس فى الجنازة .. وكذلك الموسيقى .. كما سأسير أنا بنفسى أيضا .. ترى هل أغفلت شيئا ؟ اذا كان الامر كذلك نبهونى ..
وعبرت الاصوات عن استحسان أصحابها :

ـ أبدا .. أبدا .. هـذا شيء عظيم جـدا .. سيكون مشهدا مهيبا ..

وفكر المأمور قليلا ثم قال :

ـ اعتقد ان الاسرة لا تملك مصاريف الدفن .. فأنا ادرى بحاله .. لابد أن نتبرع جميعا لهذا الفرض ..

وعاد الكل يرددون :

ـ واجب .. واجب .. سعادتك أبو الواجب ..

وبينما كانت كل يد تعبث فى جيب صاحبها استطرد المـأمور :

ـ تصوروا .. استاذى واستاذ أجيال من خيرة رجال البلد يموت قرب السبعين ولا تجد أسرته ثمن كفنه .

غلب التأثر على المـأمور فسالت دموعه .. وكان حتى تلك اللحظة قد استطاع منعها ، راى الجميع هـذه الدموع .. ودموع المأمور غالية .. من أجلها ضاعف كل متبرع ما كان ينوى التبرع به أول الأمر .. أصبحت شبه منافسة .. من يريد أن يحصل على قدر أكبر من رضاء البك المأمور فيلدفع مبلغا أكبر من زميله .. حتى ان الحكاية بلغت أحد الذين رشحوا أنفسهم فى الانتخابات ـ وكان يمر فى بعض القرى ـ فأسرع بقطع حملته والعودة الى المركز ليتبرع بأكثر مما تبرع به منافسه ، كما علم كبار رجال البلدة والموظفين ان المـأمور سيسير فى الجنازة فقرروا السـير فيها ايضا ليجاملوه ويقدموا له واجب العزاء .. فى أستاذه الغالى ..

قبل أن تتحرك الجنازة موصلة عباس افندى الى مقره الاخير .. دخل المـأمور ومن معه منزل الفقيد المتواضع ليعزوا أرملته وابنه ، وليقدم اليهما التبرعات التى كانت تقترب من المائة والخمسين جنيها ـ مساهمة بسيطة فى تـكاليف الجنازة ...

لـكن صـاحب المدرسـة ابى ان يـكون أقل كرما من الـكل .. فأعلن أن جميع مصاريف جنازة أحد مدرسى المدرسة ستدفعهـا المدرسـة .. شكره المـأمور على أريحيته ثم التفت الى الارملة المذهولة :

ـ عموما أنا كنت قد سمعت من المرحوم أن لديـكم ابنة مخطوبة .. وانه كان متعسرا بعض الشيء فى جهازها .. قد يساعد هـذا المبلغ فى الجهاز ..

تناولت السيدة بهية النقود بيد ترتعش وهى لا تدرى بماذا ترد وعاود المـأمور يردف :

ـ أنتم طبعا ستظلون هنا لأجل عمل زكى ، واحب أن تعتبرونى بدل المرحوم تماما ولا تتأخروا ابدا عن محادثتى فى أى شيء .. صغيرا أم كبيرا .. انا دائما مستعد لأى خدمة .. وأى طلب ..

خرج النعش محمولا على أكتاف زملائه فعادت الدموع تبلل وجنتى المأمور .. أخذ يحدث من حوله :

ـ هذه الدنيا فى منتهى الغرابة .. منذ ثلاثين سنة كانت صلتى قد انتهت بعباس أفندى .. رحمه الله .. ولو كان توفى فى أى وقت من هذه الاعوام الطويلة لما كنت شعرت به قط .. لكن القدر يجمعنى به مرة أخرى فى بلدة واحدة .. ويعود الود بيننا .. واسعد بمقابلاته التى كانت تذكرنى بأيام تلمذتى .. حتى لقد كاد يصبح جزءا من حياتى .. فى هذا الوقت بالذات يعود القدر ويفجعنى فيه . لكأنما هو يقصد خصيصا ايلامى .. والا .. فلماذا فى هذه الفترة بالذات يموت عباس افندى ؟ .. لماذا لم يكن ذلك قبل شهور .. أو بعد شهور مثلا .. ربما أكون نقلت من هنا ..

ويرد احد زملائه : وكان أعز صديق له بحيث لم يكن احدهما يخفى عن الآخر شيئا :

ـ ربنا له فى ذلك حكمة يا سعادة البك .. اعنى ان مقابلته مع سعادتك كانت فضلا من الله لأجل أن تكرمه فى آخرته ولأجل أن تفعل ما فعلت فى سبيل اسرته واولاده السبعة .. فى رأيى .. كان وقت وفاته مناسبا .. تماما .. بعد أن حققت له أحلام العمر كله فى هذا اللقاء الذى دبرته الصدفة ، ولو انه قد مات من شهور كما كنت تتمنى ماذا تتصور حال أولاده أن تكون ؟ ..

ويبدو الارتياح لأول مرة على وجه المأمور ويتمتم :

وفكر الصبى قليلا .. ثم تهللت أسارير وجهه وهو يقول :

بدات الجنازة سيرها فى مشهد ضخم رهيب لم تر البلدة مثيلا له من قبل وبين طوابير الكشافة والاشبال كان يسير محمد السعيد الصغير وبجواره صديق له أراد مداعبته فقال يسأله :

ـ والدك لأجل أنه كان تلميذه رتب له جنازة اعظم من جنازة وزير .. وانت .. وكنت بدورك تاميذا له .. ماذا ستفعل من أجله؟

وفكر الصبى قليلا .. ثم تهللت أسارير وجهه وهو يقول :

ـ سأنفذ الطلب الذى كان يطلبه منى دائما .. سأطلق على ابنى اسم محمود جلال ...

هى الدنيا



هى الدنيا

نظر اليها بسخط شـديد .. بالامس لم يتكلم رغم ان طعم لحم الديك الرومى الكريه فى فمه .. اكد انه لم يكن سـمنا ذلك الذى طهى به ، ماذا استخدمت اذن ؟ حنظل .. زيت ديزل ؟ !

خشى ان تسخر منه .. لـكنه اليوم لم يستطع السكوت .. سألها بغيظ :

ـ هل نسيت وضع السكر ؟

ـ كيف ؟

ـ الشاى مر !

ـ وضعت قطعتين .. كالعادة .. لـكنك انت .. لست ادرى والله ماذا حدث لك !

خبط الـكوب امامها بسخط وقام ، هو لم يتغير لـكن الدنيـا هى التى تغيرت .. لونها فى عينيه .. طعمها فى فمه .. كل شىء أصبح مرا ، جسـد زوجته الممتلىء فى فستانهـا الضيق أصبح يثير اشمئزازه .. مرح أولاده وصخبهم ينزل على ام راسـه كالمطارق ، يترك المنزل هاربا الى المقهى .. لـكنه لا يجد أصدقاءه .. احتلت كراسيهم جثث عفنة ، لم يعد يحس بأية متعة او سعادة .. كره كل شىء .. كره الدنيـا بأسرها ولـكن .. الى اين يهرب .. أين المفر ؟! .. بيوت الله ؟ .. لكنه فى الزاوية الصغيرة لم يتمكن من الصـلاة ، لم يستطع ان يركز ذهنه .. ضحك فجأة من أراجوز لم يره لـكنه احس به .. يقوم ويقعد .. لماذا لم تقدح عينا الشيخ شررا وهو ينظر اليه ؟ فقط استفسار صامت ، رد عليه بسرعة :

ـ حتى العبـادة مللتها .. لم اعد ارى فيها أكثر من طقوس لا معنى لها .. !

بدت على الشيخ بوادر الفهم .. هز رأسه وهو يغمغم :

ـ تسير ثقيلا .. !

ودهش .. قوامه نحيف .. فطن الشيخ لدهشته فعاد يهز راسه :
ـ ليس ثقل الشحم واللحم أعنى ولـكن ثقل الاوراق .. أوراق كثيرة تحملها على عاتقك وتربطها الى ساقيك فلا تستطيع السير الا زحفا .. تخفف منها تحس الانتعاش ..
ضحك فى قرارة نفسه باستهزاء .. يريدنى ان أترك أموالى لأصبح مثله .. ؟
لـكن سخطه كان فى ازدياد .. أحس بالاثقال تغل قدميه حتى عن الزحف ! بدأ يموت ويتعفن وقلبه ما زال يدق .. فتح كل دواليبه واخرج الاوراق .. أوراقا كثيرة .. أوراقا ملونة مرسومة وأخرى مكتوبة بأيدى محامين ومأذونين وموظفى مكاتب الصحة والشهر العقارى ، انها لحقيبة عجيبة حقا أن اتسعت لكل هذا .
وهو بسبيل الخروج أسرعت زوجته وراءه تناديه .. يالله .. هل علمت ؟ ولـكن كيف ؟ .. على انه لن يرجع عما انتوى مهما حاولت .. عادت تناديه .. فاستدار اليها .. زعقت :
ـ اشتريت سمكا هـذا الصباح .. حاول أن تعود مبكرا اليوم قبل أن يبرد حتى لا يثير تأففك !
لم تنتظر رده .. عادت وهى تردف لنفسها :
ـ كأغلب ما أطهوه هذه الايام .. !
اتجه صوب الزاوية على الشاطىء والحقيبة فى يده .. سأل الشيخ :
ـ هل أرمى بها فى النهر ؟
لـكن الاخير لم يبد عليه انه سمع أو فهم واستمر فى مناجاته ، فتح يده ولـكنه .. يا للعجب ، لم تسقط الحقيبة .. جلدها ساح .. وجلد يده ايضا .. والتحم الاثنان .. حاول أن يخلص احداهما من الأخرى ولكن عبثا ، أصبحت يده والحقيبة شيئا واحدا .. ولم يكن هناك حل غيره .. ألقى بنفسه فى الماء مع الحقيبة .. !

لم يسمع لارتطامه بالماء صوتا شديدا .. اذابت المياه اللحام فتخلصت يده من الحقيبة ، وبدأ يطفو ويطفو .. حتى وصل الى السطح ، خرج من الماء .. لدهشته .. لم يكن بملابسه أى أثر للبلل .. ولا قطرة ماء واحدة .. !
ما هذا المكان ؟ جمال ما رأى ولا سمع مثيلا له من قبل .. الا الجنة .. هل وصل الى الجنة ؟ كيف وما زال حيا يتنفس ؟ حدائق

وزهور وطيور وجداول بألوان ما أبدعها ، ظل يسير خفيفا سعيدا!.. يريد أن يغنى.. فجأة .. فقدت الجداول والسماء زرقتهـــا والحشائش خضرتها والورود جميعا ألوانها .. تلون كل شيء بلون رمادى باهت أو لم يعد له لون على الاطلاق .. !

قرصه الجوع قرصة عنيفة .. غريب أن تخلو الجنة من أى شيء يؤكل . على بعد بدا له محل يخطف لالاء الماس فى نوافذه الأبصار .. اقترب منه .. كيف رآه ماسا ..؟ محل فول .. وواجهـاته من زجاج .. تقدم اليه مندفعا ويده فى جيبه .. ثم توقف مرة واحدة .. لعنة الله على غبائه .. ألم يكن فى امكانه أن يأخذ ولو جنيها من الالوف التى كانت فى الحقيبة ؟ .. لـكن البائع خاطبه بلطف :

ـ جوعان ؟ .. فلماذا لا تأكل ؟

ـ ليس معى نقود ..

ـ نقود ؟ .. ما معناها ؟

ـ نقدية .. فلوس .. مصارى .. برادس .. مونى .. !

لكن الرجل ظل على استنكاره ، فسأله نافد الصبر :

ـ أريد طبقا من الفول ورغيفا .. ماذا أدفع لك ؟

ـ تكبر له خمسا .. !

هل يسخر منه الرجل ؟ .. فليجرب .. وكان .. لم يأبه لشعور الامتـلاء وطلب طبقا ثانيا .. ودفع كما دفع أولا .. هـذا الرجل مجنون ولا شك ولـكن .. ما شـأنه هو .. هل من واجبـه رد المجانين الى صوابهم ؟

لم يقل ترحاب الرجل له فى الغداء عنه فى الافطار .. ولا فى العشاء أيضا .. بالعكس .. كان أكثر سرورا .. كأى بائع تروج تجارته.. ناوله الطبق مزهوا :

ـ يبدو انك تحب الفول جدا .. !

يا لسذاجته .. !

ـ أحب كل شيء ولـكنى كما قلت لك .. ليس معى نقود ..

ـ عدت ثانية للهلوسة ؟!

ـ تعنى أنه .. بالله .. هل تريد أن تقول ان الجميع هنا .. يبيعون بنفس عملتك ؟

انتقم من الكباب والفاكهة لمعـدته التى أثقلتها أطباق الفول .. ترك النوم فى الحدائق عندما علم أن أصحاب المنازل أيضا يقبضون ايجارها .. تـكبيرا لله .. !

عندما تمتلىء الحوصلة ويتم تجهيز العش يبدأ التفكير فى الوليف، قال له بائع الفول الذى أصبح أعز أصدقائه :

ــ اذهب الى الميدان الــكبير يوم السوق تجــد جميع فتيــات المدينة ، من تعجبك منهن سلم عليها .. فاذا ردت الســـلام كان معنــاه انها موافقة .. بعدها تطلبها من ابيهــا وتدفع مهرها .. الله أكبر مائة مرة .. !

لم يكذب خبرا واختــــار أجمل فتيات البلدة .. تزوجهـــا ثم جاءت الذرية صبيين وبنية ، كان يحس أنه اسعد مخلوق على وجه الارض .. فقط كانت هناك اشياء تثير دهشته وتساؤله .. لــكن احــدا لم يرد عليه قط .. على العكس كانت أسئلته تثير فى سامعيها دهشة أضخم من دهشته .. كيف يتصور أن تعــاملهم بالالفاظ يجعل النــــاس لا يقنعون ؟ هل هــو يرى أن الورق أغلى من الــكلمات ؟ وهل يعقل أن يأخذ الانسان أكثر من حاجته ؟ ثم كيف يسأل هــذا السؤال السخيف « لمــاذا يعمل النــاس اذن ؟» وهل هذا سؤال ؟ هل يمكن أن يظل انسان بلا عمل ؟ ..

ظن يوما انه فهم سبب دهشتهم .. مجبرون قطعا ولــكن .. ترى ما هو القــانون الرهيب أو السلطة القوية التى تضطرهم برغم سهولة الحياة الفاخرة الى العمل بكل هذه الهمـــة التى لا تعرف الــكلل ؟ ! .. لاشك سيجىء دوره ليحاسبوه على بطالته ..

لــكنه ظل طويلا بعيــدا عن أعين البوليس .. أو هكذا ظن .. حتى اكتشف الا ظل هناك للقانون ولا لممثليه على الاطلاق .. !

رغم عدم حصوله على ردود ما .. لم يستطع أن يبتلع تساؤله .. « جميع المهن موجودة عداهم .. أين رجال البوليس والنيـــابة والقضاء ؟ .. وكيف رغم اختفائهم يسيطر الهدوء على المدينة فلا يرتفع فيها صوت قط ؟ كيف يبدو الامن مستتبا الى هذه الدرجة ؟

هذه المرة جاءه الرد « كل فرد متروك لضميره يحاسبه على أعماله بدون أى تدخل من أحد ! »

فعلا .. رغم كرم الجميع وبذلهم وبشاشتهم لم يكن أحد منهم ليرحب بأى تدخل فى شئونه ، وهو بالتالى لا يتــدخل فى شئون غيره ، وكان لهذا الطبع حسناته الــكبرى .. بالنســبة اليه على الاقل .. لم يجبره أحد على القيــــام بأى عمل .. بل حتى لم يسأله شخص .. لمــاذا لا يعمل ، يوما قال لبائع الفول بعــد أن التهم طبقين :

— صحتى ضعيفة جدا .. لا تساعدنى على العمل .. !

فردعليه دون أن تبدو فيعينيه اية نظرة من تلك التيكان يتوقعها:
— هذا شأنك وحدك .. !

حاول أن يأخذ عنهم هذه العـادة لكنه لم يفلح تماما .. يوما كان فى نزهة بالريف فرأى ما جعله يحدث نفسه « لك الله يا هـذا البلد العجيب .. كل ما يقع فوق أرضك مدهش غريب .. هـذا الرجل يرى جاريه .. الذى الى اليمين قد فتح قنـاة بين ارضه والترعة لتروى زراعتـه وهو مستريح .. والذى الى الشمال يدير شادوفا .. ويستعمل هو هـذه الطريقة البـدائية ؟ بل العقيمة .. فليت الدلو كان سليما .. المـاء كله يتسرب من الثقب الصـغير بقاعه قبل أن يصل أرضـه ، ومع ذلك يعيد الـكرة مرة ثانية وثالثة وعاشرة فى صبر وجلد عجيبين دون أن تنال زراعتـــــه الا النزر اليسير » تقدم منه صاحبنا ناصحا :

— حتى الصباح ستظل تعمل دون أن تسقى زرعك .. لمـاذا لا تقلد زميلك الاول .. أو حتى الثانى ؟ العرق يتصبب منه لـكن أرضـه تروى على اى حال .

لم يرد عليه الرجل .. فتذكر الطبع الغريب .. مضى وتركه يسير ويسير والدلو فى يده .. يذرف الدموع أسىعلىذلك الجهد الضائع.

فى المنزل وجد زوجته غاضبة :

— لـماذا تحشر نفسك فى شىء لا يخصك .. ولا تفهمه ؟.. هذا الاعتراض نعتبره جريمة .. !

أدهشه علم زوجته بما حدث ، على انه وعدها الا يكرر ذلك ، لـكنه نسى الوعد .. بل نسى نفسه فى نزهة أخرى .. ذلك الفلاح لاشك مجنون .. هل يمكن أن يفعل اى عاقل ذلك ؟.. ما اعظم خسارته .. لو انه حتى حصـد محصوله وهو بعد « فريك » اخضر كالفلاح الثانى لاستطاع بيعه .. ولو أن مكسبه لن يـكون كالفلاح الاول الذى يجنى قمحه بعد تمام نضجه .. أقبل عليه بلا ترو :

— ما الذى تنتظر أن تكسبه من هذا العشب .. ضيعت هبـــاء مجهود الشهور المـاضية كله .. كان فى وسعك أن تنتظر بضـعة اسابيع اخرى .

— هذه المرة أيضا لم يرد عليه الفلاح المسئول وظل يعمل منجله بلا رحمة ولا أسف فى العشب الاخضر .. اسرع الى منزله وهو يدعو

الله الا تكون زوجته قد علمت بما كان .. لكن منظر غضبها وبكائها أكدا له أنها علمت .. أفهمته ان هذه آخر مرة .. وانه اذا كررها مرة ثالثة فهو لا شك مطرود من البلد .. واستطردت :

ـ كل شيء مقدر ومرسوم يسير كالساعة أو كتعاقب الشمس والقمر .. هل تستطيع بنصيحتك أن تؤخر هذه أو ذاك ولو لثوان؟

ظل فى المنزل أياما لا يخرج خوفا من الفلط .. حتى مل .. عاد للخروج وقد قرر أن يكبح جماح فضوله . كان معذورا فى المرة الثالثة .. أى انسان لا يمكن أن يرى هذا ويسكت .. زوجته نفسها لو رأته لتقدمت ناصحة .. لقد استطاع أن يعود نفسه على كثير من التصرفات الشاذة .. لكن شذوذ اليوم فاق المعقول ، كيف يتصور كل هؤلاء الناس أن الصخرة ستتحرك بهذه الطريقة وكل منهم يشد على هواه ؟.. أكثر من عشرين رجلا .. يجذبونها بعشرين حبلا .. كل فى اتجاه .. كل يضيع مجهودات زملائه .. فما تكاد تتحرك مع أحدهم سنتيمترات الى الشرق حتى يجذبها آخر الى الجنوب .. ثم يعيدها ثالث الى مكانها الاول بجذبه اياها الى الغرب ، لم يدهشه أبدا انهم خلال ساعة كاملة لم يستطيعوا تحريكها قيد أنملة .. الذى يدهش أنهم يأملون غير ذلك .. أليس فيهم واحد فقط يدرك عقم المحاولة ؟ أخيرا صاح فيهم :

ـ بهذا الشكل لن تتزحزح الصخرة من مكانها أبدا .. لماذا لا تتحدون جميعا وتجذبونها ناحية واحدة ؟ .. لن تستعصى عليكم حينذاك فتذهبون بها الى أى مكان تريدون ..

لو كانت الصخرة العتيدة سمعت .. كانوا هم سمعوا .. أو ردت .. كانوا هم ردوا .. ظلوا مستمرين شدا وجذبا .. بعد فوات الوقت أدرك الهوة التى تردى فيها .. أسرع الى منزله عدوا لكن زوجته أبت أن تفتح له :

ـ ولم يعد لك منزل ولا زوجة ولا أولاد .. بل لم يعد لك حياة هنا .. !

ماذا ..؟ أهى مؤامرة اشترك فيها ضده جميع البائعين فى المدينة؟ يبيعون لكل الناس فلماذا يرفضون طلبه هو ؟ بل انهم حتى لايرفضون .. لايردون عليه أو يعيرونه أى التفات كما لو كان شبحا لايرونه أو حشرة لا يحسون بها .. أو ربما أصبح بين دقيقة وأخرى رجلا خفيا ..! هل هذا معقول ؟ يكاد يهلك جوعا والمدينة ملأى



بما لذ وطاب .. بالمجان تقريبا .. وتذكر صديقه الاول بائع الفول ولـكن الخبيث .. يتنكر هو الآخر للصداقة ؟

حث قدميـه ولـكن حتى البائعين فى أطراف المدينـة وصلتهم أخبار المقاطعة .. لم يأخذ منهم سـوى .. الاعراض التام .. !

عجبا .. هل يحلم ؟ فرك عينيه لـكن المنظر ظل كما هو .. هذه الشجرة الباسقة فى الزاوية على حافة الترعة تشبه تماما تلك التى القى بنفسه من تحتها يوما ما .. وخطر له خاطر لا يدرى أكان رأسـه مصـدره أم أمعاؤه التى تتلوى .. فارغة .. لماذا لا يكرر ما حدث له من قبـل .. ربما حل الاشكال على أى وجه .. فعلها .. ترى من الذى انتشله ؟ لا أحـد بجواره فى الزاوية القديمة سوى الشيخ العجوز .. انه يبـدو اضعف من أن يفعل ذلك .. ولـكن هـذه الحقيبة فى يده .. «انها حقيبتى .. حقيبتى التى كانت تحوى أموالى وأوراقى والتى ابتلعها اليم من سنوات طويلة.. هل سيعترف بسهولة انها تخصنى أو يدعى أنها مالـكه الشخصى ؟ باستطاعتى رغم الزمن الطويل أن أذكر له بعض ما بها كدليل » .

لـكن الشيخ يقدمها اليه .. من تلقاء نفسه .

ـ حاجاتك .. ما كان أغناك أن تسأل كل تلك الاسـئلة .. ما زلت متطبعا بطبائع الدنيا ، متعودا عاداتها ، وفى نفسك أطماعها وشهواتها .. !

أى شيطان اخبره هو الآخر بما كان ؟ ! غمغم :

ـ سألت برغمى .. تصرفاتهم كانت تدعو للجنون .. ! مع ذلك نصائحى كانت فى صالحهم ..

ـ بل لم تـكن لتغير من الامر شيئا . فالارزاق فى يد الله وحده سبحانه وتعالى .. هو الرزاق الـكريم يرزق من يشاء بغير حساب ويمنع عمن يشاء ، كذلك الاعمار محدودة بمواقيتها ولـكل أجـل كتاب ، ومن جاء أجله مهما كانت سنه لا يتأخر دقيقة ولا يتقدم .

ضرب بيده على جبهته :

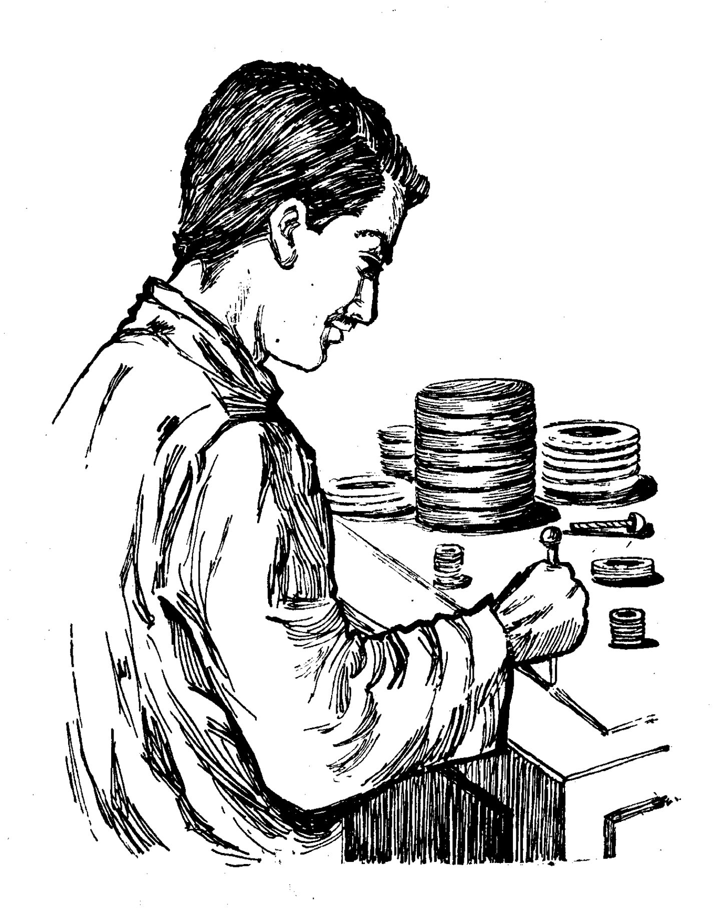
ـ يا الهى .. نعم .. نعم .. فهمت .. ولكن .. الصخرة الكبيرة .. ما هى ؟

ـ هى الدنيا .. ! الـكل يطمع فيها لنفسه .. مثلك .. متعلق بها وطباعها تجرى فى دمك .. لم تـكن زاهـدا فيهـا أبدا ، وانما كانت أزمة عابرة .. ونصيحتى كانت أن تتخفف من بعض لا من كل

ما تملك .. والناس أولى من البحر .. !

رغم السنين لم يتغير فى الشوارع شىء .. ومنزله هو هو .. ما كادت زوجتـه تراه حتى شهقت بدهشة .. قطعا كانت قـد فقدت الامل فى عودته .. أردفت :

ـ ألأننى قلت لك لا تتأخر .. تعود بعد ساعة واحدة ؟ كيف تظن بالله عليك اننى فى هـذه الفترة القصيرة استطعت « قلى » السمك ؟ !



الانسان والآلة

الانسان والآلة .. هل يمكن أن تقوم بين الاثنين صداقة وثيقة ؟ ممكن .. بل واحيانا ما هو أبلغ من الصداقة .. حب وعشق متيم .. !

كان قد تخرج فى كلية الهندسة وأرسل الى الصحراء .. ولفتت هذه الماكينة الهائلة « الحفار » انتباهه ، ضخمة .. شامخة .. هامة .. معقدة جدا .. اهتمامه بها يكبر كل يوم .. رغم عدم ترحيب الفنيين الامريكان أقبل عليها يستكشف كنهها .. رأت منه هذا الاقبال فباحت له بالكثير من أسرارها ، ففى الآلات بعض طباع الانسان .. وربما المرأة على وجه الخصوص .. يسعدها أن ترى من يهتم بها ويخصها بكل عنايته .. كان أمام مصطفى العديد من الآلات والماكينات لكن ماكينة أخرى غير الحفار لم تجذب انتباهه .. المرأة تقدس التوحيد فى الحب .. تسلم جميع مفاتيح قلبها لمن لا يشرك بها .. ترى فى الشرك بالحبيب ما يكاد يوازى الشرك بالله .. أو بالوطن .. ويبدو أن الآلة أيضا ترى هذا الرأى !

عندما قطعت مصر علاقاتها مع أمريكا عام ٦٧ وسافر الفنيون الامريكيون جميعا كان مصطفى يقضى اجازته بالقاهرة ، وعندما عاد وجد الحفار متوقفا .. صعق .. فى هذا اضرار كبير بالبلاد وهى ـ خاصة بعد ظروف النكسة ـ محتاجة لكل قطرة بترول يمكن استخراجها . وجاء الرد « لا يوجد مصرى واحد يستطيع تشغيل الحفار بآلاته البالغة التعقيد .. لقد استعنا حتى بأساتذة الميكانيكا فى كليات الهندسة الا انهم عجزوا عن حل طلاسمه » اخبرهم أنه يستطيع تشغيله . سخروا منه .. حذروه من العواقب .. وافقوا أخيرا ، ولم تمض ساعات حتى كان الحفار الضخم يعود للعمل .. كان اليوم أشبه بالعيد لدى جميع العاملين فى الحقل ، حاول أن يدرب مجموعة من المساعدين عليها لكنهم تهيبوا

تعقيــدها .. أو هى بخلت عليهم بأسرارها العميقة.. اضطرمصطفى أن يقوم للآلة بـكل شيء .. حتى التنظيف والتزييت والصيانة ..

أحبهـا أكثر عندما تأزمت الامور بينـه وبين خطيبته .. وجـد نفســه بدون وعى يقارن بينهما .. عندما تقول له الماكينة ـ عن طريق عداداتها ـ ان آلاتها قد وصلت حتى عمق خمسين مترا فانها تـكون كذلك حقا .. لا تزيد سنتيمترا واحدا ولا تنقص .. أما سـعاد فانها تقول له انها كانت عند الـكوافير ثم يكتشف ان اليوم هو الاثنين .. وأحيـانا عنـد الطبيب ثم يعرف أن طبيبهـا فى رحـلة بالخارج .. وغيره وغيره .. عتب عليها كثيرا .. حاول أن يصلح أحوالها لـكنه فشل ويبـدو أن ذلك كان نتيجة طبيعيـة لتدليله اياها .. كان يدللها بعد أن حكت له عن ظروفها القاسية .. عنـدما تزوجت من شخص لتكتشف عجزه عن ممارسة حيـــاة زوجية طبيعية .. ثم لم يكتف بحرمانها وانما عذبهـا بشكوكه .. هل كان ما قالته حقا ؟ . أصبح يشك فى كل كلمة تنطقها حتى ولو كانت عن تاريخ اليوم أو عدد دقات الساعة.. أمسى يعد أيام الاجازة حتى يعود الى عمله والى آلته المفضلة .. ما طلب منها يوما شيئا وخذلته مهما كانت صعوبة ما يطلب .. عارضه رؤساؤه عنـدما قرر أن يجعلها تحفر لأعمق مما كان يشغلها أصحابها السابقون.. لكنه فعلها .. وطاوعته . قامت بالعمـل على أكمل وجه .. تنفس الصعـداء .. ولم يملك أن قبلهـا .. لم تحرجه أمام رؤسائه .. لم يطالب من سعاد شيئا فوق طاقتهـا .. طلب منها الا تخرج وحدها بالليل .. الا تلبس القصير العارى لهـذه الدرجـة .. الا تضحك تلك الضحكة ذات الذيل الطويل .. لـكنها أبدا لم تلب له أى مطلب .. على العكس .. كانت تزيد فيما يضـايقه .. وكأنها تتحدى .. يوما شكاها لأحد أشقائها لـكنه بدلا من مؤازرته هدده باطلاق الرصـــــاص عليـــــه ان هــو لم يكف عن التشنيع على شقيقته ، انه لم يشنع قط .. وانما يعيـد ما سمعه .. وناقـل الكفر ليس بكافر .. وهـذه الاشاعات .. هل يعقـــــل أن تكون كلها كاذبة متجنية ؟ هل يمكن أن يوجد دخان حيث لا تشتعل نيران؟ مثل كان يسمعه قديما ويدهش له « يرضى القتيـل وليس يرضى القاتل .. ! » بعد تهديد شقيق خطيبته ادرك أن كلام أجدادنا كان دائما حكيما ..

أخيرا أنهى ما بينه وبينها .. وجد أن حبهـا لا يساوى حرق دمه

كل شهر ، عدا قلقـــه فى مكان عمله .. فى الصحراء . وكان لابد من وجوده هناك ..نصحه صديق شكى له معاناته بطلب النقل لمقر الشركة بالقاهرة .. لـكنه رفض .. لم يدرس التعدين.. ثم يحصل على كل تلك الخبرات ليجلس آخر الامر على مكتب بالقاهرة . بل ان رؤساءه أيضا كانوا سيرفضون كما رفضوا من قبل الموافقة على طلب اعارته لاحدى الدول العربية .. والله وحده يعلم كم كان متضررا وهو يقدم الطلب .. لـكن الحاح خطيبته وحماته المنتظرة ـ وقتها ـ فاق الحد .. ضغطتا عليه ضغطا شديد .. بل استثارتا كبرياءه عندما أخذتا تعددان له الهدايا التى احضرها زوج احدى قريباتهم من تلك البلاد .. قطعتا عليه كافة السبل « تقول أن بلادك فى حاجة اليك ؟ .. بلادك لديها الألوف من ابنائها .. أما أسرتك فليس لهـا سواك .. ومن ليس له خير فى أسرته ليس له خير فى أحد .. كم تتقاضى من شركتك ..؟ ملاليم .. من قال أن المـال ليس بذىاهمية وقد وصفه الله تعالى بأنه زينة الحياة الدنيا .. و.. وقدم الطلب.. ورفض .. قال الرؤساء انه ليس هناك من يستطيع تشغيل الحفار عداه .. وأن هذه غلطته . فقد كان واجبـــه اعداد مجموعة من المساعدين .. وعلم الله انه حاول معهم كثيرا لكنهم هم الذين كانوا يستصعبون ادارته .

ارتاح باله بعد فسخ الخطبة فأعطى عمله كل اهتمامه وجهـــده وتفكيره .. وحبـه ، ولـكن .. رغم عنـايته الفائقة بآلاته أصبح يوما ليجد الحفار معطلا .. وظل يبحث حتى وجد السبب .. العطل بالتوربين ، وسأل مدير المخازن .. « هل يوجد توربين آخر ؟ » ، فأفاد بأنه لا يوجـد سـوى توربين واحد .. معطل هو الآخر.. وهو التوربين الذى كان مركبا بالحفار عنـد حضـوره .. ثم تعطـل .. فما كان من الخبراء الامريكان الا أن استبدلوه بالتوربين الجديد الذى كان قد أحضر اضافيا ، واسقط فى يده .. ماذا يفعل ؟ .. وأخيرا خطرت له فـكرة فك التوربين ليعرف سبب عطله .. لـكن رئيسه رفض :

ـ هل جننت ؟.. أم لـكونك لقطت من الامريكان طريقة تشغيل الحفار أصـابك الغرور حتى ظننت أنك قادر على كل شىء .

ـ فلأجرب .. ربما استطعت .

ـ لكن تجربتك هـذه قد تكلفنا غاليا .. هـذا التوربين قـد يمكن اصلاحه .. عندما تعود العلاقات مع أمريكا فيعود الفنيون ..

أما اذا فـكـكته فقد ضيعته نهائيا .
ــ واذن .. فما العمل ؟
ــ سنبلغ الوزارة حتى تحاول أن تستورد لنا توربينا جديدا .
ــ لـكن هـذا سيستغرق شهورا عديدة يتعطـل فيها العمـل وينقص انتاجنا .
ــ لا مفر من ذلك .. اسمع يا مصطفى .. انك تشط كثيرا .. الامريكان انفسهم عندما تعطل التوربين السابق غيروه .. ولم يحاولوا فـكه .
ــ لأن الجديد كان امامهم .. ثم أنها ليست بلدهم فلا تعنيهم مصلحتها .
ــ وانا أقول لك ان المصلحة فى عدم فك التوربين .. كيف بالله عليك تعيـد تركيبه وليس لديك كتالوج يوضح مكان كل قطعة ؟!
ــ أستطيع أن آخذ بالى و ..
قاطعه صارخا : قلت لا يعنى لا .. ولا أريد المزيد .

انصرف المدير وكبار الموظفين فى موعدهم ، ولم يستطع مصطفى الأكل أو النوم .. لم يكن متأكدا من نجاحه فى اصلاح التوربين لـكن الاحتمال كان يستحق المحاولة .. كذلك يستحق المجازفة ، أسرع يبحث عن أحد العمال حتى وجد عاملا كان قد قدم له خدمة كبيرة وصحبه الى مكان التوربين ، وبدأ يفكه .. أحضر معه فرشـــاة صغيرة وعلبة دوكو أبيض وراح يرقم كل قطعة ويكتب فى دفتر معه مكانها والقطع التى كانت مركبة بها ثم يضعها على الارض بالترتيب .. القطع الاولى فى أول صف فالتى تليها فى الثانى .. ثم الثالث .. وهكذا ، أرضية الغرفة كادت تمتلىء .. والدفتر أيضا .. ومنديله الذى كان يمسح به عرقه بين الفينة والفينة .. حين « طب » عليه المدير .. أبلغه أحدهم بدون شك .. فجة أسمع صوته من خلفـه يتساءل :
ــ ماذا تفعل يا مصطفى ؟
رد بهدوء شديد : كما ترى .. أفك التوربين .. !
ــ اذن ركبت رأسك وعصيت أوامرى .. استعد اذن للمثول أمام مجلس تحقيق .
ــ اذا لم أستطع اعادة تركيبه قدمنى للتحقيق .
نظر المدير الى العدد الهائل من القطع المرصـوصـة على الارض وهتف :

ــ وهل تتوقع ان تستطيع تركيب كل هذه ..؟ وبدون كتالوج ؟!
ثم انك لم تكتف بنفسك وانما صحبت عاملا .. من سيدفع له ساعات العمل الاضافية ولم يكلف بها رسميا ؟
ــ لن يطالب بشيء .. سأرضيه أنا .
وتحدث العامل : رقبتى للباشمهندس .
وتهكم المدير : هذه قدرت عليها ولكن .. من سيدفع التعويض لأسرته فيما لو أصابته احدى الالات أو قضت عليه واعتبرت اسرته انها كانت اصابة عمل .
اهتزت يد العامل فى رجفة مفاجئة فى حين أسرع مصطفى مؤكدا محاولا طمأنة العامل .
ــ لن يحدث أى شيء من ذلك ابدا .. باذن الله .
ــ لكن أوامرى كانت صريحة .
ــ لم أستطع الوقوف مكتوفا أمام عطل الحفار .
ــ قل كل ذلك أمام لجنة التحقيق !
بكوب من الشاى وسيجارة ونكتتين لطيفتين استطاع مصطفى اعادة الهدوء الى أعصاب العامل .. وكان محتاجا لذلك .. اذ استغرق منه فك التوربين نصف الليل .. ثم اعادة تركيبه النصف الثانى ، كان التركيب مهمة صعبة .. شاقة .. مضنية حقا .. تحتاج لمهارة وذكاء ودقة ملاحظة بالغة .. كان يملك كل ذلك وفوقه حظى بتوفيق الله ، وركب التوربين .. بعد اصلاح العطب به .. وفى الصباح استطاع تشغيل التوربين .. وعند الظهر ركبه فى الحفار .. وفى المساء كان الحفار يعاود العمل .. بكل طاقته ، وفى الصباح الذى يليه فوجيء الجميع بحضور الوزير .

كان المدير قد أبرق اليه فور ابلاغه بعطل الحفار .. ولما كان الامر خطيرا فقد جاء بنفسه ليدرس الموضوع من كافة جوانبه .. على الطبيعة . وعندما جاء كان الحفار يعمل .. وقيل له انه قد أصلح فصرح بأنها أجمل واسعد مفاجأة صادفها فى حياته .. وأقبل زملاء مصطفى يهنئونه ويبشرونه .
بعد الظهر .. أقيمت فى النادى حفلة لتكريم الوزير .. ومدت الموائد محملة بالحلوى ومزينة بالزهور .. وقام المدير خطيبا .. مرحبا بالوزير .. مثنيا عليه كثير الثناء ، لكن أهم ما ركز عليه فى خطبته انه ــ أى المدير ــ ما كاد يعلم بعطل الحفار حتى جمع كافة المهندسين وظل يتشاور معهم ويحفزهم لكن الجميع تهيبوا وخشوا

مغبة الفشل .. فما كان منه ــ المدير ايضا ــ الا ان تحمل المسئولية وحده .. واختار احد المهندسين ــ دون ذكر اسمه ــ وعمل المستحيل حتى أصلح التوربين .. منفقا فى ذلك الليل بطوله وجزءا كبيرا من النهار .. مضحيا براحته وباذلا كل جهده وقادحا كل فكره فى سبيل صالح البلد .. مستوحيا فى ذلك توجيهات السيد الوزير الذى يحفزهم دائما لتخطى الصعاب بادئا بنفسه ليكون فى ذلك قدوة للعاملين معه .. !

جميع العاملين فى الموقع يصفقون موافقين ومثنين ، الوزير يقف ويعلن أمره بترقية المدير ترقية عظيمة ومكافأته بمرتب شهر وكذلك مكافأة المهندس الذى ساعده بمرتب عشرة أيام . المدير يشكر الوزير الشكر المستطاب والعيون تتجه يمينا ويسارا باحثة عن مصطفى ليقدم شكره بدوره لكنهم لم يجدوه .. لقد تسلل أثناء خطبة المدير العصماء ..

ويضحك صديق له :

ــ لابد ستجدونه هناك .. عند الحفار .. !

كان هناك فعلا .. يتابع ــ وهو يقارن بين الانسان والآلة ــ مؤشرات الحفار التى تدل على ان أجهزته تعمل على عمق ثمانين مترا من سطح الارض .. وكان واثقا من أنها لا تنقص عن ذلك سنتيمترا واحدا .. ولا تزيد .

وغيرت الأجراس رنينها



يوم لا ينسى ...

دقات أجراس الدلال .. ركلات وصفعات على الوجه .. دموع غزيرة .. أعقاب سجائر كثيرة ، أصوات ومناظر متداخلة ظلت زمنا طويلا تدق فى أذنيه وتتراءى فى خيـاله .. يوم لا ينسى بالنسبة للجميع . بدأ بدقات الأجراس .. دقات جميلة أطربت ممدوح .. ابن السادسة .. الذى لم يعرف .. حتى هذا اليوم أن هنـاك ما يمكن أن يثير أشـجان أبيه أو أمه أو أى فرد فى السراى الواسعة .

انطلق يصفق ويرقص ويجرى فى كل مكان مهللا مع الدقات .. رأى أخاه الاكبر مختـار أمامه .. لم تكن هـذه الرؤية لتغير من تصرفه شيئا .. ظل يجرى ويصفق .. فجأة .. أحس بيد قوية تمسك بياقته من الخلف .. استدار ليجد اليد الثانية تصفع خده بقسوة .. قبل أن يفيق تكررت الصفعات والركلات .. « لماذا يا مختار ؟ ماذا فعلت ؟.. لم أكسر شـيئا ولم أقطع الاوراق على السجاجيد .. » بعد لأى استطاع أن يفلت منه ويجرى الى أمه شاكيا .. ازدادت دهشته .. ماذا جرى لأهل البيت اليوم ؟ انها تجلس على فوتى صغير وتبكى بحرقة .. ! لم يرها من قبل تبكى أبدا .. كانت ضحكاتها تسمع من الحديقة .. لا يكاد يذكر أنه رآها تلبس فستانا واحدا مرتين .. !

وقف على باب الغرفة مبهورا .. أغلق عليه فلم يستطع أن ينبس .. اخيرا خطر له ان أحدا لن يحل هـذه الطلاسم سوى أبيه .. الرجل القوى المهاب .. لا يجرؤ أحد على رفع صوته طالما هو فى المنزل .. اسرع الى غرفته .. كان موجودا وغير موجود .. يمسك فى يده سيجارة يتصاعد دخانها ليملأ جو الغرفة .. وأمامه فى المنفضة عشرات الاعقاب .. بدأ يشكو له مختـار .. لكن الأب

لايرد .. بل لا يبـدو انه سمع .. يده على خده وعينـــاه مفتوحتان لـكنهما بغير حياة .. اذن فليلق بالقنبلة :
ـ والدتى تبكى فى حجرتها .. !

القنبلة اقتصر دويها على سمعه هو فقط .. لم يقـذف الأب سيجارته ليجرى كما توقع ممدوح .. بل لم يسأل حتى عن ملابسات ذلك الحدث ، وكأنه لم يسمع شيئا على الاطلاق .. ! هـل هو نائم يا ترى ؟.. لا مفر اذن من ذلك .. بدأ يهزه ويشـده من جاكتته « بابا .. بابا .. بابا .. » ولـكن ما من مجيب .. !

وتزيد دقات الاجراس .. ويقبـل أناس كثيرون .. هل يقيمون حفلة ؟ .. لـكن لا يوجـد بوفيه ولم تمد أى مائدة .. حتى هو نفسه نسيته دادته ونسيه الجميع ، لم يحضر له أحد ساندوتشا ولا كوبا من اللبن .. !

كان الارهاق من الجرى والضرب والجوع والتفكير أقوى من جهد الصبى الصـغير فتكور على نفسه فى احدى الحجرات الخالية ... البعيدة عن الضجة .. ونام

أيام كثيرة مرت على ذلك اليوم .. لـكن أحداثه ظلت محفورة فى ذاكرته وأصواته تدوى فى سمعه .. ألم يكن اليوم الفاصل بين أشياء وأشياء .. ألم يكن بداية لركلات وصفعات تكررت بعـده كثيرا من شقيقه مختار ؟ ألم يكن اليوم الذى أنعم عليه فيه بذلك اللقب العظيم حتى أنه لم يعد بعدها يناديه الا به : « وش الفقر ! »

ظل منــذ ذلك اليوم وســؤال واحد يلف ويدور ويطن داخل رأسه .. « لماذا يكرهنى مختار ؟ »

والدته كانت دائما تنفى أنها الكراهية وانما هى عدم التفاهم .. وكان أحيـانا يميل الى تصـديقها .. فما أبعد أن يتفاهم ابن رجل بالغ الثراء يقطن قصرا فاخرا مملوءا بالرياش والتحف والخدم والحشم .. عدا المربية الاجنبيـــة التى تصحبهم فى السفر الى سويسرا للتصييف كل عام .. ويأكل أطايب الطعام فى صحاف وبأدوات طليت بماء الذهب مع ابن رجل بسيط لا يملك من متـاع الدنيـــا شيئا ، مع أن والدهما شخص واحد .. لـكنه فى بدايات حيـــاته كان الاول .. ثم انتهى بالاخير .. ! بيـد أنه فى أحيان أخرى كان يحس بما هو أضخم من صعوبة التفاهم .. المقت بعينه .. لماذا .. لماذا .. ؟

وابدا لم يستطع أن يجد الجواب .. رغم ان أسئلة كثيرة تولت الايام والشهور الاجابة عنها .. « تركوا السراى الكبرى بعد ان بيعت فى المزاد العلنى وفاء لديون عديدة » .. « تراكمت هـذه الديون وتعسر سدادها بعد خسارتهم الجسيمة فى البورصة » .. لم تكن المضاربة فى البورصة من أعمال الأب الاصلية .. قضى أغلب عمره فى تجارة الاخشاب وادوات المعمار حتى بدأ ابنه الاكبر يشاركه العمل وتوالت مشوراته الفبراء .. التى كانت آخرها المضاربة .. لم يكن الأب موافقا فى البداية :

ـ شىء لا نفهمه .. المضاربات غير مأمونة .. خاصة للبعيدين عنها ..

عارض كثيرا .. لكنه وافق أخيرا تحت الحاح مختار.. وحين انجلت المضاربة الاولى عن خسارة كبيرة .. ازداد تصميمه .. من أجل أن يعوضها .. وهكذا .. حتى كانت المضاربة .. أو الضربة الاخيرة .. التى ذهبت بكل شىء ولم تترك للأب سوى.. مجموعة من الديون .. لم يكف القصر الفاخر برياشه وأثاثه لتغطيتها .

زادت هذه الاجابات الاخيرة من طنين السؤال الاول فى نفس ممدوح .. أخذ يحدث نفسه :

ـ كان المفروض أن أكون أنا الذى يكرهه ويحقد عليه .

فعلا .. كان السبب فى حرمانه من أشياء كثيرة .. من سيارة فارهة تقله الى مدرسته بدلا من مشوار طويل يقطعه على قدميه كل يوم .. من اللعب الثمينة والهوايات المكلفة التى يحكى عنها أصحابه .. من الملابس الفاخرة .. حقا كانت ثيابه من قماش ثمين لكنها لم تصنع خصيصا له .. كانت فى أصلها ذات مقاس كبير .. ثم اختصرها مقص الترزى ..! وغيره وغيره .. لكن الذى حدث انه استفل الى حد كبير النصيحة التى توجهت بها زبيدة هانم الى زوجها بعد الكارثة بأيام قليلة :

ـ اسمع يا عبد المقصود .. مختار تعبان جدا وأعصابه متوترة بمايرة الشعور بالذنب .. فبالله عليك لا تزده .. أرجوك ألا تطرق أمامه موضوع المضاربات .. وأنه كان سبب المصيبة .. ذلك يعذبه اكثر .. أخاف عليه ان أنت فعلت أن .. أن .. يفكر فى الانتحار لا قدر الله ولا كان .

وافقها زوجها على عدم الخوض مع مختار فى هذا الحديث ..

ليس فقط لخشيته على ابنه ولكن لاقتناعه بعدم جدوى الحديث فى شىء وقع وكان .. أهم من ذلك .. كان يشعر فى أعماقه أن على عاتقه يقع جزء كبير من المسئولية .. وربما أكثر من مختار نفسه .. ربما كان عذر مختار طيش الشباب .. واندفاعه فما عذره هو ؟ صحيح الح مختار كثيرا .. كثيرا جدا .. لكنه أبدا لم يكن يستطيع أن يفعلها لو ظل هو يرفض .. ليته فعل ولكن. كما يقولون .. العائد فى الفائت نقص فى العقل .. وما حدث كان أولا وأخيرا .. ارادة الله التى لا راد لها .. لكل هذه الاسباب لم يؤلم عبد المقصود الصوفانى ابنه مختار أبدا بالحديث عما جرى وعن المسئول وراءه .. استغل مختار هذا الصمت من الجميع وراح يمسحها فى أخيه الطفل :

— هو وش الفقر الذى جلب على الاسرة كل هذا .. ومن سواه؟ طول عمرنا نتقلب فى العز حتى جاء هو وشب قليلا وبدأ يجرى فى انحاء السراى ففارت من وجهه !

فى كل مناسبة كان يردد هذه الكلمة ولم يحاول أحد أن يزجره أو يمنعه .. تجاهلا أم اهمالا ؟ ربما .. هدهدة لأعصابه المرهقة ، وتركه ينفس عما بداخله ؟ .. ربما أيضا .. لكنه ساق فيها وزاد ايذاءه لممدوح .. اغلب المرات كان يتعلل فى ضربه بأنه لا يذاكر كما ينبغى .. كما ينبغى لوش فقر لا ينتظر تركة يتعيش منها وانما عليه أن يعتمد على نفسه .. !

وكان يمكن ان يقر فى نفس ممدوح ان هذا صحيح ، وان مختار — بالتالى —يهتم به وقلبه عليه ، وكما يقولون .. لكل شيخ طريقة .. فلكل انسان أن يعبر عن اهتمامه وعنايته بالطريقة التى تروقه .. أو يقتنع بها .. أو يحسنها ، لولا انه فى أحيان أخرى كان يضربه اذا عاد من الخارج متأخرا فوجده ساهرا يذاكر:

— الا تعرف ان سهرك هذا يكلفنا كثيرا ؟ تلعب طول النهار ثم تسهر بالليل لندفع نحن مبلغا كبيرا للنور آخر الشهر ..!

وكأنه يدفع من جيبه .. أو كأنه يقضى الشهر بأكمله مرهقا فى العمل ليبدد ممدوح من كد عافيته .. !

ولكن .. من كان باستطاعته أن يقول له ذلك ؟.. والاب غائب عن المنزل اغلب النهار ، والأم ترى فى مثل ذلك القول زيادة فى عقد مختار وآلامه التى تحاول على العكس تضميدها .. وممدوح ؟ ..

كان الـكلام يصل حتى طرف لسانه .. لـكنه يعود ويقفل فمه عليه خوفا من زيادة الايذاء ..!

عموما لم يكن وحده يفعل ذلك .. الـكثيرون فى مصر أيامهـا كانوا مضطرين للسكوت على مضض وان كانوا من الداخل يغلون .. فقد بلغ الضغط والارهاب وكبت الحريات الى اقصى مدى.. ووصل الفساد والعفن فى جميع المصالح درجة التشبع .. وبلغ التفاوت بين الدخول حدا رهيبا .. فقر مدقع فى ناحيـة .. وغنى فاحش فى الاخرى .. العدالة الاجتماعية والحرية السيـاسية ونزاهة الحكم أصبحت كلها أساطير خرافية .. يد الملك وحاشيته تبطش بمن يجرؤ على كلمة حق .. والبوليس الـسياسى يتعقب الوطنيين .

ثم انبلج نور الفجر بقيام ثورة ٢٣ يوليو الجريئة .. التى جاءت فى وقتها تماما .. ولذلك استقبلها الشعب بفرحة عارمة .. أخذ الشباب يموج طربا ويعلن عن تأيـده للحدث السعيد بالمظاهرات الفرحة الصاخبة .. التى عمت جميع أرجاء القطر .

كانت مصر تعيش فى تلك الفترة أياما من أحلى أيامها .. الشعب كله .. عدا قلة ضئيلة من المستغلين أغلقت عليهـا أبوابها .. حزنا ونفورا ..

المدهش .. الغريب .. العجيب .. ان مختار كان مع الشعب الفرح السعيد .. بل كان من أوائل السعداء .. وكذلك ممدوح وان كان كل يغنى على ليلاه .. لم يكن يهم مختار كثيرا أن تعود للشعب حقوقه أو يتحرر من الخوف والاسـتغلال .. وكان هو الى وقت قريب من أساطين المحتكرين المسـتغلين .. لـكن كان لسعادته وحبوره سبب آخر أقرب الى طبيعته .

ان أحدا من قبل لم يستطع أن يجبر مختار على احناء راسه.. حتى بعد النكبة..لكن حماه لم يكتف بجعله يحنى رأسه .. بل مرغه بالرغام .. ! لم يعد بعد فقد ثروته مناسبا لمقامه العالى ولمصاهرته المشرفة .. واذن الا يبتهج لان الثورة ستأخذ ارضه لتوزعها على المعدمين ؟.. يبتهج تعبير غير كاف .. اجتاحته فرحة جنونية.. عنيف فى غضبه هادر فى فرحته .. « غدا تقترب رأسك من رأسى .. فى الارض يا عوض .. يا باشا .. سـابقا ! » فى كل مكان يذهب اليه يتغنى بمبادىء الثورة « المباركة » معددا مزاياها ..

مطربا افضالها .. ممجدا خطـــاها .. شغلته فرحته واحاديثه واجتماعاته عن .. ممدوح ، لم يعد يبحث عن هفوة له حتى يضربه .. أو عن مناسبة كي يسخر منه ويحرجه لذلك كانت سـعادة ممدوح مع المحتفين بالثورة .. النشوانين بقراراتها وان لم يكن فى سن تسمح له بفهم كل ذلك ولـكن .. يكفيه أنها جعلت مختـار يتلهى عنه بفرائس أخرى .. !

اوراق الخريف

عندما حدثت تلك الـكارثة للأسرة حمدوا الله أن كانت احدى شقق المنزل ــ الذى بناه عبد المقصود بك لزوجته فى أرضها ــ خالية .. والا لباتوا فى الشارع ..! ذلك المنزل الذى أصبح ايجاره هو كل موردهم الذى يعيشون عليه ، وفى الشـقة المقـابلة كانت تسكن الست شفيقة .. وسرعان ما تآلفت الجارتان ونشأت بينهما صداقة عميقة .. طويلة عريضة .. لم تعودا تغلقان بابيهما وكأن الشقتين شقة واحدة والاسرتين أسرة كبيرة .. حتى أدوات المطابخ لم تعد تعرف الى أى الشقتين تنتسب .. !

الوحيد البعيـد عن هـذا « المولد » كان مختار .. بينه وبين نفسه كان يخطط لاجلاء الست شفيقة عن المنزل .. حتى يأخذ هو شـقتها .. فلم تكن شـقتهم تكفى للجميع .. الوالدين وممدوح وشقيقتهم علية وأولادها وهو وزوجته وابنته .. وكانت عليـة تقيم معهم حيث أن زوجهـا المهندس الزراعى يضطره عمله للطواف اغلب ايامه فى العزب والـكفور المحيطة بالسويس فلا يعود اليها الا كل خميس وجمعة ..

وحتى اذا استدرك زوجها أن هنـاك فارقا بين السراى الكبرى والشقة المحدودة .. وبين امكانيات الوالد سابقا ولاحقـا فأخـذ زوجته وأولاده واستقل بسكن خاص فـكل الذى سيتوفر غرفة واحدة .. هل يمكن أن تقبل زوجته الاقامة فى غرفة واحدة وهى بنت الاكابر وسليلة العز ؟ فيللتهم لم تـكن تقل كثيرا عن سراى عبد المقصـود بك .. ومن ليلة المزاد اخذت أثاثها وذهبت الى بيت أبيها ..

لذلك انحصر كل أمل مختار فى شـقة يخليها بالمنزل.. والافضل أن تكون شـقة الست شـــفيقة حتى تكون قريبة من أسرته ..

كل الذى حيره هو .. هل يطلب منها ذلك وديا أو يلجأ للمحاكم ؟

ودخل المحاكم .. ليس ضد الست شفيقة ولكن ضد زوجته نفسها ..! فوجيء باعلان منها تطلب فيه الطلاق منه .. لمباذله .. كل ما ذكرته أو ذكره محاموها عنه من مباذل حدثت أيام اقامتها معهم فى السراى الكبرى .. حيث لم يكن يعود اليها كل ليلة الا قرب الفجر .. وكان المتوقع أن تقل هذه المباذل كثيرا .. أو تنقطع كلية لضيق ذات يده .. لكنها تجيء فى هذا الوقت بالذات .. وقت استقامته الاضطرارية .. لتذكر تلك المباذل وتطلب الطلاق بسببها .. وهى التى لم تضق بها أبدا وقت حدوثها .. ألم ترها وقتها ؟ غير معقول .. ربما كانت هناك عصابة أيامها غطت عينيها . عصابة من ذهب .. فلما ذهب الذهب ظهر العوار .. !

بدأت وفود الصلح تعلن توبة مختار واقلاعه عن كل ما يغضب بهيرة .. لكن بهيرة ، أو أهلها بمعنى أصح ـ فلم تقابل بهيرة احدا على الاطلاق ـ هم الين رسبوا فى ذلك .. تكلم الاب والأشقاء نيابة عنها فرفضوا كل الوساطات وكل الحلول .. ومنها أن يقيم مختار معهم فى فيللتهم ..

كان مختار يرفض هذه الفكرة التى اقترحها أحد أصدقائه بل يرفض حتى مجرد مناقشتها .. بعد القضية عرضها وعرض غيرها لكنهم هم الذين رفضوا كل الحلول واغلقوا كل الابواب !

وتركت القضية تأخذ مجراها .. واستطاع محامو بهيرة أن يثبتوا مباذل مختار ومجونه .. ولم يكن ذلك بالعسير .. فمن أفخر كباريه الى أحقر حانة بالسويس عربد بها مختار وكانت له فيها قصص وروايات ، فصدر الحكم أخيرا بالطلاق وبضم الطفلة الى أمها مع نفقة كبيرة قررتها المحكمة للأم والطفلة ..

بعد أيام من الطلاق .. حضر اليهم شوقي .. تكاد الفرحة تقفز من عينيه .. الثورة أعطت والده خمسة أفدنة ضمن قوانين الاصلاح الزراعى . فرح له عبد المقصود بك .. من قلبه .. فطيلة فترة اشتغاله عنده كاتبا بالشادر وهو مثال الامانة والتفانى .. رغم ذلك تردد كثيرا عندما دعاه ليحضر معه حفل تسلم أوراق ملكية الأفدنة الخمسة .. خشى أن يظن عوض باشا والد بهيرة انه حضر خصيصا كى يشمت به .. حيث الارض الموزعة فى ذلك

اليوم كانت ضمن المئات التى انتزعت منه لتعود الى أصحابها الفلاحين الذين رووها بعرقهم ..
مع الحاج شوقى ذهب معه .. وكان يوما لا ينسى .. رأى فيه المشاعر الصادقة تتفجر بالفرحة .. والأيدى المعروقة .. التى اخرجت الشهد من الارض السوداء تمسك بأوراق الملكية برعشة خفيفة وكأنها تمسك صكوك الحياة .. بينما تتعالى زغاريد النساء « يستحقون والله » .. قالها عبد المقصود بك فى نفسه .. أعطوا الارض عمرهم .. وهم بها أولى .

لكن يبدو أن مشوار عبد المقصود بك مع المحاكم الشرعية لم يكن قد انتهى .. عاد اليها مصاحبا ابنته فردوس .. مسكينة فردوس .. ربما كان مختار يستحق ما فعلته به أسرة زوجته.. نقد كان هو السبب فى كل ما حدث .. اما شقيقته فما ذنبها ؟ لم تكن هى التى ضايقت ولا حتى فكرت فى شىء من ذلك ، بل انها لم تكن موجودة — مجرد وجود — بالسويس وقت أن وقعت الواقعة ..

الناس معادن .. وقد كشف افلاس والدها عن معدن زوجها.. ارسلها لزيارة أسرتها وأرسل وراءها .. ورقة الطلاق .. ! لم تصدق الاسرة .. ففردوس لم تقل ابدا انها جاءت غاضبة .. كان الجميع يتكلمون وهى ذاهلة .. لا .. ابدا .. لم تأت غاضبة .. ولم تغضب منه قبل ذلك قط .. طيلة حياتها معه كانت مثال الزوجة المطيعة المخلصة .. وكان مثال الزوج المحب .

اكل ذلك كان لأجل هدايا والدها الثمينة — التى لم تكن تنقطع — وليس من أجلها هى ؟ .. لم يكن يبدو عليه ابدا أنه من ذلك النوع الجحود .. والا لتحوط والدها حتى وهو يرسل اليها هديته الاخيرة .. السيارة .. ولكتبها باسمها هى .. وليس باسم الزوج ..

رفض عبد المقصود بك أن يرسل وسطاء ليعرفوا سبب غضب الزوج ولماذا ؟ والسبب واضح .. تماما ، لكن مهلا.. سنرى.

اندفع الى المحاكم وكل رغبته أن ينتقم .. لابنته التى لم ترتكب فى حق زوجها — أو فى حق أى انسان — خطأ يبرر هذا التصرف

قال لها يوما وابنها على ركبتيه :

— لن تحملى الهم أبدا وأنا على وجه الدنيا .. انت — وابنك

من قبلك — فى عينى .. وتأكدى ان معزته عندى مثل معزة ممدوح .. وانت تعرفين مدى معزة ممدوح .

حمد عبد المقصود بك ربه عندما نقل المهندس شاكر زوج ابنته علية الى أسيوط .. ليس لكى تخلى مكانا لفردوس ولكن حتى لا تحس الاخيرة بحرج من تكدس الشقة الصغيرة بهم جميعا وبها وبابنها معهم .

« المصائب دائما لا تأتى فرادى » كان عبد المقصود بك يواسى نفسه ولكن .. هل اكتفت الاقدار ؟.. هموم ثلاثة أصبح ينوء تحتها .. وهموم ثلاثة أخرى بات يخشى وقوعها .. بناته الثلاث الاخريات .. علية ومنيرة وزوبة .. ماذا تخبىء لهن الاقدار ؟.. ما هى معادن أزواجهن ؟

حمد الله عندما وقعت الكارثة ، انها لم تحدث الا بعد أن زوج بناته الاربع .. فى عزه .. وجهزهن بأغلى الرياش والاثاث..

قال فى نفسه وقتها « لم يبق سوى ممدوح .. أعاننى الله على تربيته » لكن ها هى ورقة ثانية تسقط فهل تتبعها أوراق أخرى؟ هل جاء الخريف ؟ .. وتزداد حلكة السماء حتى بات يعتقد أن البحر لن يعود له هدوءه وأن السفينة لن تعود تتهادى كما كانت فى الايام الخوالى .. أبدا .

بين الحين والحين تهب رياح طيبة .. كتلك التى أتت بشوقى يوما وهو يحمل للأسرة ما لذ وطاب .. أول بشائر الارض الجديدة .. أقسم ان تكون لسيده السابق .. أيامه لا تنسى .. لكن ما أدهش عبد المقصود بك هو قول شوقى وملء صوته الفخر :

— كل هذا انتاج يدى .

سأله ضاحكا غير مصدق :

— هل تشتغل بالفلاحة الآن يا شوقى ؟

— بدون شك .. الا يبدو ذلك على وجهى الذى لوحته الشمس؟

— ولكن كيف تركت المدينة ؟.. لقد سمعت انك ظللت تشغل عملك عند الحاج رمضان الذى اشترى شادرى .. الا تضايقك حياة الريف .. بعد أن تعودت على العز ؟..

رد بسرعة :

— بل العز هناك .. الفلاحة مهنة أجدادى .. كرهتها عندما كانوا يعملون أجراء .. الآن أعمل فى أرضى وخيرها كله لى .. وكلما أعطيتها .. أعطتنى .

فرحت الاسرة كثيرا بالهدية وفرح عبد المقصود بك بمهديها .. من القلب للقلب رسول .. كما احبه الفتى أحبه هو .. على رقة حاله كان يعجب بأخلاقه وكم تمنى لو أن مختار كان على حيائه وأدبه ، قال لشوقي وهو يودعه :

— لا تتصور كم تسرني زيارتك .. وكم تسعدني آيات السعادة المرسومة على وجهك كما لو كنت ابني .

— وأنت ، ويعلم الله ، في منزلة أبي ولك في نفسي معزته .

— انني لا أعجب أبدا أن تنجح زراعتكم وتعطي كل هذا المحصول .. فأنت بتفانيك في أي عمل تقوم به لابد وأن توفق .. وأنت والله تستحق كل خير .

قسوة وحنـــان

الـكل يعاني .. من أكبر كبير في المنزل حتى أصغر صغير فيه.. بل وبالذات أصغر صـغير .. ممدوح .. ظن الجميع أن تحرش مختار به سيقتصر على الايام أو الشهور الاولى للنكبة .. ثم يمل .. ينصرف لشئونه .. يمتص تعود الحياة الجديدة سخطه .

لكن سنوات تمر وهو لا يزال ينـــاديه بذلك اللقب .. وش الفقر .. وممدوح ؟ بدأ سؤاله الملح يتوارى في ركن من تفكيره .. بدأ ينسى همومه في المذاكرة .. صبر على الايذاء وانصرف بكليته الى دروسه حتى جاء اليوم المشهود .. أول يوم يفرح فيه منـذ « يوم الاجراس » المشئوم .

عاد الى المنزل ويده في جيبه .. مطبقة على كنزه .. لا لم تكن ماسة كتلك التي سمع أن والده أهداها الى والدته يوم انجبته له بعد شوق طويل .. فرح من قبل بذرية كثيرة .. لكن فرحتـــه بممدوح كان لها طعم آخر .. أنجب مختار بعـد زواجه بشهور ودلله هو وأمه تدليلا فاق كل حدود .. كل طلبـاته مجابة .. مهما كانت .. بمجرد طلبها .. وأحيانا قبل أن يفعل .. ثم جاءت بعده البنات .. أربع وكلما رزق بابنة ازداد دلال مختار وطغيانه واستهتاره بـكل شيء.. وكل شخص .. أليس الاول.. والاخير؟ وبدأ يسهر ويشرب ويلعب .. وأمه تداري عليه .. لكن الاخبـار تتناثر .. حتى تصل الاب .. حاول اصلاح فساده .. جاءت محاولاته متأخرة .. ينكر بتبجح كل ما يواجهه به أبوه رغم فوح رائحته ..

بعد سنوات من العبث .. ضاعت هباء .. ترك مختار الدراسة وبدأ يساعد والده فى الشادر .. عمد للاتصال بالعملاء وعقد بعض الصفقات والاب يتغاضى .. فكل شىء سيكون له فى يوم من الايام والافضل أن يمارس العمل مبكرا حتى يألفه .. كل شىء اذا زاد على حده انقلب الى ضـــده .. طيبة الوالد وتسامحه زادا بعض الشىء .. فسرهما مختار بأنهما ضعف وازدادت بالتالى قوته هو ..

العضلية والعملية .. وكل يوم يحاول زحزحة والده درجة .. لم يعد مضطرا أن يدارى انحرافه .. أيضا لم يعد فى وسع الاب سوى أســداء النصح .. حتى نصائحه الغاليات كان يقابلها بالضحكات الساخرة .. كف عنها .. بدأ الندم يأكل صدره .. أنا الذى أفسدته بتدليلى وأجابة كل رغباته والتغاضى عن بعض هفواته .. آه لو عادت عقارب الساعة الى الوراء .. آه لو كان لى ابن آخر .. لأنشأته احسن تنشئة ، لجعلته شيئا آخر غير مختار ، شيئا آخر بالمرة ..

وجاء ممدوح .. لذلك كانت الفرحة العظيمة .. منحته الاقدار فرصة قلما تتيحها لاحد .. اعادة القيام بتجربة فشل عندما قام بها أول مرة .. نجح فى الملحق .. حقا لم يصبح ممدوح رجـلا بعد ولكن المقدمات تشى بالنتائج ..

هل السبب سياسة الاب الحكيمة هذه المرة ؟.. هل هى طبيعة ممدوح الخاصة .. ولد بها ؟ .. هل كان ضيق ذات اليد هو الذى منع أخوان السوء من الالتفاف حوله ؟ .. اذن فحتى الفقر يكون له مزايا .. أحيانا ..

المهم ان ممدوح شىء آخر غير مختار .. وها هو كنزه داخـل جيبه ويده مطبقة عليه .. شهادة اتمام الدراســة الابتدائية .. بتفوق .. الاول على منطقة القناة كلها .. !

وفضـــل أن يذهب بها أولا الى مختار .. ليس الامر نوعا من التحدى .. موضوع مختلف .. أبوه وأمه يحبانه ويقـدرانه ..

أما مختار .. ترى هل يبدى له اعجابه ؟ .. هل يهنئه ويقرظه ؟ هل سيكف بعدها عن مناداته بوش الفقر ؟ ..

كان فى منتهى السعادة ليس فقط لنجاحه ولـكن لان ذلك قطعا سيحمل مختار على البشاشة فى وجهه وربما .. تقبيله .. كان يريد أن يحدث ذلك ولو مرة واحدة وهو فى تمام يقظته ووعيه ..

المرات القليلة التى تبدى فيها شعوره الاخوى تجاهه لايعيها تماما .. مثل اليوم الذى فتح فيه عينيه ليجد نفسه على كتف .. مختار .. ! وادرك ان النوم لابد غلبه وهو يذاكر .. سيضربه.. قطعا .. ولكن .. ترى لماذا لم يفعل ذلك مكان ضبط الواقعة .. فى الصالة ؟ وعاد يغمض عينيه فاذا بمختار يخلع عنه سترته .. ثم يعود فيلبسه منامته .. وبعد ان غطاه جيدا بالبطاطين وقف بجواره لحظة طويلة .. لم يره فيها لكنه كان يحس بأصابعه تتخلل شعره .. ثم .. قبله قبل أن يطفىء النور !

فى الصباح خيل اليه أن الامر كله لا يعدو أن يكون حلما سعيدا .. لكنه وجد كتبه وأدواته لا تزال فوق مكتبه بالصالة .. وذهب الى مختار يحاول أن يجرى معه أى حديث ليشكره لكنه نهره قبل أن يبدأ .. !

وايضا حين أصيب بالتيفوئيد .. مرات كثيرة سمعه يؤنب شقيقته فردوس ووالدته نفسها لعدم دقتهما فى مواعيد أدويته .. اخيرا طلب من فردوس ان تذهب للنوم فى غرفته واحتل هو سريرها مع ممدوح .. لم يعد يسهر بالخارج .. سهراته كلها أصبحت بجوار سرير المريض .. تولى هو جميع أدويته وطعامه .. كان الالم والاسى يبدوان عليه اذا اشتد على شقيقه المرض .. ولا ينسى فرحته يوم زال عنه هذيان الحمى .. أهداه دراجة صغيرة كان يعتز بها جدا لانها الشىء الوحيد الذى بقى له من لعب ابنته أو أى شىء يخصها ..

كان هذا أحد الامور الغريبة أو المتناقضات فى حياة مختار.. أقسم الا يرى ابنته طالما هى مع أمها .. حتى تبلغ السن التى يحق له فيها أن يضمها اليه .. لكن لم يقدر له قط أن يفعل .. لقد ماتت وهى لا تزال طفلة صغيرة .. فى عمر الزهور .. طيلة السنين التى مرت عليها وهى فى حضانة والدتها لم يطلب رؤيتها مرة واحدة .. أو حتى حاولها ! مع ذلك رآه ممدوح يوما - وكانت سناء لا تزال على قيد الحياة - يحتضن دراجتها ودمعة على خده

.. دهش يومها .. أين كانت تلك الدراجة ؟ .. وطلب من مختار أن يعطيها له لدقائق لكنه نهره بشدة .. بل لم يسمح له حتى أن يلمسها .. بعد ذلك أودعها مكانا ظل خافيا على ممدوح رغم كل محاولاته للبحث عنها .

بعد شفائه من الحمى أعطاها له .. هدية خالصة .. كان يحمله من سريره ليضعه عليها دقائق .. ثم يعود فيحمله اليـه بحرص شديد .. خوفا من النكسة .. !

كم كان ممدوح سعيدا أيامها ولـكن .. هل حدث كل ذلك حقا أو هى تخيلات الحمى ألبستها والدته ثوب الحقيقة القشيب كحلقة فى سلسلة محاولاتها لاقناعه بحب مختار له ؟ ..

عقدت الدهشة لسان ممدوح عندما علم يوما ـ بعد شـفائه ـ أن وفاة سناء كانت اثر اصابتها بالتيفوئيد وهو يتساءل عما يعنيه ذلك .. وعاد يتذكر بذهول صور حنانه عليه خلال اصابته بذلك المرض وان كانت صور الحنان تلك باهتة فى مخيلته بعكس صـور قسوته ـ واحداها فى ذلك اليوم الذى سلمه فيه شهادته ـ كانت شديدة الوضوح .

ما كاد يطلع على الشهادة حتى ثار وكومها فى يده كأنه يسحقها .. ثم طوحها بطول ذراعه قاصدا قذفها من الشرفة وان وقعت على عتبتها .. أسرع ممدوح يلقى بنفسه عليها محاولا حمـايتها بجسمه مما قد يفعله بها مختار .. ذهب الى أمه شاكيا :

ـ هل تسعون فى المائة .. تقدير سيىء ؟ ..

وحملت سـؤاله وذهبت به الى مختـار .. رددته له كرجع الصدى .. زعق :

ـ بل هو تفوق.. وكنت أحثه على المذاكرة طول العام كى ينجح فقط .. هل تعلمين ما يعنيه تفوقه ؟ .. يعنى انه سيدرس بالمجان فى اعدادى وثانوى ويأخذ منحة شهرية حسب الوصية التى تركها عمران باشا صاحب المدارس .

شهقت الأم وقد أضاعت السعادة تقاطيعها الا أن مختار استطرد بهياج حاول به أن يمحو مشاعر الفرحة التى سطعت فى وجهها :

ـ ممدوح الصوفانى .. ابن عبد المقصود بك الصوفانى يأخـذ منحة من أحد .. ؟ لم أخطىء أبدا حين نعته بوش الفقر .. طيلة دراستى لم أر تلميـذا يتفوق سوى أولاد الصعاليك والاوباش.. سيجلب علينا هـذا الولد العار يوما بعد يوم .. كان يصبح أكرم لنا وأشرف أن ينقطع عن الدراسـة ـ اذا لم نـكن قادرين على الصرف عليه ـ من أن يدرس بالمجان ويمد يده لهبات المحسنين !

هل كانت النعرة الكاذبة حقـا سبب ثورته ؟ .. أو تلك الكراهية

التى حار ممدوح فى تعليلها ؟.. يوما كان داخلا غرفة والدته فسمع مختار يكمل حديثا لم يسمع بدايته :

ـ من هـذا ترين أن لا احد يشعر بى .. اننى اختنق فى هذا البيت الحقير .. كمثل حوت ضخم فى ترعة صغيرة .. !

طلب ممدوح من أمه أربعة قروش لشراء كشكول فأعطته خمسة .. ابتسم وشكرها ، وهو خارج أكمل مختار حديثه بصـوت لم يحاول قط أن يخفت منه :

ـ وش الفقر هذا .. الذى يفرح جدا بالشلن .. لا يزيد على سردينة ضئيلة ترى فى ذات الترعة الصغيرة بحرا عظيما ..!

وتمتم ممدوح فى سره :

ـ أرجو أن تـكون استعارتك التشبيه بالاسماك مقصورة على الاحجام دون الطباع .. حتى لا تفـكر فى التهامى .. !

هل لهذا كان يكرهه .. لانه يستطيع التلاؤم مع حياتهم الجديدة فيحس بالرضا بينما يعيش هو ممرورا بالحاضر .. محسورا على المـاضى ؟ أم انه كان مقتنعا حقا فى دخيلته انه منحوس دخل عليهم الدنيا والشؤم تحت ابطه ؟.. أم هى عملية اسقاط يريد بها أن يبعد عن نفسه مسئولية دفع الاسرة الى مهاوى الفقر والتعاسة.. أم هى طاقة من السخط تضغط عليه فلا يجد فيمن حـوله من بمقدوره أن يفرغها فيه غير ممدوح ؟.. ومن سواه ؟ الاب والام ؟ غير معقول .. فردوس كان يرعى خاطرها دائما ولا يجرؤ على تـكديرها حتى تتحفه بمبلغ من نفقتها بين حين وحين .. بل حتى الخادمة .. لم يكن يستطيع ايلامها والا لما ظلت فى منزلتهم ويكفيها انها تعمل بذلك الاجر الضئيل ..

بدأ ممدوح ينسى همومه الشخصية وسط هموم بلده .. أواخر عام ٥٦ .. كبر وأصبح يحس بما حوله .. ثلاث دول .. أو حتى لنقل دولتان ودويلة .. يعبئون كل قوتهم ضدنا ؟ يظنون مقدرات الشعوب فى أيديهم فيمنحون ويمنعون ؟ .. تبا لهم ولجيوشهم ..

بورسـعيد ـ جارتهم الحبيبـة ـ تستبسل فى الدفاع .. وجموع من شـباب السويس تنزح الى هناك للاشتراك فى المقـاومة .. يهتف ممدوح من قلبه « الله معك يا بور سعيد » ، كم تمنى لو ذهب ليقوم بدور .. لـكنه موقن من رفض والده .. وحتى المقاومة الشعبية .. لن تقبل ابن الحادية عشرة .. هو معهم بقلبه .

رغم الدعوات والبطولات تسقط المدينة الباسلة .. الكثرة تغلب الشجاعة .. ثلاث دول .. ولاول مرة يرى دمعة تفلت من عين ابيه .. هذه الدموع التى استعصت عليه « يوم الاجراس » الهائل .. عندما حدثت ضربة افلاسه .. تجرى اليوم .. الضربة موجهة للبلد كله .

حتى مختار .. كف عن الضحك والزعيق .. أصبح يدخل ويخرج فى هدوء .. يفتح الراديو ساعة نشرة الاخبار .. ثم يغلقه .. بدون تعليق .

لكن لا .. كما يلفظ الجسم أى عضو غريب ستلفظ بورسعيد الدخلاء وتظل شامخة .. هى التى نالت منكم ولم تنالوا منها شيئا .

وخرجوا مدحورين .. وانكبت بور سعيد تضمد جراحها الابية خلال الشهور التالية .. أما الحياة فى السويس فتعاود سيرتها الاولى .. قليل من أهلها من اخذ من دروس ٥٦ العبر .. لم يكن منهم مختار .. عاود تسليته الوحيدة فى مناوشة ممدوح .. !

ظالم ومظلوم ...

ممدوح كان يقدر ظروف مختار وعقده ونفسيته التى تغلى كالبركان .. لذا لم يكن يرد اساءاته بمثلها .. وهل كان يستطيع؟ المرة الوحيدة التى آلمه فيها لم يكن يقصد .. لم يظن أبدا أن فى ذلك الاقتراح كل هذا القدر من الاهانة والتحقير اللذين تصورهما مختار .. أن يعمل .. منذ فقد الاب الشادر والسراى وممدوح يسائل نفسه « لماذا لا يعمل مختار ؟ » ولولا هذه الرعشة الخفيفة فى يد الاب .. تلك التى لازمته منذ افلاسه لتوقع ان يعمل الوالد أيضا .. اذن لنترك الوالد المريض جانبا .. لكن مختار .. قوته لا تقل عن ثور الوسية .. لكنه لا يفعل شيئا .. سوى الاكل والشرب والنوم .. والشخط والنطر .. ثم الجلوس على المقهى يلعب الطاولة .. حقا لم يحصل على شهادات .. لكنه يستطيع ان يعمل أى شىء .. أى عمل .. ليس عيبا .. والعيب الاكبر هو تعطله .

طبعا هذه كانت وجهة نظر ممدوح .. أما مختار فلا أحد يدرى ما بداخل هذه التركيبة العجيبة ، واذا كان أحد من الكبار

لم يجرؤ على توجيه هذا السؤال له فهل يفعل ممدوح ؟ .. كان فى غنى عن مزيد من الايذاء من مختار .. لكنه فعلها فى ذلك اليوم . ولم يقترح هذا الاقتراح الا عندما وجد مستقبله مهددا بالضياع .. رغم دراسته بالمجان فقد كانت للمدرسة طلبات كثيرة .. بدأ الوالد يكل منها حتى صرح له ذات يوم بعجزه عن شراء الادوات التى طلبها حيث ان طلبات مختار المتعددة تستقطع جزءا كبيرا من ايراد الاسرة المحدود ، ولم يستطع كتمان احتجاجه .. مسألة مستقبل :

ـ هل طلبات مختار على المقهى مفضلة على مطالب دراستى ؟ لماذا لا يعمل هو حتى يتكفل بنفقاته ؟ ..

وكأنه صفعه على وجهه .. بل كأنه كفر ..! ثارت ثائرته بصورة جنونية :

ـ اعرف انك وش فقر لكنى لم اتصور ابدا ان تفكر فى هذا. انا .. انا مختار الصوفانى اعمل ..؟ هل تدرك ما تقول .. ؟ ماذا يقول عنى أصدقائى .. والبلد كلها تعرفنا تماما وتحترمنا رغم كل ما حدث ..؟ قسما بالله العظيم .. بعد تهجم هذا الولد .. وش الفقر على واهانته لى .. لن اعيش معه فى منزل واحد .. انا .. أو هو ..

وقال والده :

ـ بل هو .. ما زال فى حاجة للرعاية .. انت كبير وتستطيع فعلا أن تعول نفسك ..

لم يكن الوالد يتصور أن مختار سوف يعول نفسه بهذه الطريقة.. بيع شبابه واسمه لامراة سيئة السمعة .. هو يقول « كانت » ولا احد يستطيع ان يجزم اذا كانت حقا قد استقامت أم انه هو يمنحها هذا اللقب من عندياته .. من باب التفخيم .. !

كانت صدمة هذه الزيجة على والده شديدة جدا .. بدا واجما لا يجد لديه شهية للأكل ولا للكلام ، من جهة أخري انزوى ممدوح بعيدا عن والده ووالدته .. وحتى عن فردوس .. هل كتب عليه أن يكون سبب كل مصيبة تحدث فى هذا المنزل ؟ ..

فى المرة الاولى لم يكن له أى دخل .. مع ذلك ظلمه مختار.. اما هذه المرة فهو السبب .. حقا كان السبب غير المباشر .. لكنه السبب والسلام .. يشبه حزن أمه وبكاؤها على ما أتاه

مختار حزنها « يوم أجراس المزاد » .. اما الاب فصدمته اكبر.. على ما يبدو .. !

ليته ما نطق هـذه الـكلمة .. اكانت كلمة أم قنبلة .. نسفت كل شيء .. لم يعد يقبل على كتبه ودراسته بنفس حماسه السابق .. دراسـته كانت السبب .. حتما كان الوالد سيتصرف .. بأى طريقة .. ليشترى الادوات والـكتب .. لم يكن ليخرجه من المدرسـة . والشيء الوحيـد الذى كان يدخل السرور الى قلبـه فى حيـاته الجديدة .. تفوق ابنه فى دراسته ، كان فى وسـعه أن يصبر حتى أول الشهر .. أو يستعير الكتب من المـكتبة والادوات من أحد أصدقائه .. كان وكان ... ليته ما كان .. ليته ما جاء الى هذه الدنيا ..

يبدو أن مختار كان محقا حين نعته بوش الفقر .. وش فقر حقا .. كلمة منه تهدم الاسرة .. ولـكن لا .. ظلمه مختار .. فهل يظلم نفسه أيضا ؟ ماذا كانت تعنى كلمتـه ؟.. وما العيب فيهـا .. مختار هو الذى أخطأ وهو الذى تهور وتبجح .. ولم يبال ان كل ذلك كان امام والده .

لابد ان يقول لوالده ذلك .. ليس هو المسئول .. أبدا .. يريد أن يصرخ فيهم جميعـــا .. أبيه وأمه وشقيقته .. وباقى الشقيقات أيضا ..عندما يحضرن للزيارة .. « لست السبب .. لست السبب » لكن أحـــدا منهم لم يتهمه أبدا بتلك التهمة حتى يرد عليهم .. ليتهم يواجهوه بما فى أنفسهم .. ليت أحدا منهم يوجه اليه الاتهام صراحة .. ولـكن .. متى وكيف ؟ يتحاشاهم دائما .. حتى على مائدة الغداء .. يعتذر باستمرار .. وفى كل مرة يختلق عذرا مختلفا .. عنده صداع .. ليس جائعا بعد .. عنده مذاكرة مهمة .. وغير ذلك من حجج وتعللات ، وبعـد أن يتغدوا جميعا .. يذهب هو .. أو ربما كان الاصح يتسلل .. ليأكل وحده .. !

حتى جاء يوم .. اعتذر كالعادة .. فوجىء بوالده يترك المائدة ويحضر اليه بنفسه .. على وجهه علامات الاستنكار .. حادث نفسه :

— لماذا هذه النظرات ؟.. انت مصمم على اننى السبب ؟ ..

ظل الوالد صامتا يحدجه لدقائق ثم صاح أخيرا :

— وبعد .. يا ممدوح .. ؟
هتف ممدوح بتوسل :
— لم أرد ذلك أبدا يا أبى .. وحتى لم اتوقعه ..
— عم تتحدث ؟
كانت فرصة انتظرها طويلا .. أن يفتح الموضوع احد .. أى أحد .. ليدافع عن نفسه .. فانطلق يتحدث بسرعة .. وحرارة :
— عن مختار ومغادرته المنزل يوم ...

وقاطعه الاب نافد الصبر :
— وما شأنك أنت بمختار ؟ ..
— ألم اكن السبب فى خروجه من المنزل ..؟ لـكننى ..

ومرة ثانية يقاطعه الاب صارخا باستنكار اكبر :
— انت ؟ .. لم تكن السبب أبدا فى شىء .. انك تحمل نفسك فوق ما تحتمل ..
— فـكرت فى الذهاب اليه لاسترضيه واعتذر اليه واعود به .. ولمـا كنت لا أعرف أين يقيم فقد سألت الاستاذ صادق زوج أختى زوبة .. لـكنه أكد لى بدوره انه لا يعرف مكان اقامته .
— ولـكن كيف تفعل ذلك ..؟ انا لا أحب لك أن تذهب أبدا الى هناك .
— أردت أن أرضيك ووالدتى بعد اذ تصورت انـكما ساخطين على فى قرارة نفسيكما لاننى باستفزازى اياه تسببت فى ضياعه .
— انت لم تضيع مختار .. هو الذى ضيع نفسه .. وأنا لم أفقده الآن فقط .. لقد فقدته من زمان .. وخروجه من المنزل الى تلك المراة .. وضع للنقط فوق الحروف .. وهو أفضـل للجميع .. مع ذلك .. وحتى أهدىء خاطرك .. اخبرك اننى أرسلت اليه باستعدادى لقبوله فى المنزل اذا ترك تلك المراة والا فلن يدخل منزلى اطلاقا . حتى فى غيابى .. وأنا وامه .. بل والاسرة كلهـا بريئون منه .. فلم يرد على رسـلى سوى بضحكته الصاخبة .. تعال يا ممدوح .. أنت فقط الذى لا أريد أن أفقده ..

ولم يستطع ممدوح أن يحبس دموعه فتركها تسيل على صـدر والده الحنون ، عندما غادر غرفته عرف السبب فى قدوم والده وفى أمارات الاستنكار التى كانت تزحم تقاطيعه .. على المائدة وجـد شقيقته زوبة .. وزوجها الاستاذ صادق المحامى .. قطعـا أخبر

والده بسؤاله عن مكان مختار .. وحمد الله أن أخبره هو .. من تلقاء نفسه بكل شيء .

بعد نقل المهندس شاكر الى أسيوط لم يعد يقيم معهم فى السويس سوى زوبة .. حيث عزت بك ــ زوج منيرة كبرى الشقيقات ــ يقيم فى القاهرة بصورة دائمة بعد أن أصبح عضو مجلس ادارة الشركة .. وهو رجل ممتاز .. الجميع يتنبأون له بأنه سيصبح فى القريب رئيس مجلس الادارة .. ممتاز فى أخلاقه أيضا .. لم تتغير معاملته لزوجته ولا مشاعره تجاه أسرتها بعد أن فقد رب الاسرة كل شيء .

لا والحق ان الاستاذ صادق والمهندس شاكر لم يتغيرا أيضا الا ان عزت بك كان أفضلهم .. كأن معزة حماه وحماته زادت أضعافا .. أصبح دائم السؤال عنهم .. وكأن المسافة بين القاهرة والسويس فركة كعب .. أما ممدوح فكان حبه له حديث الكل .. يهتم بأخباره وامتحاناته ويشجعه ويستحثه .. كأنه ابنه البكرى .. هو الوحيد الذى كثيرا ما أوقف مختار عند حده اذا ما تهكم عليه .. لذلك كان ممدوح يفرح بقدومه اليهم كفرحته بليالى العيد .. قال ممدوح لزوبة على مائدة الغداء :

ــ لم نعد نراكم كثيرا .. يخيل الى اننا نرى أبله منيرة وأونكل عزت أكثر منكم .. !

رد عنها الاستاذ صادق :

ــ كنت مشغولا فى انتخابات النقابة .

ــ واذن .. هل تقول مبروك ؟

ــ بالتأكيد .. وقد جئت اليك خصيصا كى تقولها لى .. عقبالك يا ممدوح .. هل تريد أن تكون محاميا ؟

ــ لولا تعلقى بالهندسة لفكرت أن أصبح محاميا .. مهنة رائعة الدفاع عن المظلومين .. انها تشعرك بالسعادة والرضا عن نفسك . المظلومون كثيرون .. فى هذا العالم أغلب الناس اما ظالم واما مظلوم .. ونادرا ما ترى شخصا لا هو من أولئك ولا هؤلاء .

وصاح الاستاذ صادق مدهوشا :

ــ ألا ترى ان هذه الفلسفة كبيرة عليك يا ممدوح ؟ ..

ــ أولا يا أستاذ صادق هذه حقائق وليست فلسفة .. أما عن كونها كبيرة على فأعتقد اننى لم أعد صغيرا بعد .

امسك الوالد بأوراق ممدوح التى تعلنه فيها كلية الهندســـة بقبوله طالبا بها وتنهد :

ـ الحمد لله الذى مد فى عمرى حتى رايت هذا اليوم .. بهذه الاوراق قدمت لى الاقدار أكبر ترضية عن كل اساءة أو غدر أو تنكر وجهته لى طول حياتى .. وهذه أعظم هدية قدمها الى انسان يا ممدوح .

ـ رويدك يا أبى .. كيف تـكون هـذه أكبر هـدية ؟.. انتظر لتقول ذلك على بكالوريوس الهندسة .

ابتسم الاب ابتسامة غامضة :

ـ كأن هذه تلك يا ممدوح .. ما دمت وضعت قدمك فستسير باذن الله .

وقبل ممدوح يد والده ووجنته :

ـ بفضل رضاك يا أبى .. سأصل الى ما أريد ..

فى اليوم التالى ذهب عبـد المقصود بك لزيارة ابنته زوبة .. وعاد فى المساء .. صعد حتى باب شقتهم بالدور الثالث ثم أخرج المفتاح .. وقبل أن يضعه فى الثقب أحس بهبوط مفاجىء .. ولم تعد ساقاه قادرتين على حمله .. جلس على السلم ونقر على الباب بالمفتاح .. فتحت فردوس مندهشة :

ـ أليس معك المفتاح يا أبى ؟.. ولـكن .. لماذا تجلس على الارض ؟ .. يا الهى .. ما بالك يا أبى ؟ الحقنى يا ممدوح .

تعاون ممدوح مع فردوس فى حمل الوالد الى سريره .. أسرعت فردوس الى المطبخ تعد كوبا من الشاى بالنعناع .. وأسرع ممدوح الى التليفون يستدعى طبيب الاسرة .. ثم عاد الى والده حيث كانت الام ترطب جبينه بالـكولونيا .. فأسرع يفك له الـكرافتة والحذاء والحزام وكافة الاربطة .. ارتاح الوالد قليلا .. أمسك بيد ممدوح وقال له فى كلمات متقطعة :

ـ أشعر اننى أحسن كثيرا الآن .. الحمد لله .

التفت الى زوجته وابتسم ابتسامة واهنة :

ـ ما بالك يا زبيدة .. ليس هكذا .. شدى حيلك .

ثم عاد يكمل حديثه الى ابنه :
ـ كل الذى اريده منك يا ممدوح .. أن تكمل دراستك .. وتأتى لتزورنى .. هناك .. وتقدم لى .. هديتك .. التى وعدتنى بها .. بكالوريوس الهندسة .. لا اريد فطيراً .. ولا زهورا .. شهادتك فقط .. يا ممدوح .

كان هـذا الاسم آخر ما نطق به .. وعنـدما جاءت فردوس تحمل كوب الشاى .. سمعت صرخـة والدتهـا .. فوقع كوب الشاى على الارض .

الخيط الذى انقطع ...

لم تـكد دموع فردوس على والدها تجف حتى عادت ، فقد كان فراق ابنها قاسيا على نفسها .. تركت الزوج والمنزل وكل شيء .. أصبح ابنها حيـاتها كلها لمـاذا يريده زوجها السابق ؟ وقـد تزوج من أخرى وأنجب منها .. هى لم تتزوج ولعاطف وحده كل حبها وعنايتها .. وشغلها الشاغل .. « عندك ما يشغلك فاتركه لى .. وقد تضيق به زوجتك .. أما هنا فالجميع متعلقون به ». لـكن الزوج السابق يرفض كل وساطة ورجاء وتوسل ودموع .. وكأنه لم يكفه ما سببه لها من جراح .. اندملت بفعل الزمن فعاد ينكؤها من جديد .. !

ورغم محاولات فردوس ومحاميها .. حكمت المحكمة للأب بضم ابنه .. بلغ سن الضم للأب .. ونصوص القـانون صريحة .. حاول ممدوح كمـا حاولت أمه التخفيف عن فردوس التى أصبحت تحس وكأن الدنيا بأكملها باتت تناصبها العداء .. الا يكفى ما تركه أبوها فى المنزل ونفسها من فراغ رهيب حتى ينتزع منهـا فلذة كبدها ؟.. أية عدالة هـذه ؟ وغدا يسافر ممدوح ليلتحق بكليته ويخلو المنزل على المرأتين تحتضن كل منهما أحزان الأخرى .

وجاء يوم السفر .. اليوم الذى تمنته وخشيتـه كل من الام والشقيقة .. عشية بدء الدراسة .. وكان وداعهما لممدوح حافلا بالمشاعر التى تفجرت من نفوس الجميع .. وهكذا خلا المنزل مرة واحدة من الرجال .. وكان هذا ايذانا بعودة مختار .. للتردد على المنزل .. قلب الام دائما يغفر .. كل شيء .

اقام ممدوح فى منزل شقيقته منيرة ملاقيا كل الترحيب منها ومن عزت بك .. واعتـاد أن يسـافر الى السويس كل خميس وجمعة .. أحيـانا وحده واحيـانا اخرى مع منيرة وزوجها .. كذلك حرصت زوبة والاستاذ صادق على الذهاب دائما الى منزل الام كل ليلة جمعة .. وكان الجميع يستقبلون ممدوح كأنه ضيف عزيز غال .. الا مختار .. !

وجد سببا جديدا للاحتكاك به .. وتهمة جديدة يتهمه بها .. هو الذى تسبب فى خروجه من منزل ابيه .. ثم فى غضب ذلك الأب عليه وقسمه الا يدخل المنزل طيلة حياته وتبرؤ الاسرة منه .

ويوشك الرد أن يخرج من فم ممدوح ليصفع وجهه :

ـ أنا .. ؟ ! أم فعلتك الذميمة ؟ .. يبـــدو انك قد استمرات جعلى شماعة .. تعلق عليها أخطاءك .

يؤثر عدم اثارة المشاكل له ولوالدته فى ليلة أجازته .. يترك له الحجرة دون أن يرد عليه .. !

فى اجازة العيـد حمل ممدوح معه كتبه حيث حددت الـكلية لامتحانات الدور الاول الاسبوع الذى يلى الاجازة مباشرة .. جلس مع الاسرة قليلا ثم دخل حجرته ليذاكر .. وجاء مختار .. جلس قليلا هو الآخر .. ثم سأل عن ممدوح .. هل أوحشه شـقيقه ام أوحشته المشاكسات ؟.. دخل اليه فى حجرته .. سلم عليه باشتياق ثم أبدى دهشته :

ـ تذاكر فى العيد ؟.. يا اخى متع نفسك ورفه عنها .. الى متى ستظل تذاكر ؟.. الا تحاول ابدا التخلى عن لقبك القديم..؟ الم تفكر مرة فى النظر الى فوق ؟ . .

ويجيبه باقتضاب :

ـ اننى دائما انظر الى فوق .. ولذلك اذاكر لاصل الى حيث انظر ..

ويقهقه عاليا :

ـ الذى هو فوق فى نظـرك وظيفة حكومية ببضعة جنيهات كنت ادفعها لماسح حذائى .. !

ويخرج من الغرفة وضحكاته تسبقه .. وممدوح ينظر فى آثره بدهشة .. ونفسه تضطرم :

ـ لم يعد يضربنى .. اصبحت رجلا تناهز اكتافى اكتافه ..

لكن لذعات تهكمه لاتقل ايلاما عن لذعات خيزرانته .. !

يهز كتفيه ويعو الى مكتبه .. نصب عينيه هدف أكد عزمه عليه ووعد والده به فى لحظاته الاخيرة .

وتمر الايام والسنون.. ومع مرورها تقرب ممدوح كل يوم خطوة من هدفه المنشود ، لم يكن ممدوح وحده الذى رسم لحياته هدفا آلى على نفسه أن يحققه .. زبيدة هانم أيضا كان يراودها أمل عزيز .. الحج الى بيت الله الحرام .. سنين طوال وهى تنتظر تحقيقه .. وأن لم يكن أملها فى ذلك كبيرا .. يحتاج الحج الى نفقات كبيرة .. ليست متوافرة .. لكن الله أذن وتحقق هدفها .. قبل هدف ممدوح ..

نزعت الحكومة ملكية قطعة من حديقة منزلها لتوسع الميدان المجاور ودفعت لها تعويضا مناسبا .. أرضت خاطر كل من مختار وفردوس بمبلغ كما اشترت لممدوح كل الادوات والاوراق التى يتطلبها مشروعه .. ثم سافرت الى الاراضى الحجازية المقدسة .

وعادت يغمر النور وجهها وان بدا عليها الهزال قليلا .. احضرت لاولادها وبناتها الكثير من الهدايا .. أهم من الهدايا دعت لهم جميعا هناك وهى تلمس الحجر الاسعد.. لمختار بالهداية ولفردوس بالعدل .. ولممدوح بالنجاح .. ولمنيرة وزوبة وعلية بهدوء السر، وبهذا أحست أنها حققت كل أهدافها وأدت رسالتها بالكامل .

فى السنة الاخيرة لممدوح بالكلية ازداد المرض على والدته .. فى كل أسبوع كان يراها قد ذبلت أكثر .. وان حاولت أن تتظاهر أمامه بالحيوية .. وبدأ الخوف عليها ينهش قلبه .. وأيد الاطباء مخاوفه .. أيامها معدودة ..

أرسلوا الى أولادها وبناتها حيث هم .. فحضروا .. وبينهم كلهم أولئك الذين وزعت عليهم قلبها وحبها وحنانها بالتساوى .. لا فرق بين كبير وصغير .. ولد وبنت .. مطيع وعاق .. أولادها وبناتها جميعا .. لفظت الحاجة الطيبة آخر أنفاسها ..

كأن حياة الام كانت الخيط الذى جمعهم طويلا .. فلما انقطع تفرقوا .. فى حياتها كانت معتادة دائما فى المواسم والاعياد أن تجمعهم حولها .. لابد أن يحتفل الجميع بالعيد معا .. وأن يأكلوا على مائدة واحدة .. مهما بعدت الشقة .. الجميع .. حتى المتزوجات فى القاهرة وأسيوط .. بعدها أصبح كل منهم منصرفا

الى حال سبيله .. ربمـا تمر الشهور دون أن ترى الواحدة منهن شقيقها او شقيقتها .. !

دعت كل من الشقيقات الثلاث فردوس للاقامة معهـا .. والحت فى ذلك وأصرت عليه .. وفضلت الاخيرة الاقامة مع زوبة والاستاذ صادق حتى لا تترك بلدها .. وان أصرت هى الاخرى على المشاركة بنصيب ـ ولو ضئيل ـ فى نفقات المنزل حتى ترتاح نفسيتها .

بعد شهور اجتمعتكلمة الجميع على بيـع المنزل .. الحقيقة الجميع عدا ممدوح .. لم يكن راغبا فى البيع .. بالاكثر من أجل مختار .. مقدرا أنه من الافضل أن يكون له ايراد يستند اليه.. لـكن مختار عندما سمع بذلك وجدها فرصة ليواصل اساءاته اليه :

ـ هو وش الفقر قلبه على ؟ ليقل ان قلبه على نفســه .. فالقروش التى يستحقها منه قد تـكفيه اما أنا .. فمن أين له ان يعلم كيف كنت أعيش .

ورد ممدوح على ابن الحلال الذى نقل اليه هذا الـكلام :

ـ بل اعلم .. تماما .. سمعت كثيرا عن ذلك .. سمعت أيضا أن الاربعين جنيهـا .. ايراد ذلك المنزل الذى ظللنـا منـذ « يوم الاجراس » البعيـد نعيش منه جميعا طوال الشهر لم تـكن تكفيه ليحرقها على مائدة القمار .. كل ليلة ! لـكن مالنا والمـاضي ؟.. خاصة بعد الاشاعات التى سمعتها من انه كاد يأتى على الثروة التى كانت قد جمعتها زوجته الثـــانية ، أما عن نفسى فاننى لا أخشى شيئا .. فحتى لو استهوتنى النقود فى يدى وأسرفت فان نصيبى من الثمن لا يمكن أن ينفد فى عام واحد .. هو كل المتبقى لى فى الـكلية ..

عموما رفضه لأى سبب لم يكن له قيمة .. فحفنة الشقيقات اللاتى كن يفصلن بينه وبين مختار انضممن اليه فى فكرة البيع ، لم تـكن احداهن بحاجة الى نصيبها من ايراد المنزل.. وأزواجهن جميعا ذوو مراكز محترمة ومرتبات كبيرة .

منيرة كانت تجهز ابنتها .. وعلية تريد أن تحج .. وزوبة ترغب فى أن تشترك مع زوجها فى بناء منزل يخصهما ولم يكن المبلغ الذى بعده للبناء بكاف وحده .. حتى فردوس العزباء .. كال يخايل خاطرها الزواج من جديد .. وبالفعل تقدم لها أكثر من شخص

مناسب الا ان الجهاز كان محتاجا لمبلغ كبير لم يكن موجودا وقتها. وكان مطلقها قد استولى بحيلة دنيئه على اثاثها الاول الذى جهزها به والدها .

واذن فكل واحدة منهن كان لديها الدافع للحصول على مبلغ كبير لن يتيسر بغير بيع المنزل .. فباعوه .. وهكذا صفوا آخر ما كان متبقيا لهم فى بلدهم .. السويس ..

بين اليأس والأمل ..

عندما أفلس عبد المقصود بك اعتبرت الاسرة ان هذه هى نكبة النكبات ومصيبة المصائب ، وسموه يوم الكارثة ، واصبحوا يؤرخون به لما قبله وما بعده ، فلما تزوج مختار المرأة اباها قالوا هذه مصيبة اكبر .. ثم عندما احتلت بور سعيد عد ذلك اكبر واكبر حتى لم يظن ممدوح أن قائمة الكوارث يمكن ان تحوى المزيد

حتى جاءت نكسة ٦٧ لتصفع كل مصرى صفعة ظل يدور معها أياما وشهورا وهو غير متمالك لتوازنه .. كانت ضربة أصابت الرأس والقلب والكرامة .. وكافة المشاعر .. ضربة لم تقتل المواطنين .. فقط سلبت منهم الروح .. جعلتهم يتحركون كآلات

ممدوح كان مع الفريق المؤمن ببلده وشعبه .. يستطيع أن يتخطى الصعاب .. كلها .. اذا كان الاخلاص رائده ، أكثر ما كان يدهشه فريق من الشباب أصابته النكسة بنوع غريب من اللامبالاة واللا انتماء .. لا هم مؤمنون ولا ساخطون .. يضحكون ضحكات جوفاء لا طعم لها ولا روح ، فى أول الامر عمد الى محاورتهم أملا فى اقناعهم :

ـ لسنا أول من هزم .. حتى الهزيمة لها مزايا .. أحيانا .. تشعل فى النفوس روح التحدى لاستعادة ما ضاع وما احسبنا الا فاعلين .

ضاق بهم وبعبثهم الذى جعلوه دينا ومذهبا وقرر الا يجادلهم .. لتتول الايام والاحداث ذلك ، عموما كان مضطرا للعودة الى القاهرة ليؤدى امتحان البكالوريوس .. نجح .. وتفوق .. امتياز مع مرتبة الشرف الاولى .. وضمن التعيين معيدا فى الكلية .

أصبح التفوق بالنسبة له عادة .. حتى لم يثر كثير فرحة.. خاصة والبلد فيها ما فيها .. والاب والام غائبان .. لو أن اباه كان موجودا ما كانت أعظم فرحته .. يكاد يراها تضيء وجهه الحبيب الذى لا يغيب ابدا عن خياله .. لو أن أمه كانت موجودة لاقامتها وليمة كبرى تدعو لها الشقيقات من كل جهة .

اقتصر شبه الحفلة الصغيرة التى أقامتها منيرة عليه هووزوجها وأولادها .. وفى اليوم التالى كان فى السويس يزور قبر والديه.. ليقدم اليهما هديته .. كما وعدهما .. عرج قبل عودته على زوبة وفردوس .. سأل عن مختار فردت زوبة :

ــ منذ كنا فى الشهر العقارى نسجل للمشترى .. بعد أربعين أمى لم أره .

ــ ربما ظن ان الاستاذ صادق لا يريده .

ــ كان ذلك فى حياة والدى .. تضامنا معه ، لكننا فى أثناء تردده على أمى كنا نلتقى به هناك ونسهر معا .. صادق فى الحقيقة لا يحبه ولا يرحب به كثيرا الا انه طبعا لم يقل له ذلك.. مع هذا فهو الذى لا يحضر الينا .. !

ــ كان بودى أن أراه .. فلا أعلم متى احضر مرة اخرى .. عموما اذا رأيته .. بلغيه سلامى .

بعد عودة ممدوح الى القاهرة بأيام تلقى من مختار برقية تفيض برقيق التهانى والامانى وتعتذر بعدم امكانية الحضور ليقدم تهانيه بنفسه .. ! أسرع ممدوح بالبرقية يريها لمنيرة وزوجها وابتسم عزت بك هازئا ..

وتمتم ممدوح :

ــ يخيل الى ان بذرة الخير فى نفسه موجودة .. لكنه لامر لا يعلمه أحد يحاول أن يئدها .. آه لو استطاعت التسرب من محاصرته ونمت وتفرعت .

تنهدت منيرة وهى تقول :

ــ ياريت ..

تجديف ضد التيار ..

لم يمض عام ونصف عام على تعيين ممدوح معيدا حتى أوفد الى الخارج فى بعثة للحصول على الدكتوراه .. هل كان من حسن

حظه أن قضى هناك أسوأ أعوام مرت على مصر فى تاريخها الحديث .. كى يبعد عن منابع الالم والمعاناة ؟ .. ام من سوء حظه .. حيث سمع ما يكره .. وطال الامد .. لكنه لم يفقد الامل .. أبدا .. حقا ضاق وتألم وشعر بمرارة لكن أمله سرعان ما كان يسعفه فيبتلع مرارته ويلعق جراحه .. موقنا أن شعب مصر لن يموت أبدا .. قد يكبو مرة .. قد يستهين فترة .. قد يغفو حينا .. لكنه سرعان ما يقوم من كبوته ويهب من غفوته .. كمثل دودة القز .. تنام داخل الشرنقة زمنا لتخرج متطورة فى خلق جديد .. تحلق ، صاح ذات يوم فى جماعة استفزته :

ــ الامر ليس بتلك السهولة .. ما نريده .. وننتويه يستحق ويتطلب الجهد والتدريب الشاق .. مسألة حياة أو موت وليست لهوا ولعبا .. ولا نزهة خلوية أو مبــــاراة كرة .. بل حتى اللعب نفسه يتطلب من الفريق الذى يريد الفوز ان يتــــدرب ويكافح ويستعد ويبذل الجهود .. ما بالـكم بحرب شرسـة ؟ وبدل أن تقولوا هــذا .. دعوا العدو لنا .. وحده .. وسترون ماذا يكون من أمره معنا أو من أمرنا معه ..

ناقش كثيرا وخطب كثيرا وحاور كثيرا .. بتصميم وصبر .. فقد كان كمن يحفر فى الصخر .. أو يجدف ضد التيار ، جاء مصر مرة واحدة فى اجازة بعد عامين .. فأحزنه حال البلد .. حتى كاد يفقد ايمانه ويضمه اليأس الى معسكر الساخطين .

لولا أن كان عائدا من زيارة مقبرة أبيه فى أطراف السويس وطال الطريق فى الصحراء .. حتى وجــد نفسه أمام احدى وحدات الجيش تتدرب تدريبــا شــاقا بصبر وجلد .. لم يضــايقه أن احتجزوه فترة ليتحققوا من أقواله .. الامارات التى رآها على وجوه الجنود ناطقة بالعزم والتصميم .. اعادت له الامل .. أو جزءا كبيرا منه .. وعاد الى أمريكا ليكمل رسالته أو رسالتيه معا . الدكتوراه وتوضيح حق بلاده الذى لا ينازع .

انتهت بحوثه ومنحته الجامعة درجة الدكتــوراه فى الهندسة .. بامتياز .. وكانت قد بقيت أمامه اربعة شهور حتى انتهاء الموعد الذى حددته له كليته بجامعة القاهرة .. وطبعا لم يحدث قط أن عاد مبعوث قبل انتهاء مدته .. جرت العادة .. فى الغالب أن يرسل المبعوث طالبا مد فترة البعثة بحجة أن الوقت لم يكن كافيــــــا لاستكمال جميع البحوث ..

لم يكن فى نيته طبعـــا أن يطلب مد بعثته .. لكنه ايضا لم يكن يزمع العودة فورا .. انـكبابه على البحث لم يترك له سويعات يمرح فيها ويستجم ويتجول فى انحاء البلاد .. واذن فليستدرك ما فاته وأمامه اربعة أشهر يروح فيها عن نفسه ويشاهد أمريكا على حقيقتها .

فى هـــذا الوقت .. فى اكتوبر عام ٧٣ .. تحركت الجيوش المصرية فى ايقاع منغم .. تجانست فيه حركات جميع الوحدات والاسلحة كأنها سيمفونية رائعة .. عبرت القناة وحطمت ــ مع خط بارليف الخطير ــ أسطورة الجيش الذى لا يهزم . !

وقرر أن يعود الى الوطن .. حالا .. حقا أصبحت الاقامة بالخارج اقل مرارة بعد أن تغيرت الى حد كبير لهجة السخرية والشماتة الى لهجة التقدير المزوج بالدهشة .. حتى ان الجرائد جميعـا ظلت تـكتب اياما عن المفاجأة المذهلة والاستبسال المعجز والعمليات البطولية الخارقة .. ولـكن كان من الجنون البعد عن مصر فى فترة الصحوة .. فترة الانطلاقة الهادرة .. هذه الفترة الموحية الخلاقة المعطاء ..

حى على التعمير ...

ما كاد يخرج من صالة الجمرك حتى تلقفته أذرع وشفاه الاقارب والاصدقاء .. شقيقاته وأزواجهن وأولاد اخواله وعماته .. أولاد وبنات شقيقاته ــ الذين كبروا واصبحوا شيئا آخر ــ وغيرهم .

الأسرة كلها كانت فى انتظاره . عداه .. عداه هو .. أقرب الناس اليه وان كان فى نفس الوقت أبعدهم عنه .. شـــقيقه الوحيـد مختار .. ! فتش جيدا بعينيه فلم يجده .. ناجى نفسه :

ــ عجبا .. كل هــذه السنوات الطوال بعيدا عن أرض الوطن لم تـكن بكافية لان تنسيه ما كان بيننا ؟ !

عندما جاء المساء لم يعد يطيق صبرا .. وسأل ــ وان حاول أن يبـدى قلة الاهتمام .. عن أحوال مختار .. تنحنح الاستاذ صادق ــ وكان المفروض أن يكون أكثر الجميع معرفة به لاقامته فى السويس ــ تنحنح قبل أن يقول باقتضاب :

ــ لا أحد يعرف عنه شيئا .. لقد اختفى عنا هو واخباره .. منذ فترة طويلة .

ـ ولـكن كيف يعيش ؟.. واين ؟.. وما احواله ؟
ـ كان آخر ما بلغنا عنه انه طلق زوجته بعد ان ضيعت ثمن حصته فى منزل الحاجة وبذلك اصبحا خالصين .. تعلم طبعـا انه كان قد جعلها تبيع عمارتها واغلب مصاغهـا لتوفى مطالبه .. كل شىء يضع يده فيه يخربه هل نسيت انه هو الذى ضيع ثروتكم ؟

أثارت هذه الاخبار الانزعاج على وجه ممدوح وعاد يسأل :
ـ الم يحاول أحد منكم البحث عنه ؟
ولم يرد أحد وان تولت نظرات الدهشة والاستنكار عنهم ذلك قال بهدوء :
ـ اذن سأسافر انا غدا الى السويس .. وسأبحث عنه .

وازدادت كميات الدهشة والاستنكار فى العيون .. وبتؤدة قال عزت بك :
ـ أنصحك يا ممدوح الا تفعل .. أحد الناس ظل يحفر الارض وفى ظنه انه سيجد كنزا .. لـكنه بعد طول جهـد وجـد بديه تخرجان .. بحفنة من القاذورات .. أنت تعرف مختار ونزواته .. انه لا يستطيع العيش بدون مال .. كثير ، ومن المحتمل ان يـكون قد جانب الطريق السوى .. وانت الآن أصبحت ذا مركز عال قد تؤثر فيه سمعة أخ فاسد .. فلا تـكن كمن أخرج المارد من القمقم .. ليقضى عليه .. لن ينفعك الندم ولن تستطيع اعادة المـارد الى قمقمه .
لم يرد ممدوح بيـد أن تصميمه طفا من اعماقه الى صـفحة وجهه ..ولم تفت عزت بك ملاحظة تعبيرات وجهه الناطقة اذ انه عاد يردف مستسلما :
ـ عموما هـذا رايى .. وافعل انت ما يروقك .

حاول ممدوح أن يغير الحديث فالتفت الى فردوس مازحا :
ـ من كثرة ما كتبتى لى عن لطف ورقة وشجاعة زوجـك العزيز الاستاذ مراد فانى كنت متلهفا على لقائه والتعرف عليه .. وأرى انك لم تبالغى .
احمر وجه فردوس خجلا وهى تحتج :
ـ هل كتبت اليك كثيرا عنه ؟

وابتسم الاستاذ مراد بسعادة :
ـ اشكرك يا دكتور ممدوح واشكر زوجتى العزيزة .. التـى

اذا كانت حدثتك عنى قيراطا واحدا فقـد حدثتنى عنـك أربعة وعشرين .. وطبعا ما كتبته الجرائد عن غزوك لبلاد العم سـام، وتقديرات ممتحنيك يدل على أنها لم تذكر كل الحقيقة .

وبين ضحكات الحاضرين وترحيبهم بعودة ممدوح .. الغـالى لدى الجميع .. تنتهى السهرة السعيدة .. التى كانت ترفرف عليها طول الوقت روحا الحاجة زبيدة هانم وعبد المقصود بك .

لـكنه لم يستطع السفر قبل أيام .. حتى تمكن من الحصول على تصريح من الكلية بالعمـــل فترة الأشهر التى كانت متبقية له على انتهاء البعثة .. فى السـويس .. مع أفواج المشتركين فى التعمير .

فى الاوتوبيس المسافر به كان يفكر فى مختار .. ترى هل يعثر عليه بسهولة أم يكون كمن يبحث عن ابرة فى كوم من التبن .. ؟ هل اختفى فعلا حتى ان الاستاذ صادق .. المقيم معه فىالسويس .. لا يعرف عنه شيئا ؟ لم يحاول أن يوجه اللوم الى احد .. .. حتى بينه وبين نفسه .. التمس العـذر لشقيقاته .. لم يكن بوسعهن سوى السكوت خوفا من غضب الازواج أو لومهم .

وصل قبل الظهر .. كانت صدمته برؤية آثار الاعتداء شديدة .. تمتم من بين أسنانه :

ـ لشد ما أكرههم .. أكرههم بقدر ما أحب بلدى .. ليسوا اعداء وطنى فحسب .. انهم أعداء الحياة .. أعداء الانسانية .

اتجه الى منزلهم .. أو الذى كان منزلهم قبـــل أن تشتريه جارتهم الست شـفيقة .. كانت هى بنفسها التى فتحت له .. شهقت من الفرحة .. استمهلته حتى توقظ ابنها مصطفى لـكنه رفض ان تقلقه طالمـا هو فى اجازة ، فألحت أن يستريح ساعة أو سـاعتين من عناء السفر الطويل :

ـ فؤاد مسافر وحجرته خالية .. تصـور انها نفس حجرتك القديمة ؟ ..

دخل حجرته متمهلا .. أغلب أثاثها كما هو .. اشترت الست شفيقة اثاث الشقة مع المنزل .. ثم انتقلت اليها تاركة شـقتها الاولى .. وكانت أصفر بعض الشىء ـ لابنتها العروس .. كأنه ما تركها الا أمس .. دفعة واحدة عادت اليه ذكريات خمسة عشر عاما فى تلك الغرفة .

لم يشعر بالحنين لطفولته كما اعتاد أن يسمع من أغلب الناس. طفولته لم تكن سعيدة .. كما انهـــا ــ أيضا ــ لم تكن شــقية .. كانت لا بأس بها .. لولا قسوة مختار وتحرشه الدائم به ، فترت همته وحماسته فى العثور عليه كثيرا .. عنــدما خرج ــ بعد ســاعتين فقط من منزل الاسرة السابق ــ للبحث عن أخيه.. كان يقدم قدما ويؤخر اخرى .. فأغلب ذكرياته التى أهاجتهــا لديه حجرته كانت عن مشاحنات مختار معه .

وسط هــــذه الذكريات دق الباب .. فتحه .. كانت الست شفيقة تحمل كوبا من الشاى وبعض الفطائر ودهشت.. سألته:

ــ السرير مرتب كما هو .. لماذا لم تنم ؟

وكذب عليها :

ــ لقد نمت كثيرا فى الاوتوبيس .

كم هى طيبة هــذه السيدة .. وكم يحبها ممدوح .. منزلتها فى نفسه تقترب من منزلة امه .. كيف ينام ؟.. يريد أن يشبع من التملى فى غرفته .. ربما تـكون آخر مرة يراها فيها .. خرج الى الشرفة ليلقى نظرة على البلد كلها من عل .. كم أوحشتــه بلدته .. السويس .. هذه المدينة الساحرة .. الصــامدة .. دوخ أهلها البسطاء عمالقة القرصنة .. وكم سمع فى الطريق من قصص بطولة وفداء وصمود

عاد الى الغرفة .. تمدد على السرير .. عاد يفكر فى مختـــار ومناوشاته .. هز رأسه :

ــ مهما كان فيجب أن أصل اليه .. انه اخى الوحيد .. وربما كان فى حاجة الى .

استيقظ مصطفى وقابل ممدوح بالاحضان .. حدثه عن أحوال البلد ومعنوياتها العالية أيام الحصار ، سأله عن مختار :

ــ هل يا ترى تعرف عنه شيئا ؟

رد بعد تفكير يسير :

ــ الحقيقة اننى لا أعلم يقينـــا ان كان لا يزال فى السويس أو هاجر مع من هاجروا .. اذ مرت شهور لم اره فيها قط .

استأذن فى الخروج ليبدأ البحث .. ودعوه بنفس الحفاوة التى استقبلوه بها .. بدأ يخطط .. من اين يبــدأ ؟ من الضـــاحية الغربية حيث كان يعيش مع زوجتــه وحيث بعض المقاهى والاماكن التى اعتاد التردد عليهــا .

لأسفه انهار امله مع اول محـاولة .. اكد له الجميع انه هاجر قطعا لـكن احدا لا يعلم الى اين ، وخطر له انه ربما سافر الى الاسكندرية .. عند ابن عمه المقيم منذ سنوات هناك .. حيث هو الوحيـد فى الاسرة الذى يميل اليه مختار .

لـكنه لم يـكن يستطيع السفر الى هناك .. كان على موعد فى اليوم التالى مع المسئولين فى وزارة التعمير .. وفى اليوم الثالث كان يتسلم عملا .. فى صميم تخصصه .

ليت الروتين ينتهى فى مصر كلها كما أنهته ارادة التعمـــير الصادقة ، وأخذه العمل .. لـكنه لم ينس مختار .. دائما على باله ودائما يحس بالضيق لعدم استطاعته الوصول اليه .. فقط كان مضطرا لاعطاء موضوعه أجازة طويلة .. له سنوات لم يره .. لا ضرر من ان يزيدوا شهورا .. الاهم فالمهم .

ذات يوم .. بعد حوالى اسبوعين من بدء العمل حدثت لممـدوح مفاجأة مثيرة .. طلب ان يقابل مقـاول الانفار لـكى يبحث معه امكانية زيادة عددهم .. فأشـاروا له عليه .. فوق السقالات .. ما كاد ينظر حيث يشيرون حتى تراجع مذهولا وهو يغمغم :

ـ انه البرديسى .. نعم هو .. هو بـكل تأكيد .. صـديق مختار .. بل نسخة منه فى آرائه وتصرفاته ومجونه ونزواته .. كيف يمكن أن يوجد هنا ؟

ورجع الى مكتبه .. قرر أن يرسل اليه احد مسـاعديه حتى لا يحرجه .. قطعا سيخجله جدا أن يراه فى عمل كهذا وزى كهذا شخص يعرفه ويعرف اسرته ، لـكنه عاد وفكر أن يلقـاه وليكن ما يـكون .. اليس محتملا ان يعرف الى اين ذهب مختـار .. وأين اراضيه الآن ؟ .. قبل أن يتحرك لينفذ فكرته اكتملت المفاجأة .. بل تضاعفت .. بدخـول البرديسى بنفسه .. بلحمه وشحمه .. غرفة مكتب ممدوح .. مهرولا .. نظر اليه ثوان بتمعن .. ثم صاح :

ـ هو .. هو .. بالاحضان يا ممدوح ..

اندفع اليه يعانقه ثم تراجع قليلا بخجل :

ـ لا تؤاخذنى يا باشمهندس .. يا دكتور .. اندفعت .. من فرحتى .. لم اسمع باسمك الا اليوم .. وتمنيت ان تكون انت فعلا .. يا اشد سعادتى بك .

ورحب به ممدوح .. من قلبه :
ـ اجلس يا محمود بك .. أهلا أهلا .. أى اوامر ؟
قال ببساطة شديدة :
ـ انا الذى أسالك هذا السؤال .. انت رئيس العمل هنا ..
ـ كلنا نعمل معا .. خاصة انت .. انك فى مكانة أخى الاكبر .
وعندما تذكر أخاه خرج سؤاله من فمه رغما عنه :
ـ يدهشنى انك .. تعمل .
رد بنفس البساطة :
ـ لابد أن أعمل ..
تمتم ممدوح وكأنه يناجى نفسه :
ـ قاطعنى مختار سنوات لاننى يوما طلبت منه ان يعمل .
هز رأسه :
ـ لاتلمه يا ممدوح .. يا دكتور ممدوح .. كان هذا تفكير قطاع كبير أيامها .. أخبرنى مختار بالموضوع فى حينه .. ولا تؤاخذنى .. وسخطت عليك بدورى .. أخذت جانب مختار فى انك وجهت اليه اهانة لا تغتفر .. اليوم انا أعمل .. رغم انى حاليا فى غنى عن العمل .. حرب اكتوبر غيرتنا جميعا .
ـ من تعنى بـ نا هذه ؟
ـ كل من كتب فى خانة الجنسية بشهادة ميلاده كلمة « مصرى » .. بل واستطيع أن أضيف .. وكل عربى .. ألم تتوحد كلمتهم لاول مرة ..؟ جيشنا .. هل حارب هذا العام كما حارب عام ٦٧ ؟.. القادة .. الاهالى .. تغير كل شىء فيهم .. نظرتهم لانفسهم وعدوهم وقادتهم وبلدهم .. لم تكن السويس تعنى فى نظرى أكثر مما تعنى أى مدينة أخرى فى مصر .. وربما فى العالم .. تماما كما لا تحس بساعدك ـ رغم اهميته ـ الا عندما يؤلمك .. بدأ الخطر يحيط بالسويس .. وظهرت نية العدو فى تدنيس المدينة بأقدامهم وكانت صرخة واحدة أطلقها أهل المدينة .. « لا »
ـ قرات وسمعت عما قام به الكل .. الجيش والبوليس والاهالى .. الجميع .. بلا استثناء
ـ نعم .. لكن سماعك لن يكون كمن رأى بعينيه .. حكايات

وبطولات فردية وجماعية كثيرة سمعت وستسمع بها طيلة وجودك .. لكن انبهارك لايوازى مشاعر من عايش كل ذلك .. آه يا ممدوح لو كنت هنا ورأيت بعينيك العمال البسطاء .. وطلبة المدارس .. الصنايعية الاميين والاطباء والممرضات الصغيرات.. قاموا بأعمال مذهلة .. الم تقابل أحمد صادق ابن شقيقتك السيدة زوبة منذ عدت من الخارج ؟

ـ طبعا قابلته أكثر من مرة منذ حضرت .. عدا انه كان فى انتظارى بالمطار يوم وصولى القاهرة .

ـ اذن فأنت تعلم طبعا ما قام به .

ـ ابدا .. لم يقل لى اى شيء .

ـ عجبا .. لا يريد أن يتحدث عن نفسه .. مع ان السويس كلها تحكى عن تحطيمه ثلاث دبابات للأعداء وحده .. بعض القنابل اليدوية .. وعن مخاطرته بالاقتراب منها حتى تستطيع القنبلة الصغيرة التأثير فى الدبابة دون أن يخشى ما فى ذلك الاقتراب من أخطار .. وغير أحمد كثيرون .. قدموا كل ما يملكون من جهد وقدم بعضهم أرواحهم .. بكل سماح .. كما قلت قبلا .. هذه الحرب غيرت كل شيء فينا .. أطاحت بقيم عديدة باليه كنا نؤمن بها .. ومجدت أمام ناظرينا قيما أخرى غيرها .. أهم هذه القيم كان .. العمل .. عمل كل هؤلاء .. وليس التفاخر بالانساب .. أو اى شيء آخر ..هو الذى صنع أسطورة الصمود.. لم استطع لسنى أن أسهم فى قتال الاعداء .. فقررت أن استدرك ذلك فى معركة التعمير .

سعد ممدوح بكلام البرديسى .. لكنه لم يستطع نسيانه.. أخاه .. همس :

ـ ليت مختار كان هنا .

ربت البرديسى كتفه بقوة :

ـ سيعود .. يا ممدوح .. وأؤكد لك .. سيعود .. لقد اذن المؤذن « حى على التعمير » شبان كثيرون من بلاد أخرى تطوعوا للمشاركة .. فهل يعقل الا يلبى السوايسية النداء ؟ .. الم تترك انت جامعتك ؟.. أكاد أجزم انه لن يتقاعس عن المشاركة فرد واحد من أهل السويس .

ـ حتى مختار ؟ ..

قهقه ضاحكا :

ـ العصا السحرية التى غيرت كل فرد وكل شيء .. هل تعجز عن تغيير مختار .. وحده لا.. عموما انا لا القى القول على عواهنه.. عندما هاجر مختار .. لم يخبرنى ـ ولا اى صديق آخر ـ عن وجهته .. بعدها لم يرسل لاحد منا اى خطابات .. حتى فوجئت من أيام بخطاب منه يخبرنى فيه بأنه لم يعد قادرا بعد على البقاء بعيدا عن السويس .. وأن هى الا بعض أمور يسويها وسيعود .. ويومها أؤكد لك .. ستجد مختارا آخر .. لن يكون موقفه منك نفس موقفه السابق .. لن يعود يهزأ أو يخجل من عملك وجدك ونشاطك الدءوب وانما ـ وبدون اى شك ـ سيفخر بك ويسعد. ويزهو .. الموازين السابقة اختلت .. واذن فلن تعود تفصل بينكما تلك الهوة الواسعة من اختلاف المبادىء والقيم .

تحول ممدوح عنه واتجه ناحية النافذة .. السقالات العديدة تموج بالبنائين كأنها خلايا نحل .. فى موقعه .. والمصنع المجاور.. والوحدات الاخرى عن يمين ويسار .. فى كل مكان حول اليه عينيه كان يرى البناء يرتفع .. شعر بكثير من التفاؤل .. تمتم بصوت خافت كأنما لنفسه :

ـ نعم .. معك حق يا بردیسى .. لابد سيعود مختار .. ليسهم بنصيب . انها بلده هو الآخر . ويومها ـ قريب جدا فيما أعتقد ـ سنلتقى .

دخل بعض الموظفين يوزعون الحلوى والمرطبات قال أحدهم :

ـ جاءتنا الآن أخبار بانسحاب آخر جندى اسرائيلى عن الضفة الغربية .

ومن بعيد سمعت بعض الفرق الموسيقية الشعبية تعزف مارشات عسكرية وتجوب المدينة ثم .. ارتفعت دقات أجراس كنيسة قريبة .. وتلفت ممدوح حوله متعجبا .. أسرع أحد مساعديه يفسر الدقات :

ـ الكنيسة ايضا تحتفل بخروجهم .

ليس عن مصدر الدقات كان ممدوح يتساءل .. ولكن عما حدث بداخله .. أو على الاصح ما لم يحدث .. لفته غبطة مدهوشة .. لقد شفى .. شفى من مرض الاجراس الغريب .. !

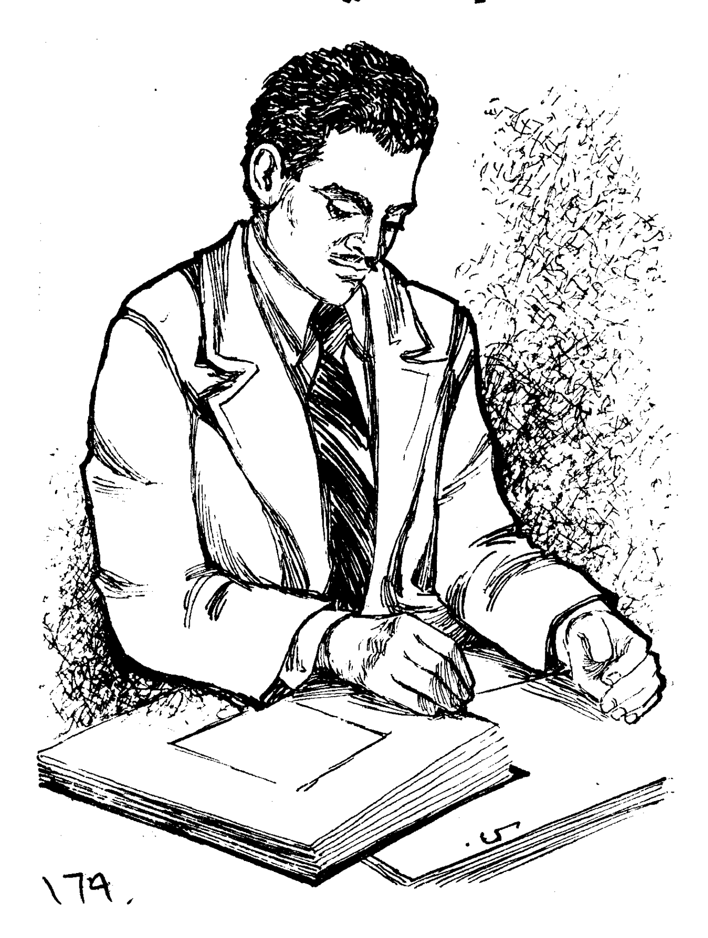
نعم .. فمنذ يوم المزاد الرهيب .. بما صاحبه من أحداث.. ذلك اليوم الذى ظل يطلق عليه من وقتها .. ولأعوام طوال ..

« يوم الاجراس » منذ ذلك اليوم .. ورعـدة غريبة تصيبه .. شـاملة جسـده كله كلما .. سمع صوت أجراس عالية جوفاء الرنين .. اى اجراس ، حتى عندما كان بالخارج .. حدث له ذلك أيضا .. وتـكرر .. لدرجة ان نصحه بعض الزملاء بعرض نفسه على طبيب نفسانى .

لـكن ها هو يشفى من ذلك المرض العجيب .. وبدون حاجة لأى طبيب .. فى تلك اللحظة الخالدة .. سمع صوت الاجراس ـ التى بدا رنينها متغيرا ـ ولم يرتعد .. وانما ابتسم بسعادة .. فقد كانت .. أجراس النصر .

إحسان كمال

إستيفا ...



استيفا ..

استيفا ..

عندما سمعها من رئيسه لاول مرة ظنه يريد استيكة ، ربما يحبها لسبب ما فيدللها .. كأولاده ! أيضا ليس هناك قانون يمنع أن يكون رئيس القلم « أخنف » بعض الشيء .. !

ـ لا .. لا .. استيفا .. يعني استيفاء بعض الاوراق في هذه الطلبات ..

ـ آه .. استيفا ..

ـ كل هذه الدوسيهات التي أمامك طلبات استيفا .. من شتى الجهات ..

كان على المكتب أكوام وأكوام .. صبحه الله بالخير سلفه .. لا يهم أين ألقت به المقادير لكنه بالتأكيد كان كسولا .. حتى ليترك وراءه كل تلك الاوراق بدون بت ، أقبل عليها يتصفحها بعناية ودقة بالفتين ثم بدأ يعمل فيها قلمه .. بهمة خريج جديد أهدته للبلد احدى جامعاتها .. منحته مع الاجازة شحنات كبيرة من الاقدام والثقة والتفاؤل والمرح ، كل يوم لا يغادر مكتبه حتى يكاد ينتهي من جميع ما أمامه .. لكنه يعود في اليوم التالي ليجد المكتب مكدسا كما كان .

كل هذه طلبات استيفا ؟ .. استيفا لماذا ؟ لاجراءات لا يعلم عنها شيئا سوى الله و .. وناسج هذا الروتين العجيب ! رغم ذلك كان يحاول ما وسعه جهده .

ظن أنه بالنظام يستطيع العمل أسرع .. فلينتهي من الدوسيهات كوما كوما .. أخيرا انتهى من الرزمة التي الى يمينه .. عجبا .. يرفع رأسه على الأوراق فجأة ليرى كوما آخر قد نبت مكان ذلك الذي انجزه .. وكلما ازداد عملا وجهـــدا ازداد النبت الشيطاني نموا وارتفاعا . كأنه يرويه بعرقه !

لم تمض شهور حتى كان الشاب المتحمس شيئا آخر .. صبغته

الوظيفة الحكومية بصبغة خاصة كفيره من مئات وألوف الانماط التى لتبدو وكأن مصنعا واحدا .. له قالب واحد قد قام بصبها جميعا ..! أين حيويته وشخصيته المتميزة من هذا الانسان الآلى الذى عبأوه بشريط صفير لا يحوى سوى كلمات قليلة يكررها دائما على سمع المترددين عليه .. « طلب رسمى .. خاتم الدولة .. ثلاثة موظفون تزيد مرتباتهم على ثلاثين جنيها .. ورقة تمغة .. ثلاث صور .. شهادة ادارية .. شهادة الميلاد .. »

على ان الانسان الآلى كانت تدب فيه بين الحين والحين الروح فيثور على الاوضاع ويقرر أن يحرر نفسه من ربقة كل هذه الدوسيهات .. عبثا .. كلما أنهى طلبا ونادى الفراش ليرحله أقبل يحمل اليه طلبين .. استيفا ، لم يكن هذا طريقها الوحيد .. أحيانا كانت تنقض عليه من السقف وأحيانا أخرى تدب اليه على الارض كالحشرات السامة .. ولم تكن الاخيرة لتزيد عليها ، سما ..

مع ذلك اقسم ذات يوم .. لن يبارح مكتبه حتى ينهى جميع ما أمامه .. كانت عملية شاقة .. جدا .. جاء المساء واوقد النور .. انتصف الليل وأكل ساندوتشا صغيرا .. بدت تباشير الصباح وهو ما زال يعمل .. لكن النتيجة كانت تستحق كل هذا العناء .. لم يبق سوى بضعة طلبات متناثرة ، أقبل زملاؤه وبدأوا يدردشون ويأكلون ويضحكون كعادتهم .. لا يوجد فوق مكاتبهم جميعا نصف ما كان ينوء به مكتبه .. يتفننون فى التخلص مما يأتى اليهم .. أيضا فان ما يأتى اليهم لم يكن كثيرا .. هو وحده المختص بطلبات الاستيفا .. وحتى اذا تكدست أمامهم الدوسيهات فانهم لم يكونوا يشكون .. لا ولا هم يعملون .. من اين يأتون بكل هذا الذى يروونه ؟ ما يحدث داخل بيوتهم وعلى المقاهى عصر كل يوم زائد ما كتب فى جميع الجرائد الصباحية لا تستغرق روايته والتعليق عليه نصف ساعات العمل .. لكنهم مع ذلك يمضون فى الثرثرة .. من الذاكرة ولا ريب .. أو من الخيال .. !

صاح أحدهم فى ذلك الصباح والجريدة بين يديه « يا الهى.. السيول تغرق الطريق الصحراوى » .. فتح الباب فجأة .. عجبا .. لم يكن مكتبهم واقعا فى الرست هاوس فمن أين أتت هذه السيول .. لم تكن سيول ماء ولكن سيول .. دوسيهات ..

اندفعت نحوه .. اضطر الى التشبث بمقعده حتى لا تجرفه امامها .. اعتلت السيول المكتب وهدات فوقه.. عادت الاكداس كما كانت قبل قسمه الرهيب .. كادت الدموع تطفر من عينيه.. أحس ساعتها فقط بآلام فى جميع أجزاء جسمه .. لعلها آلام الاجهاد وعمل الليل بطوله .. دون نوم ولا أكل .. بيد أن الآلام كانت أقسى من مجرد آلام ليلة مرهقة بالعمل .. تشبه آلام شخص بدأ محاولة لارتقاء جبل .. قبل القمة بأقدام أفلتت قدمه وسقط مرة واحدة الى السفح .. أخذ بدلك جسده المرضوض فى أكثر من موضع .. من أثر السقطة ! عاد الى التحدى ثانية .. مرة أخرى أقسم قسما رهيبا لكنه مختلف فى هذه المرة .. أقسم ألا يمد يدا الى أى طلب طيلة اليوم .. يعمل أو لا يعمل .. مكتبه دائما ممتلىء مكدس .. لا موضع فيه لقلم ..

انفتح الباب ثانية وتدفق سيل آخر . سيل آدمى هذه المرة .. امتدت أصابع الزملاء جميعا تشير الى حامد .. فاتجه السيل الى مكتبه يحاصره .. بالاجساد والاصوات :

– أين أوراقنا ؟ ...

– رحلتها جميعا ..

– وماذا تم بها ؟ ..

– لا أعرف عنها شيئا .. بوسعكم الاستفسار عنها من غرف الحفظ .. كل فى منطقته ..

– لا شأن لنا بما تنعته بغرف الحفظ هذه .. انت الذى استلم أوراقنا ..

– لكنى رحلتها .. رحلتها ..

– لا نعرف سواك .. انت الذى أخذ طلباتنا وانت الذى عليك اعادتها الينا ..

الجميع يتكلمون فى صوت واحد .. الاصوات بدات ترتفع .. كاد يصيبه الدوار .. لم يعد يعى ما يقولون .. أصواتهم تطن فى أذنيه .. معالم وجوههم كادت تضيع أمام عينيه .. لم يعد يرى منهم سوى أفواه مفتوحة .. داخلها ألسنة تدور وتدور .. كأنها تريد أن تنفلت من حلوقهم لتجزر رقبته .. أسرع يدس أصابعه وعينيه داخل الدوسيهات المكدسة .. قلبها رأسا على عقب .. عثر على ضالته اخيرا :

– ها هى أوراقكم ... عادت الى مرة أخرى صباح اليوم ..

بطلبات استيفا .. تنقصها مستندات عديدة حتى تصبح مستوفاة .. لماذا لم تستكملوا أوراقكم من أول الامر راحه لى ولكم
– ومن اين لنا العلم بما هو مطلوب .. لماذا لم تقل انت لنا

هو أيضا لا يعلم .. بل لا احد على الاطلاق يعلم بالضبط ما يطلبون ، حيث لكل جهة طلباتها وشروطها التى تختلف كثيرا عن طلبات وشروط الجهة الاخرى .. وكل مدير يفسر – بالقدر الذى يتصور انه يخليه من أى مسئولية – مواد القانون تفسيرا خاصا ، يعود أصحاب الطلبات يدورون بين المصالح الحكومية المختلفة .. ممتثلين أمام موظفين آخرين ليأتوا آخر الامر بأوراق مديدة يقدمونها لحامد .. يضم حامد الاوراق الجديدة الى السابقة التى كانت تحويها الطلبات ليرحلها وهو يتنهد .. ها هو يخلص من مجموعة أخرى من الدوسيهات .. لكنها كانت أوفى كثيرا مما ظن .. عادت اليه نفس الدوسيهات – كما تفعل كل الدوسيهات – وعليها طلبات استيفاء جديدة من جميع الهيئات .. ما يخطر منها على البال وما لايخطر .. مراكز الصحة .. الدوائر المدنية .. الشهر العقارى .. غرف الحفظ .. أقسام البوليس .. مصلحة الضرائب ، يوما تساءل بدهشة :
– ومصلحة الضرائب أيضا .. ؟
يرد رئيس القلم :
– طبعا .. أليس من الجائز ان على الطالب ضرائب يريد التهرب منها بتغيير اسمه ؟ ..
ويسأل :
– ومجزر القاهرة .. أليس له اتصال بعملنا هو الآخر ؟! ..
كلفته هذه السخرية كثيرا .. لفت نظر من رئيسه ، عندما سأل هذا السؤال كان بين يديه احد الطلبات .. كتب أمام جهة الصادر .. مجزر القاهرة .. ! عليه بعد ذلك أن يكف عن التحدث فى أى شىء أثناء عمله عدا هذه الكلمة « استيفا ! .. » ولا بأس ببعض المشتقات والمترادفات .. استفانوس .. استيفان .. ستيف .. سيف .. استيفانا .. !
كيف حدث أن هذه الكلمات تجسدت حتى أخذت تدور أمام عينيه بشراسة وهى تطن كسرب من النحل .. أخلقها هو لتهاجمه ؟! .. لم يملك أن راح يحرك يديه كلتاهما بشدة ليهشها بعيدا عن وجهه .. لفتت حركته انتباه زملائه فتوقفوا عن الحديث برهة ..

ثم عادوا اليه .. دون سؤال ! ..

خسارة .. خسارة كل ما درسه بالكلية .. نواحي النشاط الفني والرياضي والادبي .. الاساتذة الاجانب الفطاحل الزائرون ..

بعد كل هذا العناء والتحصيل يجلس خلف مكتب صغير ليتلقى طلبات الاستيفا حيث يبلغها الى أصحابها .. كان يعد نفسه ليكون من قادة المستقبل .. يسهم في تقدم بلده بدور ايجابي محسوس.. قبل الوظيفة بكامل اختياره .. السبب كلمة .. كانت كلمة مخلصة .. ومن أخلص من فؤاد عزمي ؟ ..

بدأ يتقدم زاحفا دون أن يند عنه أدنى صوت .. الظلام دامس حتى انه لا يستطيع أن يرى زميله وقائد كتيبتهم فـؤاد .. فجـأة انفجرت قنبلة .. أسفل أذنه تماما فأصابته بالدوار .. نفس ماحدث يومها بالضبط .. برغم أن قنبلة اليوم لم تزد على أوراق ، كتم ثورته .. الفراش معذور .. يعرف جيدا أنه يشكو من روماتيزم مزمن في ذراعيه .. عدا أن الدوسيهات كانت جد ثقيلة ..وسقوطها منه على الارض حدث ــ بالتأكيد ــ رغما عنه ..

ربت فؤاد عزمي على كتفه :

ــ لست أدرى كيف تأسى لعدم استطاعتك بعـــد مشاركتنا في العمليات .. حتى بعملك في الامداد والتموين هنا في بورسعيد تسهم في معركة النصر .. الجيش نفسه ليس مكونا من حاملي السلاح فقط .. الاطباء والمهندسون والبيطريون جنـــود كذلك .. حتى المطربين بأغانيهم الحماسية لهم دورهم الملموس ايضا ..

أزاح يد الفراش عن كتفه بغضب :

عدد ماشئت ولكن لى استثناء واحدا ... دواوين الحكومة ..

بهذا التعقيد العجيب لا يمكن دفع عجلة التقدم .. العكس هو الصحيح .. يعرقلونها .. وهو .. لا يستطيع نبذ الطرق الملتوية الى أخرى مستقيمة يراها تمام الرؤية .. يقف مكتوف الذراعين أمام اصلاحات في متناول يده لكنها ليست في متناول حقوقه .. أو بالاحرى واجباته .. كعبد مأمور ، قال له رئيسه بدهشة « ماشأنك أنت بالبحث عن الافضل أو الايسر على الناس ؟ .. هل تظن نفسك مشرعا ؟ .. مهمتك استلام الطلبات من أصـحابها ثم تبليغهم بالرد .. لا تزيد على .. موصل بين الجمهور والادارات المختصة دون أي تعليق من جانبك أو خروج ولو بخطوة واحدة عن حدود اللوائح ..

لا .. بالثلث .. بكل وطنيته وامكانياته وطموحه .. لم يكن هذا هو الدور الذى حلم دواما بالقيام به .. أبدا .. لا يستطيع الاستمرار .. ليته عمل بالمحاماة .. يؤمن ببراعته فى الخطابة والاقناع .. كثير من أساتذته قالوا له ذلك .. الدفاع عن المظلومين .. اعادة الحق الى نصابه ..

الشخصية لها ثقلهـا الكبير فى المرافعة .. لذلك تتفاوت مستويات المحامين بين لامع وعادى وأقل من العادى .. ليس مغرورا لكنه واثق من نفسه .. ومن قدراته .. كان يجب أن يلتحق بعمل يحتاج الى هذه القدرات والشخصية والاقدام .. ويظهرها وينميها .. لا أن يحشرها فى حيز أضيق منهـا بكثير ، أين حماسه وقدراته الآن ؟ .. دفنها فى أول دوسيه أنجزه بعد أن كفنها فى طلبات الاستيفا ..

الاستيفا .. بوسع اى موظف كتابى محدود أن يقوم بها .. مكانه فى ساحات القضاء ليصول ويجول .. لابد أن يصحح الوضع .. ويكتب طلبا يضمنه رغبته فى النقل الى قلم قضايا الحكومة ..

اخيرا ها هو يتراجع .. هذا هو ميدانه .. القضايا ينظرون اليه والاعجاب بمنطقه يلمع فى عيونهم .. لم يكن يترك صغيرة ولا كبيرة يمكن أن يفيد منها موكله ، أما الجمهور فاعجابه أكبر .. يستمعون اليه مبهورين ببراعته وتمكنه .. صامتين تمـاما وكأن على رءوسهم الطير .. حتى حاجب الجلسة يسهى عليه أن يرفع سيجارته الى فمه فتكاد تحترق دون أن يأخذ منها نفسا ! .. المتهم فى القفص يكاد يرقص من السعادة .. بعد هـذا الدفاع البليغ .. البراءة آتية لا ريب فيها ، وينتشى هو بهذا الاعجاب فيزيد ويفيض .. أخيرا ينهى مرافعته فتضج القاعة بالتصفيق الحاد .. يدق القـاضى على المنصة لكى تصمت الجماهير حتى ينطق بالحكم .. فتح فمه .. نطق :

ـ استيفا ..

ويصاب بالذهول :

ـ حتى سيادتك تقول ذلك .. ؟!

ويحك الفراش ذقنه مرتبكا وهو يهمهم :

ـ سيادتى .. ؟!

يرى النظرة الغريبة فى عينى حامد فينقلب ارتباكه الى ذعر :

ـ طلب استيفا ياحامد أفندى .. مثل كل يوم ..

يصرخ فيه حامد :
ــ كل دقيقة يا حامد أفندى .. كل دقيقة ..

يزداد فزع الفراش فيلقى بالطلب ويطلق ساقيه للريح وهو يردد :
ــ كل دقيقة يا حامد أفندى .. كل دقيقة ..

عموما هانت .. قريبا يصبح الحلم حقيقة ملموسة .. طلبه يسير ــ ولو أن سرعته لا تزيد على سرعة السلحفاة الا أنه على أية حال يسير ــ بين المكاتب ..
« اشتدى أزمة تنفرجى » .. نطقها حين لاحظ ازدياد الدوسيهات فوق مكتبه بصورة ملموسة فى الايام الاخيرة .. كل هؤلاء يريدون تغيير أسمائهم .. أغلبية الطلبات من أناس ضايقتهم حيرتهم بين اسم مكتوب فى شهادة الميلاد واسم اشتهروا به ولكن .. لماذا ؟ .. لماذا يطلق الناس على شخص ما اسما آخر غير اسمه الحقيقى حتى ليشتهر بالاول ؟ .. سأل بعض المترددين عليه .. ربما ليحـــاول فى تنوع الحكايات أن يمسح ملل العمل المتشابه المتكرر ..

دلع أمهات أو جهل أخريات اكتشفوا ــ بعد أن أصبح الطفل يمشى ــ أن هناك اسما آخر أجمل من اسم قرة العين .. حــركة استعلاء ورشاقة يقوم بها طفل يخيل معها لأحد أصدقاء أسرته أنها تشبه حركة الهــدهد فيطلق اسمه عليه .. مرة بعد مرة ، وآخر يفك جميع لعبه فيقولونه عنه المهندس .. ويشتهر بهذا الاسم ، جد أو خال كان الطفل مسمى على اسمه ينتقل الى رحمة الله .. تلقائيا يتغير الاسم حتى لا يثير الاشجان .. !

بعض القصص لا تخلو من طرافة .. سيدة حكت له أنها ولدت بمنزل أسرة والدتها بالصعيد .. ولم تفكر الاسرة فى سؤال والد الطفلة بشأن اسمها استصغارا لشأن « البنت » هناك ، عدا أنهم يعتقدون أن من تطلق على ولد وبنت من ذريتها اسمى محمد وفاطمة فانها تدخل الجنة ومن ثم ارتأوا أن يدخلوا بنتهم الجنة .. هكذا بغير حاجة الى الصلوات والطيبات والعمل الصالح ، فوجىء الوالد بعد عودة الام وطفلتها اليه بالاسم فثـــار .. هى تعرف انه على غير علاقة طيبة بشقيقته فاطمة بسبب خلافات حول الميراث فكيف يسمى ابنته على اسمها ؟ .. كيف ينطق هذا الاسم فى منزله كل يوم .. عدة مرات ؟ .. من جهة أخرى كان ضباط المركز ــ عندما علموا بنبأ المولودة السعيدة التى رزق بها المأمور ــ قد فكروا فى القيام

بحركة مجاملة .. أحضروا أربعا وعشرين شمعة ثم أوقدوها بعد أن أطلقوا على كل منها اسما .. ليظلوا ساهرين بجوارها طول الليل .. قرب الفجر بدأت الشموع تنطفىء .. واحدة اثر الاخرى وكانت آخر شمعة ظلت موقدة تلك التى سموها « آمال » ، تقدموا الى رئيسهم يقترحون هذا الاسم للصغيرة الغالية .. فذلك — ولا شك — فأل حسن بالعمر الطويل ، رأى هو من اللياقة أن يرد على مجاملتهم بمثلها .. أن يطلق على الطفلة اسم « آمال » ...

ويسألها حامد :

— ولماذا لم يغير الاسم فى شهادة الميلاد فورا وكان عمرك وقتها أسابيع ؟ ..

— كسل .. !

دائما ازدواج الاسم كان يسبب لها المضايقات والمتاعب حتى ضاقت بها ذرعا فقررت تصحيح الوضع ، ويدهش :

— لكن عمرك ...

وتقاطعه بسرعة : ثلاثون سنة .. !

لم تكن هى الشجاعة الفائقة دفعتها للبوح بعدد سنوات عمرها.. شهادة ميلادها كانت بين يديه ، ويتمتم :

— تحملت المتاعب ثلاثين سنة ولم يضق صدرك بها سوى هذه الايام فقط .. عندما عينت أنا بالسجل المدنى ؟ !

يبدو أن الناس جميعا احسوا بهذا الضيق فى وقت واحد فالدوسيهات يزداد تكدسها بشكل فاق العادة ، الكوم الايمن ارتفع وارتفع حتى حال بينه وبين نسمة الهواء الآتية من النافذة البحرية .. استعاض بورقة يهوى بها .. ! الذى الى اليسار ايضا حجب عنه شعاع الضوء الذى يتسرب من النافذة القبلية .. حسنا .. فليوقد النور فى عز الظهر ، الكوم الذى أمامه حجب زملاءه جميعا .. ربما كانت هذه الميزة الوحيدة لتكدس الدوسيهات .. يكره صخبهم وضحكاتهم بسبب وبلا سبب .. هذه اللامبالاة التى تصبغ جميع تصرفاتهم ..! أشداقهم التى لا تكف عن الحركة .. دائما يلوكون بينها شيئا اكلا .. تسالى .. كلاما ، لا يهتمون به ابدا ولا يعيرونه أو شكواه أى التفات .

« ولا يهمك .. غدا تتعدل الامور » .. يواسى نفسه رغم ان طلبه تعثر كثيرا .. يبدو انه كان لزاما أن يمر هذا الطلب على جميع موظفى الدولة .. وحتى فراشيها ..! أعيد اليه مذيلا بهذه التأشيرة

« لابد من ايجاد بديل » ، بحث ودار حتى أوجد البديل .. وعاد يقدمه .. ليرجع اليه مرة أخرى بعد شهور ، كان قد قدمه على نموذج ٣٦٧ د بينما المفروض أن يكتب على ٣٦٧ ذ ..! نقطة ؟ نقطة ؟ نقطة تعطله شهورا ؟

درس اللوائح جيدا بعد أن ارتدى نظارة عملها خصيصا منعا لأى التباس أو خطأ . ومن جديد بدأ طلبه رحلته الخالدة .. من الصفر، مع العودة لزيارته بين الحين والحين متحليا فى كل مرة بطلب استيفا .. ورقة هامة .. وثانية .. وثالثة .. وعاشرة .. كان لابد أن يشرب من نفس الكأس التى سقاها للناس .. وان لم يكن عنها هو المسئول ..!

بدأ الامل يتسرب من نفسه مع مرور الوقت .. عاد الى ضيقه وتذمره طبلة اليوم .. أحس به زملاؤه ورئيس القلم اخيرا .. ضاقوا بشكواه .. قرر الرئيس أن يتدخل .. جرى بنفسه هنا وهناك خلف الطلب .

أخيرا صدر الامر بنقل حامد توفيق الى قلم قضايا الحكومة ، وجاء الرئيس مسرورا بالدوسيه الضخم وعليه التوقيع الاخير الذى يحل حامد من عمله الرتيب .. ويحلهم هم أيضا من مزاملته الكريهة .. لكن الرئيس يتسمر أمام المكتب .. لم يكن حامد موجودا .. أين ذهب ؟ ربما مل الانتظار فترك العمل من تلقاء نفسه .. ربما كان مريضا فعاد الى منزله ليستريح .. ربما مات .. أو .. ربما اختفى تحت هذه الدوسيهات المكدسة .. الفكرة الاخيرة أقرب الى الاحتمال حيث الاكوام الاربعة اصبحت كوما واحدا .. أو جبلا واحدا ..

لكنه لم يعن برفع البضعة دوسيهات العليا ليتأكد ... فأيا كانت صحة أحد هذه الأحتمالات .. النتيجة واحدة .. لن يضايقهم حامد بعد الآن بتذمره وصياحه بين الحين والحين .. استيفا ..

ذلك الحلم



ذلك الحلم

قال الطبيب : حسنا .. فما الذى يضايقك بالضبط ؟

رددت بهدوء : هو ذلك الحلم الذى أراه كل ليلة .. تقريبا أو ان شئت الدقة بضع مرات فى الأسبوع .

ــ نفس الحلم هو هو لا يتغير ؟

ــ كلا .. بل فى كل مرة حلم جديد .. تختلف تفاصيله عن باقى الأحلام .. كل الاختلاف .. لكنه فى النهاية نفس الحلم .

ظهرت الحيرة على وجه الطبيب وأخذ يتفرس فى وجهها طويلا .. ربما ليتأكد أنها ليست مجنونة .. اسرعت توضح حديثها :

ــ أقصد نفس النتيجة .. أو نفس المعنى وان اختلفت التفاصيل .. اننى فى كل حلم أبدا فى أى شىء .. لكننى أبدا لا أصل .. ولا مرة وصلت حتى آخر الشوط .. قبيل النهاية بدقائق استيقظ من النوم ، أصعد سلما .. مثلا قبيل النهاية بدرجة أو درجتين أستيقظ من النوم ، أقف فى طابور أمام شباك سينما .. طابور طويل .. طويل .. بطء شديد تخرج واحدة اثر الاخرى حتى لا يصبح أمامى سوى واحدة أو اثنتين لأصل الى الشباك وعندها .. أستيقظ من النوم أسبح فى بحر .. أغالب الأمواج العالية .. تكاد تصرعنى .. أبذل جهدا جبارا حتى لا يبتلعني اليم .. أضرب الماء بذراعى بقوة .. الشاطىء يلوح من بعيد .. يقترب منى شيئا فشيئا .. معنوياتى تتحسن وأنا أرى الشاطىء على بعد أقدام منى لكنى قبل أن ألمسه بيدى أستيقظ من النوم . اشترى فستانا جميلا .. أرتديه لأتأكد من مطابقته لمقاسى .. ثم آخذ البون من البائعة وأدفع الثمن فى الخزينة ثم أذهب الى ربون الاستلام ، البون فى يدى .. العامل يسلم بعض الزبائن بجوارى .. أحتج عليه « اقف أمامك قبل كل هؤلاء » يعتذر العامل ويتناول منى البون لكننى قبل ان اتسلم منه لفافتى ..

استيقظ من النوم ، أحيانا يكون الحلم موجزا .. أنتظر فى المطار عودة والدتى من الأراضى الحجازية .. الطائرة تهبط فأهيىء نفسى للقاء ست الحبايب التى أوحشتنى كثيرا .. قبل ان يفتح باب الطيارة .. استيقظ من النوم واحيان أخرى يكون الحلم طويلا متعدد التفاصيل وكأنه تمثيلية تليفزيونية يبالغ مؤلفها فى مط أحداثها ليطيل مدتها ، التليفون يدق .. صديق يبلغنى أن نتيجة الثانوية العامة ستظهر اليوم .. أفتح دولابى وأختار أحد فساتينى . أكمل ارتداء ملابسى .. أهبط السلالم .. لا أفلح فى ركوب الأتوبيس فكل عرباته مزدحمة . وعشرون تاكسيا أشير اليها ولا واحد منها يقف .. اذهب الى الجراج .. أضع يدى فى جيبى لكنى لا أجد مفاتيح السيارة .. مع ذلك أجدنى بداخلها وهى تنهب بى الأرض .. لكن زوجى هو الذى يقودها قبل أن يوقفها .. أفتح الباب وأقفز منها .. أدخل مدرسة ابنى .. الناظر والمدرسون يطمئنونى « اجاباته كلها ممتازة » لكنى لا أطمئن .. لم يكن يذاكر كما ينبغى ... كما ينبغى لمن يريد أن يفوز فى صراع الجبابرة الذى يطلقون عليه « الثانوية العامة » .. يقطع صوت الميكروفون الصمت !! « ستذاع عليكم النتيجة حالا » .. قبل أن يذيع أى رقم .. استيقظ من النوم .. طبعا هذه نماذج قليلة فقط فلو أردت أن أحكى لك جميع هذه الأحلام لما استقبلت أى مريضة سواى حتى تحيل نفسك للمعاش !

ــ منذ متى ترين هذه الأحلام ؟

ــ منذ أكثر من عشرة أعوام .. الحقيقة أننى فى أول الأمر لم ألحظ صلة الشبه هذه حتى أننى لم أربط بين هذه الأحلام وبعضها .. لكن بعد تكرارها فطنت لهمزة الوصل بينها .. اننى لا أصل اطلاقا .

ــ وفى كل مرة حلم مختلف ؟

ــ تمام الاختلاف .

ــ يالله .. لقد تعديت خانة العشرات الى المئات .

ــ بل ربما الى الآلاف .. فلو قلنا أننى أرى عشرة أحلام من ذلك النوع فى الشهر ــ وهذا على أقل تقدير ــ فاننى اكون قد رأيت أكثر من الف حلم .. !

– حصيله ضخمه ..

– نعم ..

ضحكت وحاولت أن تدخل على حديثهـا شيئا من الدعاية ربمـا خففت من توتر أعصابها .. قالت :

– ليتنى املك موهبة كتابة القصـة .. اذن لكتبت العـديد من القصص .. وان كانت اغلبها ستنتمى الى هذه الموجات الجديدة .. فطبعا الأحلام ليست دائما واضحة .. مسلسلة .. منطقية ..

ضحك الطبيب هو الآخر : وساعتها سـأكون أول زبائنك .. أو قرائك .. لأننى أفضل هذا النوع من القصص .

ثم عاد يتحدث بلهجة جدية : وهل تضايقك هذه الاحلام الى حد بعيد ؟

– تكرارها بهذا الالحاح يضايقنى .. من جهة اخرى أحيانا كثيرة أشعر باحباط عندما أستيقظ من النوم فأجد أننى لم أستطع اكمال ما بدات رغم معرفتى بأنه حلم .. خاصة اذا كنت قد بذلت مجهودا كبيرا ، نعم .. فى بعض الأحيان يكون ما أبداه عملا فى غاية السهولة .. كاعداد المائدة ونقل بعض الأطعمة والأدوات اليها من المطبخ .. ثم قبل أن أذوق لقمة واحدة استيقظ من النوم ، وأحيانا يكون عملا صعبا مرهقا .. اتعذب فيه واعانى .. كأن أتسلق جبلا .. ولا تسل عن المجهود الفظيع الذى أبذله فى ذلك .. وانا أمسك بنتوء صغير ثم أتركه لأتعلق فى نتوء آخر أعلى منه .. مرة بعـد مرة .. يداى تتشققان .. وعضلات ذراعى تكاد تتمزق .. ووجهى يتعفر .. وشعرى يتطاير .. عظـام كتفى توشك أن تنخلع .. وصدرى يلهث وحلقى جاف ، بصعوبة شديدة التقط انفاسى .. اكثر من مرة أشعر بالدنيا تدور بى وتبدأ قواى تخور حتى تكاد يدى تفلت النتوء .. لكننى أعود وأتمالك نفسى وأتشبث بالاحجار تشبثا مستميتا .. ثم أعاود بذل المزيد من الجهـد لأستأنف الصعود .. وأتقدم .. ببطء .. دون أن أنظر تحتى حتى لا يشلنى الرعب من عمق السفح .. واصعد قدما آخر .. ثم ثان .. ها .. لم يبق على القمة سوى قدم واحد .. واذا بى استيقظ من النوم .. !!

قال الطبيب : حسنا ... فى حيـــاتك الواعيــة شىء ما .. لا تصلين اليه أبدا .. اننى اريد منك ان تحدثينى بصراحة .. ولتعلمى ان الطبيب مثل الكاهن .. وانه لا حياء فى العلم .. فلن تشفى الا اذا استطعنا أن نضع أيدينا على رغباتك المكبوتة كلها .. فاذا فتحت لى قلبك وعواطفـك وذكرياتك وكافة أحاسيسك بـكل صراحة فانك تساعدينى مساعدة كبرى على أن أصف لك العلاج الناجع .. وسأبدا بسؤال .. فى العملية الجنسية .. هل تحصلين على متعتك كاملة ؟

أغمضت عينيها وهى تحس بالضجر .. من أجل هذا رفضت طوال السنوات المــاضية أن تذهب لطبيب ، فـــاذا كانت قد بدأت تتنبه لخاصية هذه الأحلام من عشر سنوات مضت .. فقد بدأت تضيق بها بعدها بعامين أو ثلاثة .. ومع مرور الشهور والأعوام كان الضيق يزداد .. حتى اصبحت أعصابها ونفسيتها .. وحالتها عموما بالغة السوء .. فى العامين الاخرين ، حتى اقترح عليها زوجها أن تذهب الى الطبيب لكنها رفضت ، فماذا عساه سيقول لها الطبيب عدا ان هذه الأحلام تعنى ان هناك شيئا فى حياتها الواعية لا تستطيع أن تصل اليه .. توصلت الى هذا الاستنتاج من أعوام طويلة .. بل أى شخص عادى كان باستطاعته أيضا أن يتوصل اليه .. فاذا كان شغوفا بالقراءة مثلها وقرأ لفرويد فلا شك أن أول شىء سوف يفكر فيه هو الناحية الجنسية .. وهى .. لم تكن حتى بحاجة لأن تطرح على نفسها هذا السؤال ، بعدها فكرت فى احتمالات أخرى عديدة .. لكن فى الحقيقة لم يكن فى حياتها شىء تتلهف على تحقيقه بمثل ذلك الالحاح ، أخيرا ضاق زوجها برفضها :

ــ المجرد قراءتك بضعة كتب فى التحليل النفسى تقولين انه لن يكون عند الطبيب أكثر مما عندك .. ؟! كيف وقد ظل يدرس لأعوام طويلة .. ثم بعد ذلك صادف خلال عمله حالات عديدة .. ؟ ، قطعا سيكون الطبيب ــ بحكم هذه الدراسة والخبرة والممارسة ــ أقدر على الوصول لما تعانين منه .

واطاعت زوجها وعادت الطبيب .. أشهر طبيب فى الأمراض النفسية فى مصر .. مع ذلك ها هو يخرج بنفس نتيجتها .. ثم

يسألها عما قد تكون عانته من حرمان .. ويبدأ -- بالذات -- بنفس السؤال الذى توقعت أن يكون أول الأسئلة .. ! ردت بهدوء شديد :

-- لا أشعر بأى نقص فى هذه الناحية .. بل ربما كنت أحصل على أكثر مما أحتاج .. أو أرغب .

-- لا أسألك فقط عن العدد لكن عن .. عن ..

قاطعته : -- فهمت .. حسنا .. ففى كل مرة أصل الى قمتها .. هو لا ينتهى حتى يشبعنى تماما .

-- واثقة أنت ؟ .

-- اننى -- بعد أن وصلت الى هذه السن أفهم الحياة كما ينبغى أن تفهم .

-- والناحية العاطفية ؟ ..

-- زوجى ابن عمى .. وقد تزوجنا بعد حب طويل وتفاهم تام .. وأهم ميزات زوجى هى حنانه البالغ .. انه ينبوع متدفق من الحنان لا ينضب ..

ومضت أسئلته لها تتوالى .. نفس الأسئلة التى توقعتها .. ! وراحت تجيب عليها :

-- لدى ولد وبنت .. متفوقان فى دراستهما ...

-- لا أحد من أولادى أو أشقائى غائب فى بلد بعيد ..

-- فى عملى بالشركة أحصل من المزايا على أضعاف ما حصلت عليه زميلاتى اللاتى تخرجن فى نفس دفعتى ثم عملن بالحكومة ..

-- لا أقوم بأى عمل خارجى .. وليس لى هوايات أمارسها كالرسم أو الكتابة أو التمثيل أو الغناء حتى تتكون لدى الآمال فى الوصول الى مكانة فنية أو أدبية مرموقة ..

بدا لها بعد عدة جلسات ان حماس الطبيب قد بدأ يفتر .. وان ردودها النافية كلها بصورة قاطعة قد أصابته بخيبة أمل .. حتى لقد باتت تشعر بالشفقة عليه وبالرثاء لكل ذلك الجهد يبذله .. مع ذلك لا يستطيع أن يضع يده على سبب العلة .. كما قال ، يوما قالت له بيأس :

-- يخيل الى اننى قد بدأت أدرك ما هو هذا الشىء الذى لا أستطيع .. ولن أستطيع الوصول اليه ..

قال بلهفة : ما هو ؟؟
ـ اننى لن أستطيع الوصـول لماهية هذا الشىء الـذى لا أصل اليه .. !!

لكن الطبيب لم ييأس مثلها واستمر فى الجلسات ، كل شىء فى حياتها الحالية والماضية .. وحتى آمالها المستقبلة سألها عنه .. بل انه فى احدى الجلسات راح يسألها أسئلة غريبة .. هل تريد أن تحصل على شقة .. أو سيارة ؟! .. كان الارهاق من تعـدد الجلسات والاسئلة قد نال منها حتى بدات تضيق .. سألته بدهشة شديدة :

ـ أوافقك على ان هذه الآحلام قد تعنى أن هناك شيئا لا أصل اليه فى حياتى .. لكنه لابد أن يكون أمرا حيويا وجوهريا للغاية حتى تتكرر الأحلام بـكل ذلك الالحاح .. لدرجة اننى ـ وبعد كل هذه الجلسات ـ ما زلت أرى هذه الأحلام ، ولا أظنك تنوى أن تسألنى عما اذا كنت أتمنى الحصول على جهاز تكييف أو خلاط أو فيديو كاست ؟!

ضحك الطبيب : لا .. لا ... أحيانا تكون الشـقة أكثر من حيوية .. عندما ـ مثلا ـ يعيش الزوجان مع أسرة أحدهمـا لـكن الزوجة تتوق لأن تنفرد وتستقل بحياتها .. وأيضا السيارة .. لقسوة معاناة المواصلات هذه الأيام ويخيل الى اننى ـ لاستهانتك بأمرهما ـ عرفت الجواب .. عندك الشقة والسيارة ..

ـ هذا صحيح .. والاثنتان ممتازتان ...

ـ عموما انا مرتاح لدهشتك .. حيث أجد فيها تمهيدا لأمر كنت أريد أن أحدثك فيه ولا أعرف كيف أبدا .. اننى فعلا بدات أسألك أسئلة هامشية .. وهذا يدلك على انه لم يعد لدى شىء .. ولذلك فقد قررت أن أقطع هذه الجلسات .. فالأولى بها شخص ربما يستفيد منها عدا اننى لن أستطيع ـ بعـد اليوم أن أتقاضى منك نقودا وأنا أحس انها .. بدون مقابل ..

الطبيب نفسه .. هو الآخر .. لم يصل !!

ص